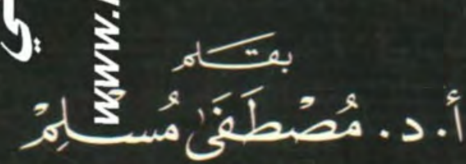
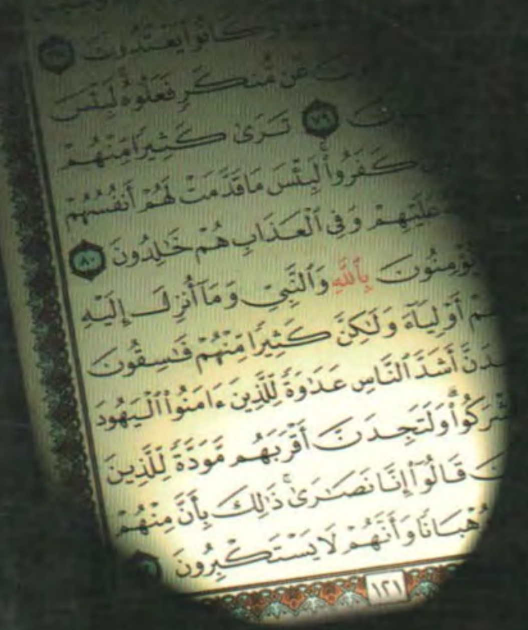
معالم قرآنية في الصراع مع اليهود





بقلم
أ. د. مُصطَفى مُسلم





دار القلم
دمشق

سِلْسِلَةُ التَّفْسِيرِ المَوضُوعِيِّ

(٣)

مَعَالِمُ قُرْآنِيَّةٌ

فِي

الصِّرَاعِ مَعَ اليَهُودِ

بقلم

أ. د. مُصْطَفَى مُسْلِم

دار القلم

دمشق

الطبعة الثانية
طبعة دار القلم الأولى
١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م

تُطلب جميع كتبنا من :
دار القلم - دمشق : ص.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧
الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
ص.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق
دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥
ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

مقدمة الطبعة الثانية لكتاب
(معالم قرآنية في الصراع مع اليهود)

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد:

فإن الصراع مع اليهود يأخذ أبعاداً جديدة كل يوم، وكلما تقدمت الأيام تزداد الرؤية وضوحاً لأهل القلوب والبصائر، وتتجلى الحقائق القرآنية في واقع الناس، ويسترشد بها المؤمنون الذين أنزل القرآن شفاء لما في صدورهم ورحمة لأحوالهم ينير لهم الطريق القويم.

لقد حدثت تطورات كبيرة في واقع الصراع مع اليهود ـ بعد صدور الطبعة الأولى من هذا الكتاب قبل خمس سنوت ـ فقد ازدادات هيمنة اليهود على الاقتصاد العالمي من خلال توحيد المؤسسات المالية الضخمة في كثير من دول العالم، وقويت قبضة اليهود على السياسة العالمية من خلال طرح مفهوم (العولمة)، وسخر اليهود أعظم قوة عسكرية في العالم لحماية مصالحها وضمان أمنها وتنفيذ سياساتها من خلال تفرد الولايات المتحدة الأمريكية بالقيام بدور الشرطي في العالم، وإلغاء دور منظمة الأمم المتحدة والمعسكرات المناوئة والحليفة لها.

ولم يبق سوى الإعلان الرسمي لدولة اليهود العالمية، ورفع اليهود الأقنعة عن وجوه عملائها الذين ينفذون سياساتهم من خلف الكواليس.

وهذه الخطوة تتلوها خطوة أخرى يعمل اليهود لها جاهدين ويتحينون الفرصة المواتية لإنجازها، وهي خطوة هدم المسجد الأقصى وإقامة هيكل سليمان مكانه، وعندئذ سيلعب اليهود بأوراق مكشوفة، لأن مرحلة التخطيط تكون قد انتهت، وليبدأ اليهود في الانتقام من الأمم التي لم تسلم قيادها وظهورها لحمل أثقال اليهود وأوضارهم وتؤدي السخرة المطلوبة منها.

هذا ما يتعلق باليهود ومخططاتهم ومراحل تنفيذها.

أما المؤمنون بسنن الله تعالى القدرية، وتكاليفه الشرعية فلهم رؤية أخرى.

إن هذه الهيمنة على مقدرات العالم الاقتصادية والسياسية والعسكرية، تتنافى مع سنة الله في التدافع ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٥١﴾ [البقرة: ٢٥١]. فلا بد من طرف آخر يدفع هذه الهيمنة.

ولا يوجد طرف آخر يحمل مقومات التدافع ويُؤَهَّل للقيام بهذه المهمة غير الأمة الإسلامية. ولئن لم توجد حكومة في العالم الإسلامي لها القدرة أو الرغبة في القيام بهذه المهمة إلا أننا نتلمس بذور مقومات هذه السنة على صفحات تاريخ الصحوة الإسلامية، ومن خلال معاناتها سيكون التجديد ـ بإذن الله ـ ويتحقق ما أخبر به رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر والشجر: يا مسلم، يا عبد الله هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود»[1].

إن كان اليهود يظنون أن هذه الهيمنة منتهى سيطرتهم على العالم وتمكنهم من الأرض. فإنها في نظر المؤمنين قمة علو اليهود وإفسادهم في الأرض للمرة الثانية المنذرة بتسليط عباد الله عليهم كما أخبر الجبار المنتقم من قوله: ﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَتُفۡسِدُنَّ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَّتَيۡنِ وَلَتَعۡلُنَّ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ٤ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ عِبَادٗا لَّنَآ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعۡدٗا مَّفۡعُولٗا ٥ ثُمَّ رَدَدۡنَا لَكُمُ ٱلۡكَرَّةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَمۡدَدۡنَٰكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ أَكۡثَرَ نَفِيرًا ٦ إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَاۚ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ لِيَسُـُٔواْ وُجُوهَكُمۡ وَلِيَدۡخُلُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوۡاْ تَتۡبِيرًا ٧ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يَرۡحَمَكُمۡۚ وَإِنۡ عُدتُّمۡ عُدۡنَاۚ وَجَعَلۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ٨﴾ [الإسراء: ٤ ـ ٨].

إنها قرب موعد إذلال اليهود، وتحرير بيت المقدس، وتدمير مصالح اليهود وحضارتهم العنصرية السوداء.

إن المعالم القرآنية التي أبرزت صراعنا مع اليهود تزداد رسوخاً وضياءً، ولم نشأ أن نضيف إليها جديداً، لأن الوقائع اليومية لا زالت تدور في محاورها وفي ظلالها.

وقد أسندنا هذه الطبعة لدار القلم الدمشقية ولصاحبها الأستاذ محمد علي دولة لما عهدنا فيه من الإتقان وحسن التعامل، جزاه الله خيراً عن العلم وأهله.

والحمد لله أولاً وآخراً.

٢١/٣/١٤٢٠هـ — المؤلف

٥/٧/١٩٩٩م — مُصْطَفَى مُسْلِم

---

(١) انظر صحيح مسلم، كتاب الفتن ٨/١٨٨.

المقـــدّمَة

الحمد لله رب العالمين الذي أنزل الكتاب ولم يجعل له عوجاً، وجعله الدستور الخالد للمؤمنين إلى يوم الدين، وجعل العزة والسيادة والفلاح لمن تمسك به واهتدى به، فهو الصراط المستقيم لا يضل سالكه، والحبل المتين لا ينقطع بالمعتصم به بل يوصله إلى دار النعيم.

والصلاة والسلام على من أنزل عليه القرآن ليكون للعالمين نذيراً، وداعياً بإذنه وسراجاً منيراً، فبلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين، فجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خير ما يجازي رسولاً عن أمته.

ورضي الله تعالى عن الآل والصحب الكرام الذين نقلوا إلينا هذا الدين ونافحوا عنه بالحجة والبرهان وناضلوا عن بيضته بالسيف والسنان وعن التابعين لهم بإحسان.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ۝١٠٢﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٧١﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد:

فقد كنت أتأمل آيات القرآن الكريم التي تتحدث عن الأمم السابقة ومواقفها من رسلها وأنبيائها ودعاة الحق فيها، وكنت أحاول أن أتلمس طبائع النفس البشرية من خلال الحوار الذي يدور بين الأمم وأنبيائهم، وأن أتعرف على سنن الله في المجتمعات الإنسانية من خلاله.

فلم أجد أمة من الأمم السابقة تناول القرآن الكريم تفصيل نشأتها وتاريخ تكوينها وبيان أحوالها ودقائق مواقفها ودخائل نفوس أفرادها وخصائص شخصيتها... مثل أمة اليهود.

وتساءلت كثيراً عن الحكمة في أن يحتل الحديث عن اليهود هذه المساحة الشاسعة من آيات القرآن الكريم.

فأوّل ما يبدأ الحديث عن البشر بعد هبوط آدم من الجنة في سورة البقرة يبدأ عن بني إسرائيل ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ۝٤٠﴾ [البقرة: ٤٠].

ويستمر الحديث عنهم في نيف وثمانين آية، وأول سورة بعد فاتحة الكتاب تسمى سورة البقرة، وهي بقرة بني إسرائيل، وتأتي السورة الثالثة سورة آل عمران، وآل عمران أسرة من أسر بني إسرائيل.

والسورة الرابعة تسمى سورة [المائدة] وهي المائدة التي طلبها بنو إسرائيل.

وخصصت سورة باسمهم هي سورة الإسراء التي تسمى سورة [بني إسرائيل] أيضاً. وتكرر قصصهم في أكثر من ثلث سور القرآن، بسطاً وإجمالاً وتصريحاً وتلميحاً. بل نكرر في صلواتنا يومياً الالتجاء إلى الله أن لا يسلك بنا سبيلهم وهم (المغضوب عليهم) فما السر وراء هذا الاهتمام بهؤلاء القوم. علماً أن تعدادهم في العالم لا يؤبه به منذ أن وجدوا على ظهر الأرض وإلى يومنا هذا ولم يكن لهم كيان عند بعثة رسول الله ﷺ كما كان الحال لغيرهم كالفرس والروم والدول الوثنية الأخرى.

- فيا ترى أكان جوارهم لمهبط الوحي وشدة احتكاكهم بالعرب أولاً ثم بحملة رسالة الإسلام ثانياً السبب في شدة الاهتمام بأمورهم؟

- أم أن النموذج الإنساني الذي يمثله بنو إسرائيل اقتضى تفصيل أحوالهم ليكون المؤمنون على بينة من أمرهم فلا ينحرفوا مثل انحرافاتهم؟

- أم إن كتابهم المنزل عليهم (التوراة) فيه من العقائد والأحكام التشريعية التي تضبط سلوك متبعيه وعقائدهم بحيث ينشئ أمة ويكوّن سلطة ودولة فكان موقف بني إسرائيل من شرائع التوراة مجالاً لبيان الحق والصواب فيها.؟

- قد يكون كل ما تقدم من الأسباب وراء هذا الاهتمام، ولعل أمراً آخر وراء ذلك - ولعله الأهم - ألا وهو أن الصراع بين اليهود والمسلمين سيبقى إلى يوم القيامة. وكلما خمدت جذوة الصراع في منطقة أو في عصر من العصور سيتجدد في مكان آخر وفي أزمنة متلاحقة وفي صور شتى إلى أن تكون الملاحم والمعارك الفاصلة قبيل قيام الساعة (حتى يقاتل المسلمون اليهود فينادي الحجر والشجر يا مسلم يا عبد الله إن خلفي يهودياً فتعال فاقتله إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود)[١].

إن أمماً كثيرة وجدت وحكمت وكانت لها صولات وجولات وحضارات في التاريخ، ولكنها اندثرت واندثرت معها حضارتها ومبادئها وعقائدها ولم يبق إلا الحديث عنها، وقلما اندثرت حضارة ثم تجددت وقامت على الأسس السابقة فتية

---

(١) صحيح مسلم: كتاب الفتن ٨/١٨٨، صحيح البخاري، كتاب المناقب ٤/١٧٥ ومسند الإمام أحمد ٢/٦٧.

نشطة إلا حضارة المسلمين فإن الله تكفل لهم البقاء وأخبر الرسول ﷺ: (أن الله يبعث لهم من يجدد لهم أمر دينهم على رأس كل قرن)(١).

وإلا أمة اليهود فقد دلت النصوص على أن حضارتهم ستتجدد بين الحين والآخر ولكنها حضارة ذات مواصفات خاصة وأهداف خاصة باليهود.

إن قضية الصراع بين اليهود والمسلمين صراع ممتد إلى قيام الساعة وسنة الله في التدافع بين الحضارتين بارزة لا تخفى على من تتبع آيات القرآن الكريم وسنة رسول الله ﷺ.

هذا السبب دفعني أن أقوم بهذه الدراسة القرآنية بعنوان [معالم قرآنية في الصراع مع اليهود].

والموضوع متشعب الأبعاد في تصوري إلا أنني لن أطيل النفس في الجوانب التاريخية القديمة بل أحاول التركيز على المزايا والخصائص العامة التي نستنبطها من تاريخهم القديم، لنستشف من خلالها ما ينير لنا الطريق في يومنا هذا وفي مستقبل الأيام وبخاصة ونحن على أبواب عهد جديد في الصراع مع اليهود يحاول بعض من ينتسب إلى الإسلام أن يغير حقائق القرآن في اليهود، ويزيل من نفس المسلم ذاك الانطباع الذي يصبغه به القرآن منذ نعومة أظفاره وهو يتلو آيات القرآن الكريم ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ [المائدة: ٨٢] ويتلو قوله تعالى عنهم ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: ٦٤].

في هذا الوقت العصيب الذي تمر به أمة الإسلام، وقد ادلهمت الخطوب من حولها واشتدت وطأة الأعداء عليها من كل جانب، وبدأت مخططات الأعداء من اليهود والنصارى والوثنيين والملاحدة تنفذ بأيدي أبناء المسلمين ممن يحملون أسماء المسلمين ويتكلمون بلغتهم ويحملون ألوان بشرتهم وسحن وجوههم، ولكن قلوبهم مغلفة مجخية(٢) لا يصل إليها نور الإيمان وقد أشربت حب الكفر وأهله ولقنت عداء الإسلام وأهله. فأصبحوا سياطاً لاهبة على أجساد المسلمين. ووصل الأعداء عن طريقهم إلى ما لم يصل إليه العدو نفسه وبدأت الخطوط العريضة للمؤامرة اليهودية تتضح معالمها، وبدأ قتم العاصفة يلوح في الأفق وبدأت أشباح فرسان المؤامرة تظهر، فكانت الشعارات واللافتات سريعة التقلب حسب المراحل التي تقتضيها رسوم القضية وتضاريس ألوانها وأصبغة الوجوه على القائمين بأدوارهم ولعل أبرز هذه المراحل تتضح من خلال:

---

(١) انظر مختصر سنن أبي داود، كتاب الملاحم ٦/ ١٦٣.

(٢) المراد بمجخية: المجخّي: هو المائل عن الاستقامة والاعتدال، انظر النهاية لابن الأثير ١/ ٢٤٢.

- إبعاد قضية الوجود اليهودي في المنطقة من أيدي المخلصين من أبناء المسلمين.
- إيجاد الدويلات الهزيلة المحيطة بإسرائيل ليتولّوا حماية حدودها[1].
- تسليط حكام الدويلات تلك على المسلمين وإذاقتهم ألوان العذاب كلما ارتفع لهم صوت ضد اليهود.
- بعد إلحاق الهزائم المتكررة بالجيوش العربية التي كانت ولا زالت تدار بأيدي سماسرة السياسة الذين يتلقون أوامرهم من أعداء الإسلام، أدخلوا اليأس في قلوب المسلمين من الحل العسكري وأن لا قدرة على مواجهة إسرائيل.
- الدخول في المفاوضات الاستسلامية مع إسرائيل ابتداء من كامب ديفيد إلى مدريد إلى جولات واشنطن إلى المفاوضات السرية في أوسلو. ليتم الاعتراف بإسرائيل. وتعطى الصك الشرعي بامتلاك إسرائيل لكامل تربة فلسطين وإلى الأبد. ولكن إسرائيل تدرك أن حفنة الحكام هؤلاء لا يمثلون شعوبهم وأن الكلمة النهائية للمسلمين، فلا تقبل هذه التنازلات منهم ولا تعترف بتواقيعهم على صكوك الاستسلام. وإنما تريد التطبيع مع الشعوب وأن يقبلها الناس كل الناس كإحدى دول المنطقة، واقترحت الخطوات التنفيذية في ذلك مثل توجيه الإعلام إلى عدم ذكر كلمة العدو الإسرائيلي، وإلغاء المقاطعة الاقتصادية، وتبادل التمثيل الدبلوماسي، وإلغاء النصوص التي تطعن في اليهود في مناهج التعليم ولو كانت هذه النصوص من القرآن والحديث النبوي، وتسخير أقلام الأدباء والمفكرين لذكر المنافع الاقتصادية من تطبيع العلاقات مع إسرائيل... إلخ المقترحات التي لا نهاية لها.

وقد بدأ التنفيذ فعلاً...

ولكن إن لهذا الدين رباً يحميه، ولا تزال طائفة من هذه الأمة ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم. وعلى رأسهم العلماء العاملون الذين أخذ الله عليهم العهد والميثاق ليبينوا للناس ما أنزله في كتابه. وأن لا تأخذهم في الحق لومة لائم.

والأصوات ترتفع من أنحاء العالم الإسلامي مستنكرة محتجة، ولكن هذه الأصوات تخبت ولا تستطيع للآن أن تشكل هديراً مدوياً يعم آذان المتآمرين ولا تستطيع أن تحيل الدوي إلى زلزال يهز الأرض تحت أقدام المأجورين فكانت هذه الدراسة مساهمة لتأصيل هذه الصرخات وتقوية هذا التيار، وبيان سنن الله الاجتماعية، في هذا الصراع الذي سيستمر إلى قيام الساعة مع اليهود.

المؤلف

---

(١) انظر المخطط الإسرائيلي لهذه الدويلات في كتاب خنجر إسرائيل وهو تقرير سري نشر في الخمسينيات الميلادية من هذا القرن وتسرب إلى الإعلام.

منهجي في البحث

أولاً: التركيز على القضايا العامة:

في هذه الدراسة التركيز على القضايا العامة التي يشترك فيها بنو إسرائيل عامة. أما القضايا الخاصة بأفراد مثل قصة قارون والسامري فمثل هذه الانحرافات وإن كانت تدل على شريحة من اليهود تأصلت فيهم هذه المعاني إلا أن القرآن الكريم لم يعمم المؤاخذة عليهم بسبب أمثال هؤلاء أما في قضايا أخرى فإننا نجد القرآن الكريم خاطب بني إسرائيل عامة وإن كانت وقعت من فئة منهم فيدل ذلك على أن المتأخرين منهم مؤيدون لهم وعلى شاكلة السابقة، فقضية ذبح البقرة وقضية عبادة العجل، وقضية طلب رؤية الله جهرة، وقضية الطلب أن يجعل لهم آلهة كما لغيرهم آلهة وأصنام. . .

كلها قضايا جاء الخطاب فيها بصيغة التعميم ومؤاخذة اليهود والمعاصرين لرسول الله ﷺ على تلك الأفعال التي وقعت من متقدميهم علماً أن المبدأ الشرعي في المحاسبة ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [النجم: ٣٨].

ولكن المبدأ الآخر لو تمالأ قوم بالتأييد والتنفيذ على أمر أوخذوا جميعاً[1]. فهذا يدل على أن المتأخرين من اليهود كانوا مؤيدين لأفعال أسلافهم فشاركوهم في المآثم.

(١) القاعدة مأخوذة من القاعدة الشرعية: لو تمالأ قوم على جريمة أخذوا جميعاً بها. يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه (لو تمالأ ـ أهل صنعاء ـ لقتلتهم جميعاً) انظر الموطأ للإمام مالك ٢/ ٨٧١، كتاب العقول.

وما ذاك إلا أن السابقين حرفوا وبدلوا وكتبوا ما أملت عليهم أهواؤهم وورثها المتأخرون فأخذوها مسلّمة من غير تمحيص وتدقيق ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ۝٧٩﴾ [البقرة: ٧٩].

بل إن هذه الكتابات التي كتبوها بأيديهم ومنها (التلمود) لا يزال يشكل الأساس التربوي والمنطلقات الفكرية التي يتربى عليها أجيال اليهود إلى يومنا هذا وإلى ما شاء الله من الأجيال...

ثانياً: النقل من كتب اليهود:

وما دامت الدراسة حول اليهود ومعتقداتهم وأخلاقهم وشرائعهم وشروحهم للتوراة وتحريفاتهم لها، سأضطر إلى النقل عن كتبهم ولكني حاولت جهدي أن أنقل من كتبهم مباشرة فإن لم أتمكن فقد حاولت النقل من الكتب التي نقلت من المصادر اليهودية وأشارت إلى المصدر وحددت الجزء والصفحة.

أما الذين نسبوا كلاماً إلى بني إسرائيل أو إلى اليهود من غير تحديد المصدر فقد حاولت جهدي أن لا أنقل مثل هذا النص وذلك حرصاً على أن يكون النقل دقيقاً يمكن التحقق من وجوده في المصادر اليهودية.

ثالثاً: منطلق البحث قرآني المنزع:

أشغلت الدراسات حول اليهود حيزاً كبيراً في المكتبة المعاصرة وأغلبها ينصب على الجانب التاريخي من حياة اليهود، وكما ينصب قسم منها على كتبهم المقدسة وعقائدهم فيها...

والمؤلفون المسلمون كتبوا قديماً وحديثاً عن اليهود وعقائدهم وأخلاقهم وشرائعهم، وكانت منطلقاتهم في الغالب تنصب على كتب اليهود والدراسات التي أجريت حولها قديماً وحديثاً وقليل من الباحثين الذين انطلقوا في دراستهم عن اليهود من المنطلق القرآني بأن يجعلوه الأساس الذي يبنون عليه دراستهم عن اليهود ورأى أن المنطلق القرآني في الدراسة هو الأسلوب الوثائقي الصحيح

والدقيق فكما أن أصل الديانة اليهودية وأصل كتبهم وأنبيائهم لا يستطيع أحد أن يوثق وجودها ووقائعها توثيقاً علمياً بحيث لا يتطرق إليه الشك بمعزل عن الرجوع إلى القرآن الكريم، فكذلك عقائدهم وانحرافاتهم ومواقفهم من أنبيائهم وشرائعهم لا يمكن أن تثبت بشكل دقيق وصحيح بمعزل عن القرآن الكريم.

لذا فقد ورد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«يجيء النبي يوم القيامة ومعه الرجلان وأكثر من ذلك فيدعى قومه فيقال: هل بلغكم هذا؟ فيقولون: لا، فيقال له: هل بلغت قومك؟ فيقول: نعم، فيقال: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، فيدعى محمد وأمته، فيقال لهم: هل بلغ هذا قومه؟ فيقولون: نعم، فيقال: وما علمكم؟ فيقولون: جاءنا نبينا فأخبرنا أن الرسل قد بلغوا فذلك قوله عز وجل ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾** قال عدلاً **«لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً»**[1].

لقد نزل بالأمم والشعوب من الكوارث والأحداث ما تسبب في ضياع كثير من شؤونها وطمس معالم حضاراتها، فلا يستطيع أحد أن يثبت معالم تلك الحضارات. وعلم الآثار وعلم التاريخ أعجز أن يسجل دقائق الأحداث والوقائع كما جرت، فليس كل الأمور تكتب على الآثار، وليس كل الأحداث الصغيرة في حياة الشعوب تدون في سجلات التاريخ، حتى وإن سجلت فكثيراً ما تعرض للزيف والتحريف والتشويه عن قصد وعن غير قصد، وربما دونت الأحداث التاريخية بعد فترة طويلة من الحادثة كما حدث لتاريخ بني إسرائيل في التلمود وما دوّن من سير بني إسرائيل فقد دوّن بعضها بعد أكثر من أربعة عشر قرناً وبعضها دوّن بعد ميلاد المسيح عليه السلام، وحتى بعد التدوين تعرضت كثيراً للتحريف والتبديل.

إلا أن النص الوثائقي الذي لم يتطرق إليه الشك هو النص القرآني الذي تكفل الله جل جلاله بحفظه ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: ٩].

---

(١) أول الحديث رواه الإمام مسلم، كتاب الإيمان ١/١٣٨.

فعلى الرغم من طروء أحداث تاريخية جسام على الأمة الإسلامية إلا أن القرآن الكريم بقي مصوناً محفوظاً في الصدور مدوناً في السطور لم تطله أيدي المحرفين بفضل أسلوبه المعجز...

لذا فإن منطلقنا في هذه الدراسة من النص القرآني يجعله الأساس الثابت والقاعدة الأصيلة في إثبات الواقعة، ثم تأتي الشواهد على تلك القاعدة أو الواقعة المذكورة في القرآن الكريم من الحدث التاريخي أو من كتب بني إسرائيل أو من الدراسات التي قام بها غير علماء المسلمين، وذلك لإقامة الحجة على اليهود على قاعدة (من فمك أدينك) قليل من الباحثين من سلك هذا الأسلوب في البحث عن اليهود من منطلق قرآني.

وقد يورد بعضهم نقداً لهذا الأسلوب ويتهم المنهج بعدم موضوعيته وكونه منحازاً لأن الصراع في الأصل بين المسلمين وبين اليهود فكيف يكون كتاب المسلمين الأول حجة على خصومهم...

إننا نبين من خلال البحث بإذن الله، كيف أن الدراسات المحايدة التي أجريت كلها متطابقة مع ما جاء في القرآن الكريم عن اليهود، وكذلك سنورد الأدلة الكثيرة على الإنصاف الذي نلمسه في آيات القرآن الكريم عند الحديث عن اليهود، فعندما كانوا على النهج الصحيح في زمن موسى عليه السلام كيف تحققت فيهم الخيرية وفضلوا على العالمين. وجاء الثناء على مواقفهم، ولكن عندما بدأ التحريف والكتمان والتلاعب بشرائع الله ذكروا بما فيهم فكان الحق والعدل والإنصاف ملازماً في كل الأحوال لأحكام القرآن الكريم.

لعل وجهاً من وجوه إعجاز القرآن الكريم يبرز من خلال سرد الوقائع التاريخية المسلم بها عند الباحثين عندما نلمس ذلك وقد أوردها القرآن الكريم وقررها ووجه الأنظار إلى تلك الوقائع بأبعادها وشخوص أفرادها وحوار أطرافها وكأن القارئ والمستمع لآيات القرآن الكريم يعايش الواقعة أو يشاهدها.

من أجل ذلك كانت دراستنا هذه دراسة قرآنية ومن ألوان التفسير الموضوعي للقرآن الكريم.

بين يدي المعالم
مصطلحات وتعاريف

كتب اليهود المقدسة ومدى صحة نسبتها إلى الوحي وبعض المصطلحات الخاصة بهم:

١ ـ أساس شريعة اليهود التوراة بأسفارها الخمسة:

التكوين، الخروج، اللاويين (الأحبار)، العدد، التثنية (الاشتراع)، أو (تثنية الاشتراع).

ويعتقدون أنها أوحيت إلى موسى من ربه على جبل الطور في سيناء، فسلمها إلى قومه مكتوبة كما تلقاها.

٢ ـ التلمود: تطلق كلمة التلمود أو التلموذ على شروح وحواشي التوراة فقد كتب تفسير للتوراة أولاً وأطلق عليه (المشناة) وكتب شرح المشناة وأطلق عليه (الجمارة) ويطلق اسم التلمود عل المشناة والجمارة معاً، وقد يطلق اسم التلمود على الجمارة وحدها أحياناً[١].

فتعتبر التوراة متناً والمشناة شرحاً عليها والجمارة حاشية على الشرح.

٣ ـ التلمود بقسميه من عمل الطائفة الفريسية ـ وهي أشد الطوائف اليهودية عنصرية وتعصباً وهم يقدسون التلمود كالتوراة أو أشد، ويقولون إن التوراة وحدها لا تغني ولا تصلح دون المشناة والجمارة.

والتلموديون يعتقدون أن شريعتهم قسمان: مكتوبة وشفوية، فالمكتوبة

---

(١) انظر مقدمة كنوز التلمود ص١١.

هي التوراة بأسفارها الخمسة، وإنما سموها مكتوبة لاعتقادهم أن موسى تلقاها وحياً مكتوباً، وكذلك أخذها عنه قومه.

أما الشفوية فهي محتويات المشناة[١].

٤ ـ السنهدرين: أي المحكمة العليا، وهي الرسالة الرابعة من أقسام المشناة وفيها الجزاءات أو العقوبات والتعويضات والباب الرابع بفصوله الأحد عشر يوضح تشكيل السنهدربن ونظامها وسلطاتها[٢].

والتلمود يعتمد عليه اليهود أكثر من اعتمادهم على التوراة، وجاء في تعليقات كثيرين من حاخاماتهم أنه لا يقبل دين من لم يعمل بالتلمود جاء عن أحد حاخاماتهم: (إن من يقرأ التوراة بدون المشناة والجمارة فليس له إله). وجاء في كتاب (حاجيا):

(من احتقر أقوال الحاخامات استحق الموت أكثر ممن احتقر أقوال التوراة، ولا خلاص لمن ترك تعاليم التلمود واشتغل بالتوراة فقط، لأن أقوال علماء التلمود أفضل مما جاء في شريعة موسى)[٣].

٥ ـ الدياسبورا: هي أراضي الشتات أو المنفى.

٦ ـ الجيتو: هي الأحياء الخاصة باليهود في مدن العالم.

٧ ـ الجويم: هم الأميون ـ أي غير اليهود، غير أهل الكتاب ـ ويسميهم اليهود الأميون ـ أي المنسوبون إلى الأمم الأخرى غير اليهود.

٨ ـ الإشكنازيم هم اليهود الغربيون الذين قدموا إلى فلسطين من أوروبا بما فيهم يهود بحر الخزر وروسيا.

٩ ـ السفارديم هم اليهود القادمون من الدول العربية إلى فلسطين وكذلك من الدول الآسيوية والأفريقية.

---

(١) مقدمة كنوز التلمود ص ١٤.

(٢) المرجع السابق ص ٢١.

(٣) الكنز المرصود في قواعد التلمود ص ٥٠، ٥١.

١٠ ـ يهوه: هو إله اليهود الخاص بهم، وهو الذي اختار اليهود ليكونوا أبناءه وفضلهم على الناس بزعمهم.

١١ ـ الرابيّون: جمع رابي هو رجل الدين اليهودي.

اختلاف اليهود والنصارى في أسفار العهد القديم:

من المعلوم أن اليهود يعتبرون أن كتبهم المقدسة هي التوراة ويسمونها العهد القديم، وشروح التوراة وحواشيها، ويطلقون عليها اسم التلمود، وهي المكونة من المشناة والجمارة ويعتبرون التلمود لا يقل قدسية عن العهد القديم، لأنها فهوم أحبارهم من التوراة أما النصارى فلا يعترفون بغير العهد القديم أما التلمود فلا يعتقدون فيه القدسية بل يعتبرونه باطلاً لأنها تمثل أهواء بني إسرائيل وتحريفاتهم للتوراة.

إلا أن الكنائس النصرانية تختلف بين بعضها في حجم العهد القديم وعدد أسفاره.

فالكنيسة الكاثوليكية تقر جميع الأسفار والأجزاء التي وردت في الترجمة اللاتينية عن الأصل العبري وتزيد عن هذا الأصل، وتعتبرها كلها أسفاراً وأجزاء مقدسة وتعتبرها من أسفار العهد القديم وأجزائه.

إلا أن الكنيسة البروستانتية لا تعتبر الزيادات التي جاءت في الترجمة اللاتينية مقدسة ولا تعتبرها من العهد القديم.

أما الفرقة السامرية ـ التي انقرضت تقريباً ـ فلا تؤمن إلا بسبعة أسفار من العهد القديم والجديد وهي أسفار موسى الخمسة وسفر يوشع وسفر القضاة، وتنكر ما عدا ذلك[١].

(١) الأسفار المقدسة، علي عبد الواحد وافي ص٢١.

اليهود والوحي المنزل
على موسى عليه السلام

نسبة ما يكتبه أحبار اليهود إلى الوحي السماوي:

يقول الله عز وجل عن أحبار اليهود: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [البقرة: ٧٨، ٧٩].

ـ جاءت الآية الكريمة في سياق بيان انحرافات بني إسرائيل عن الحق الذي جاءهم به موسى عليه السلام، وكيف تآمروا فأخفوا بعضه وكتموه بعد أن علموا شرائعه ولكن لم يوافق أهواءهم فأخفوه عن الناس يقول جل من قائل: ﴿۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [البقرة: ٧٥، ٧٧].

ـ وكانوا أحياناً يكتبون أشياء من التوراة ويدسون بين آيات التوراة كلاماً من عند أنفسهم ثم يلوون ألسنتهم بها ليظنها السامع أنها من التوراة يقول الله جل جلاله ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [آل عمران: ٧٨].

ـ ولم يترك اليهود شيئاً من أحكام التوراة يخالف أهواءهم إلا حرفوه وبدّلوه ولم يتركوا إشارة أو دلالة صريحة أو ضمنية يمكن أن يستدل منها على الأنبياء وشرائعهم التي تأتي بعد شريعة موسى عليه السلام إلا طمسوه أو حرّفوه وأخفوه عن الأعين:

يقول جل جلاله: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [المائدة: ١٣].

ويقول أيضاً: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ [المائدة: ١٥].

لقد جاء هذا الخطاب وغيره لليهود المعاصرين لرسول الله ﷺ علماً أن التحريف والتبديل والإخفاء كان في أجداد هؤلاء، ربما كان الإخفاء والتبديل في عصر هؤلاء أقل من السابقين، إلا أن الخطاب شملهم مع السابقين لأنهم كانوا يسيرون على منهج أسلافهم ورضوا بما وجدوه بين أيديهم ولم يحكموا عقولهم فيما بين أيديهم من القضايا المناقضة للعقل، المستحيلة على الرب الذي وصفوه بأوصاف يترفع عنها الإنسان السوي، وشوّهوا في كتبهم الموضوعة سير الأنبياء والمرسلين الأطهار الأبرار، فاستحقوا لعنة الله وغضبه كما باء به أسلافهم المبدّلون لشرائع الله.

لقد دلّت الدراسات التي أجريت على الكتاب المقدس وشروحه وحواشيه، أنها كتبت بأقلام اليهود في عصور متأخرة عن موسى عليه السلام يقول في ذلك الدكتور علي عبد الواحد وافي: «ظهر للمُحَدَثين من الباحثين من ملاحظة اللغات والأساليب التي كتبت بها هذه الأسفار ـ أسفار العهد القديم ـ وما تشتمل عليه من موضوعات وأحكام وتشاريع، والبيئات الاجتماعية والسياسية التي تنعكس فيها، ظهر لهم من ملاحظة هذا كله أنها قد ألفت في عصور لاحقة لعصر موسى بأمد غير قصير ـ وعصر موسى يقع على الأرجح

حوالي القرن الرابع عشر أو الثالث عشر قبل الميلاد ـ وأن معظم سفري التكوين والخروج قد ألف حوالي القرن التاسع قبل الميلاد، وأن سفر التثنية قد ألف في أواخر القرن السابع قبل الميلاد، وأن سفري العدد واللاويين قد ألفا في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد أي بعد النفي البابلي الذي يعرف بإجلاء بني إسرائيل إلى بابل سنة ٥٨٧ قبل الميلاد ـ وأنها جميعاً مكتوبة بأقلام اليهود، تتمثل فيها عقائد وشرائع مختلفة تعكس الأفكار والنظم المتعددة والتي كانت سائدة لديهم في مختلف أدوار تاريخهم الطويل. . . فهي إذن تختلف كل الاختلاف عن التوراة التي يذكر القرآن أنها كتاب سماوي مقدس أنزله الله على موسى»[١].

ويقول أيضاً «. . وعلى أساس هذه التحقيقات الحديثة نفسها يرجح الباحثون أن قسماً من الأسفار الأخرى للعهد القديم قد ألف في الفترة الواقعة بين النصف الأخير من القرن التاسع وأوائل القرن السادس قبل الميلاد. . . وأن قسماً آخر قد ألف في الفترة الواقعة بين أوائل القرن السادس وأواخر القرن الرابع قبل الميلاد»[٢].

وإذا أخذنا بعين الاعتبار الأوضاع غير المستقرة لليهود وتعرضهم للتشريد والسبي والقتل، خلال هذه القرون المديدة، فكيف يمكن أن تحفظ من الضياع والتلف والزيادة والنقص، هذا إن لم تكن هناك رغبة من القائمين على شؤونهم الدينية في الزيادة والنقص والتبديل أما الأسفار الخفية فلها شأن آخر.

فقد قرر أحبار اليهود منذ القديم أن لا يطلعوا عليها عامة اليهود فضلاً عن غيرهم، ولم يضعوها بين أسفار العهد القديم، ولكن يعطونها القدسية مثل أسفار العهد القديم[٣].

وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك بقوله: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [المائدة: ١٥].

---

(١) الأسفار المقدسة، علي عبد الواحد وافي ص١٧.
(٢) المرجع السابق ص١٨.
(٣) المرجع السابق ص ٢٣.

قصة البروتوكولات

كان (آدم وايزهاويت) أحد رجال الدين المسيحيين، وأستاذ علم اللاهوت في جامعة (أنغولد شتات) الألمانية، فأدى تعمقه في دراسة النصرانية على إثارة الشكوك حول الكتاب المقدس، ولم تقنع عقله ولم يدخل اليقين على قلبه، فألحد وكفر بالنصرانية، وكان ذا عقلية تنظيمية ودراسات أكاديمية فاتصل به أبالسة اليهود ليستغلوا طاقاته العقلية وقلقه النفسي وأغروه بالمال والمنصب والجاه وإفساح المجال أمامه من خلال الماسونية العالمية، فكلفوه بمراجعة بروتوكولات حكماء صهيون القديمة - وكانت أفكاراً مبعثرة وأماني شريرة لإفساد العالم - وطلبوا منه إعادة تنظيمها وصياغتها على أسس حديثة وعبارات براقة، وأسلوب منطقي ليكون دستور المحافل الماسونية والمدارس الصهيونية التي تربى عليها الأجيال ويسعون في تطبيقها، كان ذلك عام ١٧٧٠ م.

وقام (آدم وايزهاويت) بهذه المهمة بشكل أذهل رؤوس الشر من اليهود وأنهى الصياغة عام ١٧٧٦م. ومكافأة له على إنجاز هذا العمل الضخم أسندت إليه رئاسة المحفل الماسوني، وأسس جماعة باسم (جماعة حكماء صهيون) وادعى وايزهاويت أنه يسعى لإقامة حكومة عالمية واحدة مؤلفة من الأشخاص ذوي الطاقات الفكرية الكبرى والعبقرية النادرة.

وكان بذلك يشبع إلحاده الداخلي بحيث يدمر الديانات كلها، ويسعى لإقامة حكومة تخطط للعالم أجمع وفق أهوائه. ووجد فيه اليهود ضالتهم في تدمير الديانات وتسخير هذه الطاقات الفكرية العالمية لمآربها الخاصة.

واستطاع وايزهاويت أن يضم إلى محفله أكثر من ألفين من أبرز المتفوقين في ميادين العلم والاقتصاد والسياسة والصناعة وأساتذة الجامعات.

فكان أن تأسس بالتالي (محفل الشرق الأكبر، يستقطب الجمعيات الماسونية في العالم يسيرها حسب مشيئته)[1].

وتبنت المحافل اليهودية هذه البروتوكولات، وسعت إلى تنفيذها. وكان من أبرز المحافل والمؤتمرات التي عملت على تبنيها وتطبيقها المؤتمر الصهيوني المنعقد في بال بسويسرا عام ١٨٩٧م. وبذلك خطا اليهود الخطوة الأولى في علو بني إسرائيل وإفسادهم في الأرض للمرة الآخرة.

---

(١) انظر كتاب: اليهود وراء كل جريمة بتصرف واختصار ص١٢ وما بعدها.

توطئة
في تربية الأمة الإسلامية تربية ربانية
من خلال الاتعاظ بأحوال الأمم

من المعلوم لدى علماء هذه الأمة والمشتغلين منهم بتفسير القرآن الكريم وعلومه أن القرآن الكريم نزل أول ما نزل في مكة المكرمة (وتسمى المرحلة المكيّة) يبين معتقدات الأمة ويبني الشخصية الإسلامية المتميزة عن غيرها بفكرها وسلوك أفرادها، وبقي القرآن المكي مدة ثلاثة عشر عاماً يرسخ هذه العقيدة ويبلور هذه الأخلاق ويدعو إلى أمهاتها.

واتبع القرآن الكريم الأساليب المختلفة الكفيلة بتحقيق تلك الأهداف فمن أسلوب النظر إلى ما في الكون المحيط، إلى تلك العبارات العنيفة التي تشد انتباه المخاطب إلى ما يلقى إليه من كلام كأساليب الاستفهام والتعجب والردع والقسم وتلوين الخطاب من الغيبة إلى الحضور ومن المفرد إلى المثنى والجمع، ومن أسلوب القصة إلى الخطاب المباشر من الأمر والنهي. . .

كل ذلك لترسخ عقيدة التوحيد في مكامن النفس المؤمنة لتتطهر من عقابيل الشرك والوثنية، ولتنبثق من هذه العقيدة أخلاق الإسلام لتصيغ سلوكاً فريداً سامقاً نظيفاً نقياً.

ومن خلال عرض هذه العقائد وبيان سلوك أتباعها جرى ذكر الأمم السابقة ومنهم اليهود. الذين اختارهم الله لحمل رسالته فترة من الزمن وأناط بهم مسؤوليتها ولكنهم تقاعسوا وانحرفوا.

ومن خلال استعراضنا لحديث القرآن المكي عن اليهود نجد الاقتصار

على القضايا العقدية أيضاً، مجابهتهم لأنبيائهم فيها كما نجدها في سورة الأعراف وطه أما تحريفاتهم للشرائع والأحكام التفصيلية. وكتمانهم أمر رسول الله ﷺ وتآمرهم عليه فتأتي في السور المدنية مفصلة.

وهذا التدرج منسجم تمام الانسجام مع أسلوب القرآن الكريم العام في بناء الشخصية الإسلامية وإقامة صرح المجتمع الإسلامي، فما بيان مواقف اليهود من عقيدة التوحيد والإيمان باليوم الآخر وصلتهم بأنبيائهم إلا توضيح لحقيقة التوحيد والبعث بعد الموت وتفصيل لمهمات الأنبياء والمرسلين فتناول هذه الأمور من خلال الحديث عن اليهود رافد من روافد المعرفة الحقة لبناء الشخصية الإسلامية المتميزة من خلال التحذير مما وقع فيه المحرفون المضللون.

وفي المرحلة المدنية التي كانت فيها مهمة البناء والصيانة والحماية تشغل الحيز الأكبر في الآيات القرآنية يأتي دور الاستقامة على شرائع الله والأخذ بها بحزم وعزم وترك الروغان تجاهها. كان النموذج الذي يبين تخاذل المدعويين وتقاعسهم عن التطبيق وحمل الأمانة على الوجه الصحيح يأتي بيان هذا النوع من خلال مواقف اليهود في تطبيق شرائع التوراة كما تعرضها سورة البقرة وسورة النساء والمائدة وكلها سور مدنية.

إن الحديث عن اليهود يتلاءم في كل مرحلة من الدعوة الإسلامية مع متطلبات المرحلة من بناء وتكوين وصيانة وحماية، فهم النموذج المنحرف الذي يساق لأخذ العبرة من انحرافاتهم. ولا شيء يعطي العظة للمتعظ كأسلوب الضال وسلوكه.

والسؤال الذي قد يثور في الأذهان، أما كان الأولى والأجدى عدم التعرض لليهود في المرحلة المكية حيث لم يكن لهم وجود فيها ولم يكن للمسلمين احتكاك بهم، فهلا تركوا فتح هذه الجبهة إلى حين؟ ليوحدوا جهودهم ضد المشركين، وخاصة أن المسلمين في مكة كانوا مستضعفين يخافون أن يتخطفهم الناس من حولهم.

لو كان الأمر متروكاً للاجتهاد البشري لكان هذا التفكير مستساغاً مقبولاً، بل ربما كان من لا يأخذ به يتهم بالتسرع وقلة البصيرة.

أما وأن التخطيط رباني وتحديد الجبهات والمراحل كلها تنزيل من العزيز الحكيم، فلا شك أنها لحكم عظيمة وغايات كبيرة، ولعل للجانب التربوي للشخصية الإسلامية وترسيم معالم البناء الاجتماعي للأمة الإسلامية دوراً هاماً فيها، ومما نستلهمه من الهدايات التربوية التي نستشفها من ثنايا آي الذكر الحكيم:

١ ـ بناء الشخصية الإسلامية بناءً متميزاً عما سواها من الشخصيات التي صاغتها بيئات مختلفة وتحت تأثيرات وضغوط اجتماعية منحرفة عن منهج الله تعالى، حيث كانت الضغوط في الساحة من موروثات الجاهلية بخرافاتها وأساطيرها وأثقالها وأوزارها.

وكانت اليهودية بحقدها وبغيها وانغلاقها وعنجهيتها واستغلالها وجشعها التلمودي وكانت النصرانية بضلالها وميوعتها وتفاهتها وقد انطمست معالم أتباعها هي المؤثرات في الساحة وهي مصادر المعرفة لتكوين الشخصية الإنسانية في ذلك الوقت.

والقرآن نزل ليكوّن خير أمة أخرجت للناس، لها مقوماتها الذاتية ومصادرها المعرفية، فلا بد من توحيد مصدر المعرفة لديها ولا بد من تجفيف المصادر التي تنزف الدخن والخبث، لكي تكون الأمة عارفة بشرعتها ومنهاجها.

ولقد نزل من أوائل ما نزل في المرحلة المكية سورة الفاتحة[١]، وفيها التضرع إلى الله تعالى بهداية المؤمن إلى الصراط المستقيم، وتجنبه صراط المغضوب عليهم وهم اليهود ـ وصراط الضالين وهم النصارى ـ كما جاء في حديث عدي بن حاتم[٢].

---

(١) يقول أهل التفسير: لم تكن صلاة بدون فاتحة الكتاب ومن المعلوم أن الصلاة فرضت في الأيام الأولى من البعثة كما أشارت إلى ذلك سورة العلق والمزمل وسورة المدثر وهي من أوائل ما نزل من القرآن.

(٢) مسند الإمام أحمد ٤/٣٧٨.

فتحديد هذا النهج وبيان الصراط المستقيم يستدعي بيان المناهج الضالة حتى تتجنب السبل الأخرى المتفرقة التي تؤدي بصاحبها إلى المزالق والمهالك، فكان التعرض لعقائد اليهود وانحرافاتهم ومواقفهم مع أنبيائهم أمراً تقتضيه دواعي التكوين للشخصية الإسلامية المتميزة.

٢ ـ لو بدأت المعركة مع اليهود مع بداية المرحلة المدنية لقال بعض المتقولين إن محمداً أخذ من اليهود ما احتاج إليه ثم حسدهم وناصبهم العداء بعد الاحتكاك بهم، فعلى الرغم من الهجوم القرآني عليهم وعلى زيفهم وانحرافهم وكتمانهم الحق وقتلهم الأنبياء منذ بداية البعثة، فقد قال من قال في زماننا هذا ما قالوه إن محمداً أخذ علومه من اليهود، فكيف لو تأخر بيان ذلك إلى المرحلة المدنية.

كما أن المؤمن قد أعطي علاجاً وقائياً لما قد يتعرض له عند الاطلاع على ما عند اليهود في المرحلة المدنية، فيعلم أن اليهود لن يكونوا صادقين مع المسلمين، وقد خانوا العهود والمواثيق التي أخذها عليهم ربهم، وأشهد عليهم أنبياءهم فعجزوا وفسقوا وغيروا وبدلوا فلا أمان لهم...

ولكي يعلموا طوية النفس اليهودية التي تربت على اللؤم والحقد وحب الإفساد في الأرض فلا يثق المؤمن بهم ويكون على حذر منهم عند التعامل معهم، وينفر من هذه الشخصية الملتوية الحقودة أشد النفور.

٣ ـ ولتعلم الأجيال الإسلامية اللاحقة من خلال الآيات المكية أن معركتنا مع اليهود معركة مستمرة بغض النظر عن المواقع التي يحتلها كل من الطرفين وليستشفوا من خلال الآيات القرآنية أن المعركة معركة المنهج الرباني والصراط المستقيم ضد المناهج البشرية الجاهلية المحرفة لكلمات الله، الساعية للإفساد في الأرض[١].

---

(١) انظر معركة الوجود بين القرآن والتلمود ص ٧٨ ـ ٧٩.

الباب الأول

المنهج القرآني في عرض قضايا بني إسرائيل

تحدث القرآن الكريم عن بني إسرائيل طويلاً في سور كثيرة بلغت خمسين سورة في المرحلة المكية التي لم يكن هناك أي احتكاك بين المسلمين وبين اليهود وفي المرحلة المدنية التي كان فيها لليهود دور كبير في محاولة إطفاء نور الله والقضاء على دعوة الإسلام وعلى حياة رسول الله ﷺ.

ولم تحظ ملة من الملل ولا قوم من الأقوام بالحديث عنهم بمثل هذا الشمول وهذه التفصيلات ما حظي به اليهود.

وحديث القرآن عنهم يتسم بمنهج دقيق يتناسب مع المراحل الدعوية التي مرت بها دعوة الإسلام ويمكن عرض هذه المراحل في فصلين اثنين:

الفصل الأول: في المرحلة المكية.

الفصل الثاني: في المرحلة المدنية.

الفصل الأول
في المرحلة المكية

إن أية دعوة إصلاحية تقوم في مجتمع ما تستهدف تغيير الأسس الاجتماعية وإقامته حسب مفاهيم جديدة تقابل عادة بالمراحل التالية:

أ ـ مرحلة عدم الاكتراث بها واللامبالاة:

إذ إن القوم تشغلهم مصالحهم ـ وخاصة قياداتهم الاجتماعية ـ وأهواؤهم فلا يلتفتون لصوت خافت مغمور في بدايته، وإذا نقلت إليهم أنباء ظهور الدعوة الجديدة لم يلتفتوا إليها وإنما يقولون مالنا ومالها إنها ستذهب وتنقرض كما ذهب غيرها فنتركه لحوادث الدهر ونوائبه وهذا ما تصوره لنا آيات سورة الطور وتعتبر السورة من سور المرحلة المكية الأولى في الدعوة ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الطور: ٣٠ ـ ٣٢].

وعلى الرغم أن الآيات المكية في هذه المرحلة كانت توجه إلى المجتمع الجاهلي الوثني وتوجه إليهم النذر كالشهب اللامعة وكالصواعق المدوية لتوقظهم من السبات العميق الذي كانوا فيه، ومن الغفلة الطويلة التي استمروا عليها أجيالاً، فإن الآيات المكية في هذه المرحلة لم تخل من مثل هذه الإشارات المقتضبة التي تشير إلى اليهود وذلك لتحقيق غرضين أساسيين:

أولهما: بيان أن دعوة الرسول ﷺ ورسالته ليست بالرسالة المبتدعة بل تقدمه الأنبياء والمرسلون إلى أقوامهم وحملوا مشاعل النور والهداية إلى شعوبهم، فليرجعوا إلى سير الأولين ويستقرئوا أحداث التاريخ إن كان قصدهم الحق واتباعه والاهتداء إليه.

ثانيهما: لبيان أن غفلة المشركين عن الحق الذي جاء به رسول الله ﷺ وعدم اكتراثهم به وبدعوته له نماذج بشرية تقدمتهم مثل عاد وثمود وفرعون وبني إسرائيل وقوم تبع، وأصحاب الرس.

اقرأ معي تلك الإشارات في قوله تعالى في سورة المزمل - وهي السورة الثالثة في ترتيب النزول[1] ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾﴾ [المزمل: ١٥ - ١٩].

وكما قلت لئن كانت بنية المجتمع وثنية في مكة في ذاك الوقت إلا أن الإشارات إلى أهل الكتاب والاستدلال بما عندهم من العلم وأن ما جاء به محمد ﷺ موافق لما معهم - من الذي لم يغيروه ولم يحرفوه - كان يرد كأسلوب من أساليب الدعوة لإدخال الطمأنينة إلى قلوب المؤمنين بالدعوة الجديدة فإن النفس الإنسانية تأنس بالفئات والطوائف والأقوام إذا كانت متقاربة المشارب في العقائد والأخلاق والسلوكيات، وانظر إلى ما ورد في ثنايا سورة المدثر وهي السورة الرابعة[2] في ترتيب النزول يقول جل جلاله في معرض الحديث عن الوليد بن المغيرة وكلمته الباطلة عن القرآن الكريم وعن رسول الله عندما اجتمعت إليه قريش تريد رأيه فيما بلغه عن دعوة رسول الله ﷺ وما جاء به من الوحي...

﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا

---

(١) انظر الإتقان من علوم القرآن للسيوطي ١/ ٧٣. ط المكتبة العصرية بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.

(٢) المرجع السابق ١/ ٧٣.

يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَـٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ ﴾ [المدثر: ١٧ ـ ٣١].

لقد كان ورود ذكر أهل الكتاب ملائماً في هذه المرحلة من الاستشهاد بما عندهم من الحق وموافقة القرآن له وتصديقه إياه، لبناء الثقة في نفوس المؤمنين من جهة وفتح المجال للشاكين والذين في قلوبهم مرض الارتياب أن يتأكدوا من أهل الكتاب عن القضايا المعروضة في القرآن الكريم.

وكذلك ما ورد في سورة الأعلى وهي السورة الثامنة في ترتيب النزول، فبعد أن ذكرت بعض الصفات الجليلة لله جل جلاله وما أسبغ به من النعم الدنيوية والأخروية على عباده وذكر طريق الفلاح في الدنيا وأن الآخرة خير وأبقى ختمت السورة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾ [الأعلى: ١٨، ١٩].

ومثل هذه الإشارات السريعة ما ورد في سورة الفجر ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ ﴾ [الفجر: ٦ ـ ١٤].

إنها إشارات سريعة لامعة قوية الجرس شديدة الوقع على المسامع تهز القلوب هزاً وتلقي من خلال هذه التفاعلات أفكاراً غريبة على المجتمع الوثني، مهددة له بذات المصير إن استمروا على ضلالهم وغفلتهم عن الحق.

ب ـ مرحلة الترغيب والترهيب:

عندما يكثر أتباع الدعوة، ويشتد عودها، ويقبل عليها الناس وربما دخل بعض المقربين من الزعماء والأسياد في الدين الجديد، فيضطر الزعماء أن يصرفوا جزءاً من اهتمامهم لشأن هذه الدعوة الجديدة فيرسلوا بعض أتباعهم لمعرفة مقصد رائد الدعوة، ولمساومته على الأهداف التي يرمي إلى تحقيقها.

وهذا ما يفسر لنا اتصالات قريش المتكررة وهم يسألون رسول الله ﷺ عن مقصده من هذه الدعوة، ويطلبون منه تركها مقابل السيادة أو جمع المال أو الزواج من أجمل الفتيات[1].

وفي هذه المرحلة تكون الآيات الكريمة مقررة لعقيدة التوحيد وللمبادئ التي جاء بها الرسل، وداعية إلى الالتزام بأمهات الأخلاق الكريمة وعدم الاغترار بحطام الدنيا، وفي نفس الوقت تشدد النكير على الطغاة العتاة الذين يصمون آذانهم عن دعوة الحق ولا يرفعون لها رؤوسهم.

نجد ذلك في كثير من السور المكية، فتقرر موضوع الوحي والمنافحة عن رسول الله ﷺ نجدها مثلاً في سورة التكوير كما في قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ[2] ﴿٢٢﴾ وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ ﴿٢٥﴾ فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير: ١٥ ـ ٢٩].

إن تقرير حقيقة الوحي وطبيعة الرسول المرسل إليهم وأنه من البشر، وأنه يتحلى بالصفات الخلقية العالية، وأنه يتصف بالكمالات البشرية وليست غايته الدنيا وحطامها ولا الاستعلاء في الأرض، وإنما مهمته إنقاذ البشرية من ضلالاتها وتيهها إلى صراط ربها القويم، كما نقرؤه في سورة النجم في قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾﴾ [النجم: ١ ـ ١٢].

---

(١) انظر في ذلك سيرة ابن هشام بحاشية الروض الأنف ٢/٣٦، وتفسير ابن كثير ٤/٩٠.

(٢) التعبير بكلمة (صاحبكم) في هذا الموطن وفي غيره من مواطن الدفاع عن شخص رسول الله ﷺ له دلالته البرهانية الضمنية، فقد رافقوه طويلاً وصاحبوه فهل علموا فيه خللا عقلياً أو نفسياً!!

إن إزالة اللبس من أذهان الناس، والارتقاء بهم إلى أفق الغيبيات وبيان أن هذا الكون مخلوق لحكمة، وأن الفوضى والعبث والصدفة بعيدة كل البعد عن الحكمة العليا في واقع الكون ونظامه الدقيق، فعلى البشر أن يدركوا أيضاً الحكمة من وجودهم في هذه الحياة الدنيا وعليهم أن يبحثوا عن دورهم بين المخلوقات العاقلة المكلفة فيها.

ومن خلال تقرير هذه الحقائق يأتي ذكر بني إسرائيل أيضاً كنماذج بشرية تعرضت للفتنة والاضطهاد فمنهم من انحرف وسقط في هذا الابتلاء ومنهم من صمد ونجح في الابتلاء.

ففي سورة النجم نقرأ قوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴿٣١﴾ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ﴿٣٢﴾ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾ [النجم: ٢٩ ـ ٤٢].

إن تلك المبادئ مقررة في صحف موسى عليه السلام المرسل إلى بني إسرائيل فليرجعوا إليها إن كانوا في شك من أمر محمد ﷺ. وكذلك في صحف إبراهيم عليه السلام وهم (أي قريش) يزعمون أنهم ينتمون إليه ويعظمون شرائعه التي توارثوها كما هو حالهم في القيام على سدانة الكعبة وخدمة الحجيج...

وتأتي سورة البروج لتعرض نموذجاً فريداً من الدعوة إنه نموذج المؤمنين الصامدين الذين يعذبون ويضطهدون في سبيل دعوتهم ولا يتحولون عنها ولو كان مصيرهم إلى الحرق ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا

بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ ﴾ [البروج: ٤ ـ ١٢].

إنه تنبيه للمؤمنين بما ينتظرهم من الفتنة في دينهم وما قد يلحق بهم من أذى من الطواغيت ليعدوا أنفسهم لملاقاة هذه الأحداث وفي نفس الوقت لتحمل التهديد والوعيد لأولئك الطغاة الذين يفتنون المؤمنين والمؤمنات فإن بطش الله شديد وليعتبروا بمصير جند فرعون وثمود وأصحاب الأخدود التي انقلبت عليهم النيران فأحرقتهم في دورهم[1].

إنها التربية القرآنية حيث يؤتى بالحدث المناسب للمرحلة المناسبة لتأخذ النفس منها العبرة.

وتأتي سورة القمر لتلقي أضواءً على حقائق أخرى من مشاهد يوم القيامة وحشرهم كالجراد المنتشر، ولتتحدث عن مصير مجموعة من الأقوام قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وآل فرعون من الذين كذبوا بآيات الله فماذا كان مصيرهم، فيا معشر قريش ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [القمر: ٤٣ ـ ٤٥].

وفي سورة (ص)، و(يس) و(مريم) و(طه) عرض نماذج من قصص الأنبياء مع أقوامهم وما أصابهم من الفتنة والابتلاء وكيف أوذوا فصبروا، وبيان سنة الله تعالى في أولئك المتحزبين المناهضين لدعوة الحق ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ ﴾ [ص: ١١ ـ ١٧].

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٤/ ٤٩٥ ومن المعلوم أن قضية أصحاب الأخدود كانت معلومة لقريش حيث وقعت في نجران جنوب غرب الجزيرة العربية، وكانت الفتنة للنصارى على يد اليهودي ذي نواس.

إنها إشارة ذات دلالة تربوية عميقة لأتباع الدين الجديد أتباع دعوة محمد ﷺ مأخوذة من سيرة هؤلاء الأقوام الذين تحزبوا ضد دعوة الحق لقد كذبوا أنبياءهم فحق عليهم كلمة العذاب وانتصر أهل الحق عليهم.

لم يسلم أحد من الأنبياء من إيذاء الأقوام مهما كانت مكانتهم وعزتهم في مجتمعاتهم، فلئن كان نوح وهود وموسى وصالح ولوط وشعيب من عامة الناس، فما قولك في داود صاحب القوة والسلطة والملك، الذي كانت معجزاته بارزة للعيان من تسبيح الجبال معه وحشر الطير لسماع مزاميره وتلاوته... ماذا تقول عنه بنو إسرائيل وماذا دونوا في كتبهم عن سيرته، إنهم لم يتركوا نقيصة إلا ألصقوها به[1]. وهو النبي العابد الأوّاب.

فما يقوله المشركون من قريش عن رسول الله ﷺ إنه يريد الزعامة في قومه أو يبتغي بذلك الجاه والمال والحظوة عند النساء... إلخ. لا يستغرب من أهل الباطل.

ومثل ذلك ما قالوه عن مريم البتول عليها وعلى ابنها السلام، وقد أورد القرآن الكريم قصة حملها وولادتها والخوارق التي حصلت لهما حيث جعلها وابنها آية للعالمين ﴿ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ [مريم: ٢١].

فإذا كان هذا شأن بني إسرائيل مع أنبيائهم وهم أهل الكتاب وبين أيديهم التوراة ﴿فِيهِ هُدًى وَنُورٌ ﴾ **فلا غرابة أن يقولوا عن دعوة محمد ﷺ** ما تمليه عليهم أهواؤهم وأحقادهم، ولا غرابة أن تقول قريش عن دعوة الحق ما يدل على ضلالها وجهلها إنها تهيئة للنفوس وتثبيت لها على الحق لملاقاة أعداء الله المفترين المكذبين من المشركين ومن أهل الكتاب.

---

(١) نسب التلمود المزوّر إلى داود فعل الفاحشة والتآمر على قتل قائده أوريا وغير ذلك من الافتراءات والبهتان العظيم، مما يترفع عن مثله جهلة الناس فضلاً عن الصالحين، فكيف يقال ذلك عن الأنبياء المعصومين عليهم صلوات الله وسلامه.
انظر في ذلك ما ورد في سفر صموئيل الثاني الإصحاح ١١ ص٤٩٨.

ولم يكن هذا موقفهم من الأنبياء الذين كذّبوهم ولم يؤمنوا بهم. بل كانت لهم مواقف غريبة ومشينة مع أعظم أنبيائهم الذين يفتخرون بنسبتهم إليه وهم يزعمون أنهم أهل كتابه الذي أنزل عليه وحملة شرائعه وهداياته إنه نبيهم موسى عليه السلام أعظم أنبياء بني إسرائيل قاطبة. وتذكر لنا سورة طه كيف كان الحال معه وما عاناه من سفههم وتمردهم على أوامر الله وعصيانهم المتعمد.

فما كاد موسى عليه السلام يغادرهم لمناجاة ربه وقد ترك بين ظهرانيهم أخاه هارون ليصلح من شأن القوم ولا يتبع سبيل المفسدين، إلا وتآمروا عليه وجمعوا زينة القوم ليخرج لهم السامري عجلاً جسداً له خوار فيقوم الناس بالطواف به لعبادته وليقولوا كلمتهم الكبيرة ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ [طه: ٨٨]. ولما جوبه بالحقيقة واستدعي السامري ليسأل عن الدافع له على هذا التصرف السفيه، قال ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ [طه: ٩٦] إن قوماً يصل بهم السفه إلى هذا الحد من الزيغ والضلال والإفساد، فهل يؤمن جانبهم، ويتوقع منهم الخير أو مناصرة الحق.

لقد كان لقصص بني إسرائيل في هذه المرحلة المكية المتقدمة آثار بعيدة الدلالة في تكوين الشخصية الإسلامية المتميزة عن هذه الطوائف والنحل.

جـ ـ مرحلة المجادلة والمحاورة:

وإذا استمرت الدعوة في الانتشار وصمد قادتها للمغريات فلم يتنازلوا عن الحق الذي يدعون إليه، ولم تفت التهديدات في عضدهم واستمروا على منهجهم الواضح البين، لم يجد أهل الباطل مناصاً من محاولة التعرف على دعوتهم ومجادلتهم في قضاياها وطلب البراهين والحجج عليها لا رغبة في إجلاء الحق واتّباعه، بل بقصد التعجيز والتعرف على الثغرات للنفاذ منها إلى التشكيك في شأنها وصرف الأتباع عنها، بدأ بالتشكيك في أمر الرسول ورغبة في الوصول إلى إبطال أمر الدعوة نفسها وهدمها والقضاء عليها... وهذا ما عرضه القرآن ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ

يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾﴾ [الفرقان: ٧ ـ ١١].

لقد تصوروا أن يكون الرسول من الملائكة أو من جنس أرفع قدراً من البشر ليكون أهلاً للاتصال بالملأ الأعلى، ولم يدركوا سنة الله في الرسالات التي تقضي أن يكون الرسول من جنس المرسل إليهم لتتحقق الحكمة في الإرسال وهي التبليغ والبيان يقول جل شأنه في بيان هذه السنة:

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾﴾ [الإسراء: ٩٤ ـ ٩٦].

إن كون الرسول من البشر وبلسان القوم المرسل إليهم آنس للقلوب وأدعى لإلقاء السمع إلى الهداية التي يحملها إليهم الرسول، لذلك جرت سنة الله في الرسالات السابقة على هذا المنوال، وإن كانت الأقوام تكابر وتعادي وتشكك في بداية الأمر، يقول تعالى شأنه:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾﴾ [إبراهيم: ٤ ـ ٨].

وفي ذكر موسى وقومه في سياق بيان هذه السنة الإلهية في الرسالات توجيه الإنذار إلى المشركين الذين كانوا في محادة مع الله ورسوله، وبيان أن

كفر الناس جميعاً لا ينقص من ملك الله شيئاً، ولا يزيد إيمانهم جميعاً في ملك الله، ولكن الله لا يرضى لعباده الكفر.

وهذا التذكير لقوم موسى بالأنعم التي ساقها إليهم من إنقادهم من الذل والصغار والبطش الذي كان يمارسه فرعون عليهم، إشارة من خلالها إلى نعمة الأمن التي كانت تتمتع به قريش في الجاهلية بسبب الحرم الآمن الذي كانوا يسكنون فيه ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ۝٦٧ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ۝٦٨﴾ [العنكبوت: ٦٧، ٦٨]. وإعلام الله للبشرية جميعاً هذا الدستور الإلهي والسنة الربانية ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

ولم يكتف المشركون بهذا بل حاولوا استغلال ظاهرة الوحي إلى رسول الله وما كان يعتوره أثناء نزول الوحي إليه من تغير في ظاهره وما يعانيه من شدة عند نزوله[1]، فقالوا إنه مجنون، وذلك تنفيراً للناس منه وليقولوا إن ما أتى به محمد ﷺ ما هو إلا ضرب من علم الكهان والسحرة ممن لهم صلة بالجن ﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٧ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ[2] وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٠ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝١١ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝١٢ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ۝١٤ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ۝١٥﴾ [الحجر: ٦ ـ ١٥].

---

(١) انظر في ذلك وصف السيدة عائشة لحال رسول الله عند نزول الوحي (... وإن جبينه ليتفصد عرقاً في الليلة الشاتية). الحديث رواه البخاري بدء الوحي ١/٣. وقول رسول الله: «أحياناً يأتيني في مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي فيفصم عني وقد وعيت ما قال..» المرجع السابق وانظر مسند الإمام أحمد ٦/٢٥٧.

(٢) بالرسالة والعذاب... انظر تفسير المحرر الوجيز ٨/٢٨٣.

لقد كانت مجادلاتهم تتسم بالاستهزاء والسخرية والمطالب التعجيزية من الخوارق، ولم يكن هنالك من داع لكل ذلك لو كان القوم يبحثون عن الحق فإن حياة محمد ﷺ بين ظهرانيهم وقد علموا فيه العقل والرزانة والخلق الكريم حتى سموه الأمين فلما جاءهم بما جاءهم به تنكروا له وألصقوا به كل تهمة تخطر على بالهم[1]، ولم يكلفوا أنفسهم النظر في هذه الدعوة التي جاء بها فهي آيات بينات تدل على عظمة هذه الرسالة وجلال قدرها إنها رسالة التوحيد رسالة العبودية لخالق السماوات والأرض رسالة الإرتقاء بالعقل البشري إلى تدبر ملكوت السماوات والأرض والسمو الروحي والترفع عن مستنقع عبادة الأوثان والأصنام، إنهم كانوا أمام برهانين عظيمين للتحقق من صدق الرسول لو كانوا يرومون الحق ويبحثون عنه.

- التفكر في الدعوة التي جاء بها الرسول.

- التفكر في حياة الرسول نفسه ونشأته وهم أعلم الناس بأحواله. هذا هو الطريق الصحيح للوصول إلى الحقيقة، ولكن القوم وضعوا نصب أعينهم التكذيب بالرسول ودعوته والبقاء على جاهليتهم فما محاوراتهم إلا لوناً من المناورة والمراوغة ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُواْ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُواْ رُسُلِى فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ

---

(١) قال النضر بن الحارث: يا معشر قريش إنه والله قد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعد، لقد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً، أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثاً، وأعظمكم أمانة حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب، وجاءكم بما جاءكم به قلتم: ساحر، لا والله ما هو بساحر، لقد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم، وقلتم: كاهن لا والله ما هو بكاهن قد رأينا الكهنة وتخالجهم وسمعنا سجعهم، وقلتم: شاعر لا والله ما هو بشاعر قد رأينا الشعر وسمعنا أصنافه كلها، هزجه ورجزه، وقلتم: مجنون، لا والله ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون فما هو بخنقه ولا وسوسته ولا تخليطه، يا معشر قريش فانظروا في شأنكم، فإنه والله لقد نزل بكم أمر عظيم. السيرة النبوية لابن هشام: ٢/٣٨.

وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ [سبأ: ٤٣ ـ ٥٠].

لقد كان القوم يلقون بالكلام على عواهنه من غير روية وتدبر، ولكن الآيات كانت ترد عليهم بمثل هذه الردود المقنعة المفحمة التي تلجم الألسنة وتقنع العقول وتدخل الطمأنينة إلى القلوب.

ومن خلال ذلك يأتي الاستدلال بواقع بني إسرائيل لبيان أن مواقف الأقوام من رسلها متشابهة فهؤلاء بنو إسرائيل مع أنبيائهم وقد أوتوا علماً وبين أيديهم الكتب المنزلة وكلما مضى رسول جاءهم غيره وكان من أنبيائهم من كان صاحب قوة وسلطة وبراهين ظاهرة وأمارات قاهرة ومع ذلك إن لم تنبع الهداية من داخل النفس بتوفيق الله سبحانه وتعالى لم تنفع تلك الآيات والبراهين. ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾ ﴾ [سبأ: ١٠ ـ ١٤].

هذان نبيان من كرام أنبياء بني إسرائيل وهذا ملكهما وعزهما وهذه الآيات المادية التي وهبها الله جل جلاله لهما، وساسا بني إسرائيل بالعدل والحكمة وشرائع التوراة والزبور، فهل سلّمت بنو إسرائيل لهما، وهل استطاعت الجن أن يتمردوا على ملك سليمان وهل علموا من الغيب شيئاً.

لقد اختلقت بنو إسرائيل الأكاذيب حول حياة نبي الله داود، وحول

أسلوب حكم نبي الله سليمان[1]، وزعمت أنه كان ساحراً يستخدم الجن بسحره وقالوا ما قالوا وبين أيديهم البراهين القاهرة، وتمردوا على شرائع الله وقد أوتوا العلم الغزير الذي أنزله على أنبيائهم.

فلا غرابة أن تقف قريش هذا الموقف من دعوة محمد ﷺ إن الاستدلال بسير بني إسرائيل ومواقفهم من أنبيائهم يأتي في هذه المرحلة في غاية الإحكام للتشابه بينهم وبين مواقف المشركين من دعوة رسول الله ﷺ فمن ناحية تثبيت لقلب رسول الله ﷺ والمؤمنين بدعوته على الحق.

ولإقامة الحجة على المعاندين وبيان أن لهم سلفاً في هذا العناد والنكران والكفر ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [هود: ١٢٠].

ولو ذهبنا نستعرض السور المكية في هذه المرحلة التي ذكرت فيها الردود على شبهات المشركين حول الرسول ﷺ ودعوته وما جاء به من الحق، والإشارة من خلالها إلى بني إسرائيل للاستدلال والاستشهاد بمواقفهم من أنبيائهم المتشابهة مع مواقف المشركين من قريش، لو ذهبنا نستعرض ذلك لطال بنا التطواف فهناك السور الكثيرة التي اشتملت على هذا اللون من المحاورة اقرأ في ذلك الشعراء، والنمل، والقصص، ويونس، ويس والصافات وغيرها بالإضافة إلى السور التي سقنا منها أمثلة وشواهد على أحداث هذه المرحلة، إنها سنة الله التي صرّف فيها القول وقطع دابر الحجج، وما على الرسول إلا البلاغ المبين ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [الفرقان: ٥٠ ـ ٥٢].

---

(١) جاء في كتب اليهود: إن داود أخرج الشعب الذي فيها ـ مدينة المياه ـ ووضعهم تحت مناشير ونوارج حديد وفؤوس حديد وأمرّهم في أتون الآجر وهكذا صنع بجميع مدن بني عمون ثم رجع داود وجميع الشعب إلى أورشليم. انظر كتاب الكتاب المقدس سفر صموئيل الثاني الإصحاح ١٢.

إنه الجهاد بالكلمة والصدع بحقائق القرآن، ذاك كان المناسب في المرحلة المكية لتظهر معالم الحق، وتكشف سوءات الباطل، فإن أصروا بعدها على باطلهم، ولم يرفعوا رأساً بهذه الآيات وهذه الحجج والبراهين. فعلى أتباع الحق أن يتبعوا الحق الذي حملوه وليعلموا أن الهداية إلى الله جل جلاله يكتبها لعباده الذين اختار لهم السعادة ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنعام: ١٠٦، ١٠٧].

ومن هنا ندرك سنة الله في هؤلاء الأقوام الذين جمع بينهم الطغيان والمنطق الجاهلي في التفكير فالجميع قد وقفوا مثل هذا الموقف وقالوا هذه المقالة ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الطور: ٣٠ ـ ٣٢].

﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الذاريات: ٥٢ ـ ٥٥].

د ـ مرحلة الإيذاء والفتنة:

إن حبل الكذب والافتراء والأباطيل قصير، وأنفاس أهله قليلة وجولاتهم ضعيفة، فسرعان ما تنقطع بهم الحيلة وهم يقارعون الحق وأهله، ولا يستطيعون الاستمرار في مقارعة الحجة بالحجة، ولا يمكنهم الدوام في إلقاء ظلال الشكوك والشبهات على دعوة الحق.

وكلما قويت شوكة أهل الدعوة واجتمعت حولها القلوب وارتفعت هتافاتهم تصم آذان أهل الباطل، كلما انخلعت قلوبهم وارتجت الأرض من تحت أقدامهم فإن السيل الجارف لا بد أن يأخذهم في طريقه، ولم يبق أمامهم شيء يتشبثون به لمقاومة التيار الجارف، ولا تبقى لهم أرض صلبة يقفون عليها، عندئذ يأتي دور التعجل بالتخلص من قادة الدعوة بالإيذاء ومحاولة القتل والتصفية الجسدية. هذا أسلوب العاجز عن مقارعة الحجة بالحجة، الذي انقطعت به البراهين.

ينصب العذاب على الأتباع لإبعادهم عن مصدر الإشعاع والنور ومحاولة قتل الدعوة لإطفاء هذا النور.

وفي الغالب لا يلجأ أهل الكفر إلى هذه المرحلة إلا بعد اليأس من الترغيب والترهيب والمحاورة والمجادلة، فعندما يحسون أن الوقت لم يعد في جانبهم، يلجأون إلى هذا وفيه تقرير مصير أحد الطرفين.

وعندما لجأ مشركو قريش إلى أسلوب القمع والتعذيب، كان الوحي يسوق إلى الفئة المؤمنة سنن الله في الأقوام ويبين أن هذا الذي يرونه لم تخل منه دعوة ولا رسالة من الذين كانوا قبل المؤمنين، وكان رسول الله ﷺ يسقيهم جرعات من الصبر كلما شكى إليه أصحابه ما يعانونه من شدة على أيدي الطغاة[1].

والسور المكية التي نزلت في هذه المرحلة تتضمن توجيهات بارزة في الجوانب التالية:

- بالإضافة إلى القضايا الأساسية من أسس العقيدة وأمهات الأخلاق.

- كانت تذكر سير الأنبياء وأهل الدعوة وما عانوه من شدائد.

- وكانت تفتح الأمل عند الفئة المؤمنة ببيان أن الفرج قريب، وأن الشدائد قد آذنت على الانتهاء.

- لفت الأنظار إلى البعد العالمي لدعوة الحق، والتطلع إلى الأفق الواسع المنتظر.

ولما كانت أحداث بني إسرائيل وتعرضهم للفتنة والابتلاء على يد فرعون

---

(١) عن خباب قال: أتيت النبي ﷺ وهو متوسد بردة وهو في ظل الكعبة ولقد لقينا من المشركين شدة فقلت ألا تدعو الله فقعد وهو محمر وجهه فقال: لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم وعصب ما يصرفه ذلك عن دينه ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق باثنين ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمنّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله، والذئب على غنمه.
انظر صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار ٤/٢٣٩ ومسند الإمام أحمد ٥/١٠٩.

وملئه يشكل الأنموذج الكبير، وفي قصص بني إسرائيل الآيات البينات التي أكرم الله بها عباده المتقين، وكيف كان إنجاؤهم بفضل الله تعالى من ذاك الظلم عندما آمنوا واتقوا الله تعالى، نجد في سوق قصص موسى بالإضافة إلى قصص الأنبياء الآخرين منهم تكراراً وتفصيلات ودقائق لم تكن في المراحل السابقة ففي سورة الأعراف المكية تذكر قصة نوح عليه السلام مع قومه عندما كذبوه وجادلوه فأنجاه الله ومن معه في الفلك وأغرق المكذبين.

- ثم قصة هود عليه السلام مع قومه وكيف ذكّرهم بأيام الله وما جرى لقوم نوح وذكّرهم بأنعم الله عليهم ولكن القوم كذّبوا ولجوا في طغيانهم ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [الأعراف: ٧٢].

- ثم تأتي قصة نبي الله صالح عليه السلام مع ثمود وتذكيرهم بما هم فيه من النعمة وجاءهم ببينة عظيمة مبصرة ولكنهم كذبوا ﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [الأعراف: ٧٧، ٧٨].

ثم قصة لوط عليه السلام مع القوم الذين انحرفت فطرتهم وأتوا بفاحشة ما سبقهم أحد من العالمين إليها. وعندما أصروا واستكبروا وحاولوا إخراجه وأهله من القرية أنجاه الله ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأعراف: ٨٣، ٨٤].

- ثم تأتي قصة نبي الله شعيب عليه السلام، ولم يكن مصير قومه بأحسن من مصائر الآخرين من المكذبين، وكانت نجاة شعيب ومن معه.

ثم تعقب الآيات الكريمة على هذه القصص الخمس ببيان هذه السنة في العالمين ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾

﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأعراف: ٩٤ ـ ١٠٢].

وأكثر هؤلاء الأقوام اندرست معالم حضاراتهم فالمكذبون قد استئصلوا والناجون قد جاءتهم الهدايات فلم تلبث أن كانت الوراثة لبني إسرائيل الذين جاء الحديث بعد ذلك بتفصيل شامل وذلك لأن سيرتهم قد دونت وآثارهم بقيت من بعدهم، وأقاموا حضارة بعد حضارة فرعون الوثنية وما نركز عليه في سياق الآيات ونلقي عليه الأضواء تلك المواقف المشرقة التي وقفها موسى عليه السلام وأتباعه في وجه الفتنة الهوجاء ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ[1] وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ [الأعراف: ١٢٣ ـ ١٢٨].

إن قراءة سير السابقين ومعرفة سنن الله في الأولين، تدخل السكينة على قلوب الممتحنين وتعطيهم جرعات من الصبر والأمل فما دامت سنة الله في أوليائه أن يعرضوا للفتنة ليميز الله الخبيث من الطيب ويختار شهداء، ويرسم

---

(١) ما أشبه اليوم بالبارحة، تسلط الطواغيت على الفئة المؤمنة قتلاً وتشريداً وتعذيباً، لكن العجيب أن لليهود دوراً في كل ذلك فمن شروطهم في الصلح القضاء على الفئات الإسلامية..؟! والتهمة هي هي الإفساد في الأرض والإرهاب والتخريب والقضاء على السياحة واقتصاد البلد؟!!

بذلك معالم الدعوة للأجيال اللاحقة، فلا غرو أن تلقى هذه الفئة من المؤمنين الشدة ما دامت العاقبة للمتقين. كما أننا نلاحظ في هذه السورة أن السياق لم يكتف بالحديث عن نجاة بني إسرائيل من بطش فرعون وملئه، وإنما استمر السياق لبيان مواقف بني إسرائيل من نبيهم وتبرمهم بالمصاعب التي لاقوها فيما بعد وعدم صبرهم على أوامر الله، وانحرافاتهم في العقيدة وفي السلوك وكأنه تنبيه لأمة محمد ﷺ في المرحلة المكية الأخيرة وتحذير لهم إن آلت الأمور إليهم أن يسلكوا مسلكهم ويتبعوا سننهم في التبرم بشرائع الله التفصيلية أو أن ينحرفوا عن منهج الله في ذلك ولقد وقع شيء من ذلك على الرغم من هذا التحذير والتنبيه[1] ولكن كان على نطاق ضيق ولم يكن إجماعاً من الأمة على الانحراف فاليهود كان من أمرهم ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ [الأعراف: ١٣٨ - ١٤٠].

﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾﴾. [الأعراف: ١٤٨].

فوجود موسى عليه السلام بين ظهرانيهم لم يمكنهم من اتخاذ الأصنام، ولكن لما غادرهم لميقات ربه كان القوم مسرورين باتخاذ العجل إلا هارون عليه السلام ونفراً قليلاً[2] معه لم يتمكنوا من الوقوف في وجه الطغاة المنحرفين.

---

(١) عن أبي واقد الليثي أن رسول الله ﷺ لما خرج إلى حنين مر بشجرة للمشركين يقال لها ذات أنواط يعلقون عليها أسلحتهم وفي رواية - يعكفون عندها - قالوا يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط فقال النبي ﷺ: سبحان الله هذا كما قال قوم موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة والذي نفسي بيده لتركبن سنة من كان قبلكم. انظر المسند ٥/٢١٨، وسنن الترمذي، أبواب الفتن ٣/ ٣٢١.

(٢) تقول التوراة المحرفة عن حادثة اتخاذ العجل أن هارون هو الذي اتخذ لهم العجل كبرت كلمة تخرج من أفواههم، وقد برأ القرآن ساحة هارون عليه السلام حيث يقول **﴿ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمٰن فاتبعون وأطيعوا أمري﴾** سورة طه: الآية ٩٠.

إن سرد هذه الوقائع التفصيلية في سيرة بني إسرائيل ـ وكما قلنا في السابق ولم يكن لهم وجود في مكة ولم يكن للمسلمين اختلاط بهم خارجها ـ هو تهيئة للنفوس المؤمنة لكي لا يقعوا فيما وقع فيه بنو إسرائيل بعد أن ملكوا أمرهم، وعليهم أن يعدوا أنفسهم للقيام بالقوامة على دين الله ولا شيء أشد أثراً في تربية النفوس كالعظات المأخوذة من سير السابقين.

ومن لطائف الأسرار القرآنية ومن جميل وجوه المناسبات أن يأتي الحديث بعد ذلك عن دعوة الإسلام العالمية من خلال ذكر العهد والميثاق المأخوذ على بني إسرائيل أنفسهم لكي يؤمنوا بالنبي الأمي عندما يأتيهم بدعوته العالمية ـ وكأن إيراد التفصيلات في انحرافات بني إسرائيل لتهيئة نفوس المؤمنين بأن لا يتأثروا بموقف اليهود إن هم تنكروا لهم فإنهم قوم بهت وتلك سيرتهم مع أنبيائهم، فإن أعرضوا عن دعوة الإسلام وكذبوا محمداً ﷺ وقد وجدوا أوصافه في كتبهم فلا يستغرب ذلك من القوم المفسدين.

ولنعد إلى سياق الآيات، ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ﴾ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ ﴾ [الأعراف: ١٥٤ ـ ١٥٦].

إن وجود الأنبياء بين الأمم رحمة للمؤمنين، فلما كان من القوم هذا الشطط ـ علماً أنهم اختيروا من أماثل بني إسرائيل ـ في طلبهم رؤية الله عز وجل. وأخذتهم الرجفة عاد موسى عليه السلام إلى الدعاء والرجاء والتضرع إلى أن استجاب الله دعاءه إلى إحيائهم ولكن بشرط أخذه عليهم ﴿قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ

أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾ [الأعراف: ١٥٦ ـ ١٥٨].

نعم إنها نقلة من صعيد مكة وشعابها وجبالها ووهادها إلى أقطار العالم جميعاً ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾.

وتهيئة للنفوس لقيادة العالم على نور من كتاب الله وعلى هدي آيات الله، ولكن هل سيستجيب الناس لهذه الدعوة العالمية. وهل سيلقون لها قيادهم، وكيف سيكون موقف أهل الكتاب ـ خاصة ـ منها وماذا على الجماعة المؤمنة عندما تحمل راية هذه الدعوة قيادة فكرية عالمية من تكاليف وواجبات عليهم أن يعدوا أنفسهم لها.

إنها نقلة روحية ونفسية كبيرة ـ إلى جانب نقلة الدعوة من صعيد مكة إلى أنحاء العالم ـ فلا بد من التناسب بين النقلتين، وهذا ما يؤكده سياق الآيات برسم معالم الدعوة العالمية عندما يخرجون إلى الصعيد العالمي(١) فيبدأ بأهل الكتاب مرة أخرى وعلى منهج القرآن في الحق والعدل وإعطاء كل ذي حق حقه، ولا يظلم ربك أحداً. ولنستمر مع السياق القرآني في سورة الأعراف ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [الأعراف: ١٥٩].

---

(١) جاء مثل هذا التأكيد بصورة أخرى في افتتاحية سورة الروم حيث لفت النظر إلى الأحداث العالمية من خلال الحديث عن الروم والفرس **﴿الم، غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين. لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم، وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون، يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون﴾** سورة الروم: الآيات ١ ـ ٧.

ولفت النظر إلى هذا الحدث العالمي بين أكبر دولتين في ذاك العصر، إشارة إلى أنه سيكون للمؤمنين دور في الأحداث العالمية، وجاء التأكيد على ذلك بقوله تعالى **﴿ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله﴾**. وقد كان هذا الفرح بالنصر يوم الحديبية، على ماهو الراجح من أقوال المفسرين.

هذه شريحة كانت على عهد موسى عليه السلام كانوا يلتزمون الحق به يحكمون بين الناس بالعدل والقسطاس، وعلى خطاهم تسير فئة من بني إسرائيل في كل العصور ولكنهم قليل وستلتقون بهذه الفئة يا أمة محمد ﷺ وسينضمون إلى ركب الخير ويجاهدون معكم ـ.

وقد كان، أمثال عبد الله بن سلام وبعض أحبار اليهود.

ثم يأتي الحديث عن أسباط بني إسرائيل ونعم الله التي أنزلها عليهم بعد أن مكن لهم في الأرض ورزقهم من الطيبات.

أليست كلها دروس تربوية عظيمة لأمة محمد ﷺ خلال هذا السرد التاريخي لحياة بني إسرائيل وما اعتورها من أحداث عظام وهذه المداخلات التي تلفت النظر إلى أمة رسول الله ﷺ ودورها ومهمتها في قيادة العالم، وفي نفس الوقت تحذير لها لكي تتجنب ما وقعت فيه بنو إسرائيل ويمضي السياق في الحديث عن الأمم التي تكونت من الأسباط، وكيف فكت ضائقتهم في المطعم والمشرب بتفجير الينابيع وإنزال المن والسلوى عليهم، وتوفير الظلال الوارفة لهم بتظليل الغمام عليهم، ولكن هل أدوا شكر هذه النعم؟! وماذا كان موقفهم من التكاليف الشرعية؟! لقد كان العناد والتحريف والتحايل والتمرد دائماً.

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأعراف: ١٦١ ـ ١٦٣].

ويأتي دور تلك القلة من المؤمنين الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر من قوم موسى عليه السلام ليقوموا بدور النصيحة فينبهوا قومهم إلى خطورة ما يفعلونه بشأن الحيتان والسبت، ولكن هل للقوم عقول يفكرون بها أو قلوب تقبل الهداية؟!

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا

مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الأعراف: ١٦٤ ـ ١٦٦].

هذه نماذج من أفعال بني إسرائيل ومواقفهم من الدعوات، وقد تحددت معالم شخصيتهم، والآباء يربون أبناءهم على نهج اختلقوه لأنفسهم وكل جيل يرث عن الجيل الذي يتقدمه هذه المبادئ الملفقة من هنا وهناك وقد ضيعوا معالم التوراة، وهم يمنون أنفسهم الأماني الخادعة ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ[1] وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾﴾ [الأعراف: ١٦٩ ـ ١٧٠].

ونتيجة هذه التربية المنحرفة وهذا الحقد الدفين المتوارث، والرغبة في تدمير العالم وإفساده كانت سنة الله الخالدة الباقية إلى يوم القيامة فيهم، أن يكونوا منبوذين من أمم الأرض، تصب عليهم اللعنات أينما كانوا ويسلط عليهم بين الفينة والأخرى من يقلّم أظفار الشر فيهم ويعيدهم إلى حجمهم الطبيعي وهي سنته المتكررة:

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾﴾ [الأعراف: ١٦٧].

إن إنسانية الإنسان تتحقق باتباعه الوحي الرباني المنزل من خالق السماوات والأرض، والعبودية لله تعالى تحقق الكمال الإنساني، حيث تتحقق الغاية التي خلق الإنسان من أجلها ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥٦ ـ ٥٨].

---

(١) المقصود بالعرض الأدنى ما وصلت إليه أيديهم من المال والرشا والربا وهم يعلمون أنه حرام وسحت ولكن يمنون أنفسهم بأن الله سيغفر لهم لأنهم أبناء الله وأحباؤه ـ شعب الله المختار ـ وكلما عرض لهم متاع دنيوي أخذوه من غير أن تكون لهم أوبة صادقة إلى الله تعالى. انظر في ذلك التحرير والتنوير: ص٩ ص١٦٠، ١٦١.

وأي إهمال لهذه المهمة وأي ابتعاد عن نور الوحي يبعد الإنسان عن الكمال البشري ويلحقه بالدواب والأنعام، وقد يكون أضل منها لأنه يسخر عقله لمزيد الإسفاف والانحطاط بينما البهائم لا تتحايل في الإسفاف والانحطاط وإنما هي مفطورة على غرائز معينة تدفعها لتصرف محدد.

ولا غرابة أن نجد بعد هذه الجولات الواسعة في ميادين انحرافات بني إسرائيل أن تختم هذه الآيات بهذا المثل الدقيق المعبّر فما حالهم إلا كحال هذا المخلد إلى الأرض:

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: ١٧٥ ـ ١٧٩].

سنن إلهية في المنهج التربوي لأمة الإسلام تعرض من خلال قصص بني إسرائيل، وآمال الأمة تلوح في الأفق باستعراض النهج القويم، وتحذير من سوء المآل والعاقبة إذا اتبعت الأهواء وتركت الهدايات المنزلة عن طريق الوحي.

وبيان للارتقاء الحقيقي في سلم الكمالات الإنسانية، وتخويف من الانتكاسة والخذلان عند تعطيل وسائل المعرفة.

كانت تلك وقفات مع سورة الأعراف المكية ومنهجها في عرض لمحات تربوية وإشراقات توجيهية لهذه الأمة من خلال الاعتبار بقصص بني إسرائيل.

وفي سورة الكهف المكية نجد لوناً آخر من بشائر الفرج يساق إلى المؤمنين بتقدير العزيز العليم، ويُسخّر في سوقه طرفا المكر والصد عن سبيل الله: المشركون واليهود، فبعد أن عجز المشركون من التصدي للدعوة بالبراهين وإثارة الشبهات وأسقط في أيديهم فلم تنفعهم افتراءاتهم بأن القرآن

أساطير الأولين اكتتبها فهي تملىٰ عليه بكرة وأصيلاً، ولم يسعفهم الزعم أنهم لو شاءوا لقالوا مثل ما قال محمد ﷺ. بعد عجزهم أرسلوا إلى اليهود في يثرب وقالوا لهم إنكم أهل الكتاب الأول فأعطونا ما نتثبت به من أمر محمد هل هو نبي مرسل أو متقول، فأعطوهم أن يسألوه عن فتية خرجوا في الزمان الأول وكان من أمرهم عجب، وأن يسألوه عن رجل طواف في الآفاق وكان من أمره عجب وأن يسألوه عن الروح[1].

فنزلت سورة الكهف إجابة لأسئلتهم وإشارة إلى أن كهفاً من عناية الله سوف يأوي هؤلاء المستضعفين من أصحاب محمد ﷺ كما آوى الكهف الجبلي الفتية المؤمنين الفارين بدينهم من الفتنة.

وأن نفوساً ستبش في وجوه هذه العصبة من أنصار دين الله في يثرب بالقرب من الذين عاضدوا قريشاً في شكهم وحاولوا معهم طمس نور الحق بتلقينهم المنهج التعجيزي في التثبت من أمر النبوة وهو منهج غير سليم فمتى كانت الأسئلة التعجيزية وسيلة التحقق من صدق الرسالة وصاحبها، فهذا نبي الله موسى عليه السلام وهو من أعظم أنبياء بني إسرائيل لم يعلم تأويل الأحداث الثلاثة التي جرت أمامه وأنكر على الخضر تصرفاته على الرغم من تعهده أن لا يسأله عن شيء حتى يحدث له منه ذكراً، على الرغم من كل ذلك لم تؤثر الأحداث وما دار حولها في نبوة موسى عليه السلام شيئاً، ولم يشكك بنو إسرائيل في نبوته فلِمَ يجعلون مثل هذه الأسئلة أسلوباً للتحقق من صدق الرسالة[2].

جعل الله هذه المناسبة وسيلة للإشارة إلى قرب الفرج للعصبة المؤمنة ليجدوا مأوى كما وجد الفتية المأوى، وليبش في وجوههم أهل المدينة كما بش أهل المدينة في وجه أحد الفتية ثم ذهبوا إليهم ليكرموهم وليخلدوا ذكراهم[3].

---

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام مع حاشية الروض الأنف ٢/٣٩.

(٢) انظر في ذلك كتابنا مباحث في التفسير الموضوعي ص١٨٩.

(٣) انظر هذه اللطائف وغيرها في تأملات في سورة الكهف للشيخ أبي الحسن الندوي ص٤٦ وفي قصة أصحاب الكهف جاء قولهم: ﴿فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة﴾ وجاء تسمية المدينة التي آوت المسلمين والتي كانت تعرف بيثرب سميت (بالمدينة) أيضاً.

وفي خضم الدعوة وارتفاع توتراتها واشتداد الفتنة تأتي آيات سورة العنكبوت وهي من أواخر ما نزل في المرحلة المكية لتبين أن سنة الله في الدعوات هي الابتلاء والفتنة ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٣ أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ۝٤ مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٥ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ [العنكبوت: ١ ـ ٦].

ولما كان جزء من الفتنة ينصب على المؤمنين من أقربائهم وذوي أرحامهم فقد جاء في سياق السورة ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَآۚ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٩ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِۖ وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡۚ أَوَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٠﴾ [العنكبوت: ٨ ـ ١٠].

وفي سورة العنكبوت ثلاثة أمور تلفت النظر ـ وكما قلنا هي من أواخر ما نزل في المرحلة المكية ـ.

الأمر الأول: ذكر كلمة المنافقين، ومن المعلوم أن النفاق لا يكون إلا عندما تكون الغلبة للمسلمين، حيث يخشى بعض الناس على مصالحهم فيظهرون الإسلام ويبطنون الكفر، ومن المعلوم أن المجتمع كان جاهلياً في مكة وكانت القوة والغلبة لأهل الشرك، فما مناسبة مجيء المنافقين في هذه السورة في قوله تعالى: ﴿وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ ۝١١﴾ [العنكبوت: ١١].

وهي سورة مكية كما قلنا. فهل كانت الآمال قد قويت عند الفئة المؤمنة بحيث تراءى لهم الفرج والنصر قاب قوسين أو أدنى. أم أن هذه الآية مدنية وضعت في سورة مكية، لأن النفاق لم يحن وقته بعد كما ذهب بعض المفسرين(١).

---

(١) انظر في ذلك صنيع محمد فؤاد عبد الباقي في المعجم المفهرس حيث رمز للآية بـ(م) وهو رمز الآيات المدنية.

وانظر أيضاً ما ذكره القرطبي عن ابن عباس وقتادة أن سورة العنكبوت مدنية كلها. =

الأمر الثاني: اللافت للنظر في سورة العنكبوت، وورود الأمر بمجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن، وكأنه تهيئة للنفوس للمرحلة اللاحقة التي سيكون بين المسلمين وبين أهل الكتاب احتكاك، فلا يكونوا البادئين بالشدة، فيأتي التنبيه على هذا الأمر في قوله تعالى: ﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [العنكبوت: ٤٦، ٤٧].

والأمر الثالث: تهيئة النفوس للهجرة في أرض الله الواسعة، وربما كانت يثرب قد بدأت تستقبل المهاجرين من المؤمنين بعد بيعة العقبة الأولى، ومهما كان الأمر وأنى كان وقت نزول سورة العنكبوت فإن الإشارة واضحة والحث على الهجرة أيضاً واضح، ببيان تكفل الله الرزق للعباد في أي أرض وفي أي زمان ولنقرأ قوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [العنكبوت: ٥٦].

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٦٢﴾﴾ [العنكبوت: ٦٠ ـ ٦٢].

لقد كانت لهذه المسيرة المباركة في المرحلة المكية مع تكوين الشخصية الإسلامية على مستوى التربية الفردية، وصهرها في بوتقة الجماعة بالتفاعل مع الأحداث المحلية ومن خلال العظات والعبر المستفادة من سير السابقين ومع فتح باب الأمل للمستقبل المشرق، كان لكل ذلك أكبر الأثر في إيجاد تلك القيادات الرائعة حول رسول الله ﷺ ليتسلموا دفة قيادة خير أمة أخرجت للناس وليغيروا وجه التاريخ في مدة زمنية تعتبر لحظات عابرة في عمر الأمم، إنها أمة محمد ﷺ (أمة الإسلام).

= وذهب الحسن وعكرمة وعطاء وجابر إلى أنها مكية كلها... وذهب يحيى بن سلاّم ـ وهو أحد قولي ابن عباس ـ أنها مكية إلا عشر آيات من أولها.

انظر تفسير القرطبي ص١٣ و٣٢٣.

الفصل الثاني

في المرحلة المدنية

على الرغم من أن القرآن المكي عرض قضايا اليهود بشكل مفصل يتناسب مع المراحل الدعوية، وذلك بقصد تكوين الشخصية الإسلامية المتميزة في ضوء انحرافات الأمم السابقة لأخذ العظات والعبر من سيرهم وتجنب ما وقعوا فيه، وللتحذير من اليهود الذين سيلتقون بهم وجهاً لوجه في مرحلة لاحقة، فكشفت الآيات المكية دخائل نفوس هؤلاء اليهود وأن الخلف منهم على خطا السلف فباءوا بغضب من الله سبحانه وتعالى على الرغم من كل ذلك ـ وكما لاحظنا في المراحل الأخيرة من القرآن المكي[1] ـ جاءت التوصية بمجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن، استمر هذا التوجيه في بداية المرحلة المدنية، فما توجه رسول الله ﷺ إلى بيت المقدس في صلاته إلا تأليف لقلوب اليهود بأمر من ربه جل جلاله[2].

وما أمره بصوم يوم عاشوراء عندما وجد اليهود يصومونه لأنه اليوم الذي أنجى الله فيه موسى وبني إسرائيل من فرعون وملئه[3] إلا تأكيد للرغبة في

---

(١) انظر ما كتبناه عن سورة العنكبوت ص٥٣.

(٢) استمر استقبال بيت المقدس في الصلاة مدة سبعة عشر شهراً، وكان رسول الله ﷺ يتشوق إلى التوجه إلى الكعبة المشرفة حتى نزل قوله تعالى: ﴿**قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره**﴾ سورة البقرة: الآية ١٤٤.
انظر تفسير ابن كثير ٣٣٥/١.

(٣) عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: قدم رسول الله ﷺ المدينة فوجد اليهود يصومون يوم عاشوراء فسئلوا عن ذلك فقالوا: هذا اليوم الذي أظهر الله فيه موسى =

كسب اليهود إلى جانب الدعوة وعدم المجابهة معهم منذ اللحظات الأولى في المرحلة المدنية.

وهذا ما أشارت إليه الآيات في سورة البقرة عندما وجّه الخطاب المباشر من الله سبحانه وتعالى إليهم ﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِيٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [البقرة: ٤٠ ـ ٤٣].

وفيها الإشارة إلى العهد الذي أخذ من بني إسرائيل وأنبيائهم أن يقيموا شرائع الله، وإذا أدركهم زمان آخر الأنبياء أن يؤمنوا به ويعزروه وينصروه ويتبعوا النور الذي أنزل معه يقول تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾﴾ [المائدة: ١٢].

بنود متقابلة في الميثاق الذي أخذ منهم، وبنو إسرائيل أعلم الناس بصدق رسول الله ﷺ، لأن الكتاب الذي أنزل عليه مصدق لما مع بني إسرائيل، لذا قال الله تعالى لهم ﴿وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ﴾ فلئن كان المشركون على جهل بالقرآن وهداياته وقصصه، فإن بني إسرائيل يعلمون علم اليقين أن القرآن المنزل على محمد والتوراة المنزلة على موسى من مشكاة واحدة. وفي كليهما الأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، والإنفاق في سبيل الله في وجوه الخير عامة.

= وبني إسرائيل على فرعون فنحن نصومه تعظيماً له، فقال الرسول الله ﷺ: نحن أولى بموسى منكم فأمر بصومه.

انظر صحيح البخاري، كتاب الصوم ٢/٢٥١ وصحيح مسلم، كتاب الصيام ٣/١٤٩، مسند الإمام أحمد ١/٢٩١.

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر... قال قال رسول الله ﷺ: «لئن بقيت إلى قابل لأصومن التاسع».

وقد أخذ نفس الميثاق على الأنبياء جميعاً أن يؤمنوا بالنبي الأمي الخاتم الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة، يقول جل جلاله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران: ٨١].

اليهود والمجتمع الإسلامي في المرحلة المدنية:

تقدم أن المرحلة المكية التي امتد زمنها ثلاثة عشر عاماً كونت القاعدة الإيمانية المتميزة للشخصية الإسلامية من خلال التركيز على الجوانب الأربعة الأساسية: التوحيد، اليوم الآخر، النبوة، الدعوة إلى الالتزام بأمهات الأخلاق.

وقد فصلنا القول في المنهج القرآني في عرض ذلك كله، وقلنا كان من الأساليب القرآنية في منهج التكوين ذكر انحرافات بني إسرائيل في قضايا العقيدة لكي يتجنبها المسلمون ولا يقعوا فيما وقع فيه بنو إسرائيل. لذا أخذت قصص بني إسرائيل حيزاً كبيراً في العرض، حسب مراحل الدعوة في مكة وبأساليب تتناسب مع أجواء السور التي ذكروا فيها.

وفي هذه المرحلة كانت الأساسيات الأربع تذكر ولكن لتتناسب مع المهام الجديدة في المرحلة المدنية، ألا وهي مهمة البناء والحماية والصيانة للمجتمع الإسلامي.

- البناء للمجتمع الإسلامي بإنزال التشريعات التفصيلية في شؤون الحياة كلها من العبادات البدنية: كالصوم، والمالية: كالزكاة، والبدنية والمالية: كالحج، والجهاد، والمعاملات: كأحكام الأسرة: من النكاح، والصداق والطلاق والعدة، والإرث.

والمعاملات المالية: كالبيع والرهن والأجار والسلم وتحريم الربا، وتحريم أكل المال بالباطل عن طريق الرشوة والغش والسرقة...

- وحماية المجتمع من الأعداء من الخارج: بمشروعية الجهاد في سبيل الله وما يتعلق به من أحكام الفيء والغنائم، والأسرى، والغلول والعهد والمواثيق بين الدولة الإسلامية والدول والفئات الأخرى غير الإسلامية.

ـ وصيانة المجتمع من الداخل: بتشريع الأحكام المتعلقة بالحدود والقصاص والتعزيرات التي تقام على أفراد المجتمع الإسلامي عند ارتكابهم ما يهدد أمن المجتمع وسلامته.

وكذلك كشف مخططات المنافقين الذين يحاولون هدم المجتمع الإسلامي من الداخل.

وفي كل مجال من هذه المجالات التي تناولها القرآن الكريم تفصيلاً، كان لليهود ذكر فيها، نظراً لأنهم النموذج المنحرف الذي كلّف بالتكاليف الشبيهة بما كلف به المسلمون، ولكنهم غيّروا وبدّلوا وانحرفوا، فكان المنهج القرآني ذات المنهج في المرحلة المكية في البناء، هناك بناء الشخصية الإسلامية المتميزة التي تنفر من النموذج السيء نموذج اليهود.

وهنا بناء المجتمع الإسلامي المتميز الذي تقام دعائمه على أسس متينة من الأحكام والتشريعات ليكون مجتمعاً ربانياً ترفرف عليه بشائر السعادة والعزة والمجد، ولا يكون للنماذج التي حل عليها غضب الله ومقته لطمسه معالم الحق والتحايل على شرائع الله لا يكون لتلك النماذج أثر فيها وإن عايشت المسلمين فترة واختلطوا بهم زمناً حاولوا جهدهم للتأثير في المجتمع الناشئ.

فكان لإيراد المواقف اليهودية من شرائعهم، للتحذير والتنبيه، دور تربوي كبير في تمايز المجتمع الإسلامي العتيد بخصائصه وكان الرعيل الأول من صحابة رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار على الوعي التام من هذه الاستقلالية بالالتزام بشريعة الإسلام ومنهاجه ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

ولعل من الأمور اللافتة للنظر في هذه المرحلة المدنية الأمر المباشر الموجه إلى المسلمين بطاعة الله وطاعة الرسول كثيراً[١] وبأساليب مختلفة،

---

(١) ذكرت كلمة الطاعة ومشتقاتها في القرآن الكريم أكثر من ثمانين مرة، ولم يرد منها في المرحلة المكية شيء يأمر بطاعة رسول الله ﷺ، وقد ورد النهي لرسول الله ﷺ في طاعة المشركين كقوله تعالى: ﴿**ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا**﴾ سورة الكهف: الآية ٢٨. وكقوله ﴿**ولا تطع كل حلاف مهين**﴾ سورة القلم: الآية ١٠. وقوله: ﴿**فلا** =

علماً أن الأمر بطاعة الرسول مباشرة لم يرد في المرحلة المكية، وإنما جاء من خلال ذكر قصص الأنبياء السابقين مع أقوامهم حيث كانوا يدعونهم إلى طاعتهم.

والحكمة في ذلك ـ والله أعلم ـ سداً لذريعة الزعم أن محمداً جاء يطلب الزعامة لنفسه فيأمر الناس بطاعته، أو يظنوا أنه يدعوهم لعبادة نفسه أو أن يجعلوه شريكاً لله. وخاصة أن المرحلة المكية ـ كما تقدم ـ مرحلة تكوين العقيدة الإسلامية وصياغة الشخصية الإسلامية المتميزة، وأي التباس في أسلوب الدعوة قد يؤدي إلى نتائج غير مرغوب فيها. ويحتاج إلى جهد كبير في المستقبل للتعديل والتقويم والإعادة إلى المنهج السليم.

أما في المرحلة المدنية فقد ترسخت دعائم عقيدة التوحيد، والإيمان برسول الله الذي يبلغ عن ربه التكاليف.

والأحكام التفصيلية التي يبلغها الرسول ﷺ تحتاج إلى تنفيذ فوري، وأي تباطؤ في التنفيذ أو تردد فيه يورث تأخيراً في بناء المجتمع وربما شروخاً وفجوات، فلا غرو أن نجد هذا التركيز بمختلف الأساليب على الالتزام بطاعة الرسول وأنها من طاعة الله كما في قوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾﴾ [النساء: ٨٠ ـ ٨١].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [آل عمران: ٣١ ـ ٣٢].

ويأتي بالمقابل النهي عن معصية الرسول وهما أمران متقابلان وكثيراً ما

= **تطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيراً﴾** سورة الفرقان: الآية ٥٢، وغيرها.
أما صيغة الأمر بالطاعة فجاءت على ألسنة الأنبياء السابقين لأقوامهم كثيراً، منها في عشرة مواضع في سورة الشعراء وحدها فكل نبي يقول لقومه **﴿إني لكم رسول أمين، فاتقوا الله وأطيعون﴾** الآيتان ١٠٧ ـ ١٠٨.

يأتي النهي عن العصيان مقترناً بالأمر بطاعة الرسول كما في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَـٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾ [النساء: ١٣، ١٤].

وكلما كثرت الأحكام التفصيلية في السورة تردد الأمر بطاعة رسول الله والنهي عن معصيته كما نجد ذلك في سورة النساء وآل عمران والنور...

وكان لورود اليهود في مجال الطاعة والمعصية وأقوالهم التي تتسم بالوقاحة والتمرد كان لكل ذلك دور تربوي للأمة الإسلامية ليتجنبوا المزالق التي وقع فيها اليهود.

فقد جاء في سياق الحديث عن مواقفهم تجاه شرائع التوراة والالتزام بها ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَـٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [البقرة: ٩٣].

ولا يقف الأمر عند حد التمرد والعصيان بل يصل درجة أخطر من ذلك درجة تغيير شرائع الله وتحريفها عن مواضعها، يقول جل جلاله عن شأنهم هذا ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَـٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾﴾ [النساء: ٤٦].

إن الأمر بطاعة رسول الله ﷺ في المرحلة الأولى من المراحل المدنية والنهي عن مخالفة أمره وعصيانه أمر يقصد منه ـ والله أعلم ـ تكوين القاعدة الراسخة في المجتمع الإسلامي للالتزام بالأحكام التفصيلية التي تكوّن لبنات بناء الصرح الاجتماعي.

والنماذج اليهودية التي تعرض في هذه المراحل لها أثرها الهام في تشكيل الحس الإسلامي في النفور من الروغان والتحايل والتمرد على الشرائع.

فالأسلوبان ـ أسلوب الترغيب في طاعة الله ورسوله وأسلوب التنفير من معصية الله ورسوله، كلاهما يصب في ميدان واحد وفي قناة واحدة لتشكل الشخصية الربانية والمجتمع الرباني المستسلم لأوامر الله المنفذ لأحكام شرعه الواثق بتنزل نصر الله عليه الطامع في الحصول على رضوان ربه.

وفيما يلي نستعرض المراحل التي تناول القرآن الكريم فيها اليهود ومواقفهم، وسنجد كيف أن القرآن المدني لم يترك شاردة ولا واردة تخص اليهود وأساليبهم لإفساد أمر المسلمين إلا وكشفه، وتسوق الآيات مواقف أجدادهم القدماء من شرائع أنبيائهم للاستدلال على الخط المتبع في تكوين الشخصية اليهودية وأنه لم يختلف عند خلفهم مما كان الأمر عليه عند أسلافهم البائدين وسنستعين في كل ذلك بأحداث السيرة وأسباب النزول لنحدد هذه المراحل[1] حسب اجتهادنا في تسلسل الوقائع مع اليهود.

---

(١) من الصعب معرفة ترتيب نزول السور المدنية، لأن أغلب السور المدنية تشتمل على وقائع يزيد الفاصل الزمني بينها على عدة سنوات، فسورة البقرة فيها الآيات التي تحدثت عن سرية عبد الله بن جحش وقتالها في الشهر الحرام **﴿يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه﴾** الآية ٢١٧ من سورة البقرة وكانت الحادثة في السنة الأولى للهجرة وفي سورة البقرة آخر آية نزلت على الإطلاق وهي قوله تعالى: **﴿واتقوا يوماًترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾** الآية ٢٨١. ومثل ذلك في سورة النساء وغيرها.

مرحلة المهادنة والعهود والمواثيق

لقد فتحت المدينة بالقرآن على يد مصعب بن عمير ومن معه من الرعيل الأول من الأنصار، وفي بيعة العقبة الثانية أخبر مصعب رسول الله ﷺ أنه لم يبق بيت في المدينة إلا وفيه ذكر الإسلام[1]، فأرسل رسول الله ﷺ المهاجرين زرافات لتقوية شوكة الإسلام في دار الهجرة ولإنقاذهم من فتنة المشركين وإيذائهم، إلى أن أذن الله لرسوله بالهجرة، وما أن استقر في المدينة حتى عقد العهود والمواثيق مع سكان المدينة ـ معاهدة دفاع مشترك ـ على أن يكونوا يداً واحدة ضد العدو الخارجي.

وكان رسول الله ﷺ يحرص على بقاء الهدوء في المدينة والاستقرار لكي ينتشر الإسلام بين القبائل وهم مطمئنون ولكي يقرأوا القرآن ويفقهوا مراميه وغاياته، فأفضل بيئة ينتشر فيها الإسلام هي البيئة المستقرة التي لا يخشى أحد فيها على نفسه ولا على ماله من الاضطهاد إن تبنى رأياً أو اعتقد ديناً، أو ما يسمى الآن بالبيئة المفتوحة التي تكون فيها حرية الفكر والرأي مكفولة. فتكون القناعات عن طريق الحوار وإقامة البراهين والحجج. فإذا وجدت مثل هذه الأجواء فلا فكر يصمد أمام الفكر الإسلامي، ولا حجج تناهض البراهين الساطعة لدعوة الإسلام. وأسوأ بيئة للدعوة هي البيئة المشحونة بالإرهاب الفكري والاضطهاد العصبي.

ومن خلال تلك الأجواء التي حرص رسول الله ﷺ على إيجادها كانت الدعوة الإسلامية تشق طريقها وتنتشر يوماً عن يوم، وكانت من الفئات التي

---

(١) انظر ما ذكره ابن هشام في سيرته عن انتشار الإسلام في بيوت الأنصار ١٨٧/٢.

توجه إليها الدعوة وتقام عليها الحجة اليهود والمقيمون في يثرب وما حولها، وعلى الرغم من تصرفات بعض زعمائهم المناهضة للإسلام، وتأليب بعض القبائل العربية الوثنية على دولة الإسلام، كان الحوار وإقامة الحجة هو السبيل إلى درء خطرهم.

وكانت هذه المرحلة تتسم بكشف دخيلة اليهود وتصرفاتهم التي كانوا يحرصون على إخفائها من الناس، وخاصة حلفائهم من الأوس والخزرج لتبقى صورتهم عندهم مشرقة.

وعندما رأى اليهود أن المسلمين يملكون زمام المبادرة في كل المجالات، وأن الوحي لن يترك لهم سراً مخفياً ولم يستطيعوا المجابهة ومقارعة الحجة بالحجة، لجأوا إلى أساليبهم المعهودة من المخادعة والمراوغة والتشكيك في قضايا العقيدة والأحكام.

ـ فمن الأساليب التي لجأوا إليها ما قصه القرآن عنهم: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِالَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَاللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ [آل عمران: ٧٢ ـ ٧٤].

جاء ذلك في أعقاب محاجة القرآن لهم عندما زعموا أنهم على ملة إبراهيم وأن إبراهيم كان يهودياً، وأنهم من نسله وأولى الناس به حيث أفحمهم القرآن الكريم بالحجج العقلية ودمغهم بالوقائع التاريخية ولنستمع إلى القرآن وهو يحاورهم: ﴿يَٰٓأَهْلَ الْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ التَّوْرَىٰةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِىُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ وَاللَّهُ وَلِىُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَهْلَ الْكِتَٰبِ

﴿لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾﴾ [آل عمران: ٦٥ ـ ٧١].

ولكن ماذا ينفع أسلوب المراوغة والمخادعة مع الحقائق الربانية الكاشفة وهل يجدي التمويه والكذب شيئاً عندما تظهر الحقائق وتستجاش الفطرة السليمة وتخاطب بمسلمات العقل، ووقائع التاريخ.

ـ وتارة كانوا يحاولون التشكيك في سلامة المنهج الذي يسير عليه المسلمون فعندما تحولت القبلة إلى المسجد الحرام وجد اليهود مع صنائعهم من المنافقين مرتعاً خصيباً لإطلاق الشائعات، إن محمداً حنَّ إلى مسقط رأسه وموطن صباه فتوجه إليها في صلاته ولا يستبعد أن يحنّ إلى دين آبائه فيرجع إلى عبادة الأصنام[1].

فجاء الرد الإلهي عليهم ﴿۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾﴾ [البقرة: ١٤٢].

وبيّن لهم أن تحول القبلة هو امتحان واختبار لإيمان المؤمنين من جهة ومن جهة أخرى إقامة حجة على اليهود لأنهم كانوا يجدون في كتابهم أنه يصلي إلى قبلتين وهم يعرفون ذاك الأمر كما يعرفون أبناءهم[2].

ولنسر مع السياق القرآني المعجز ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ

---

(١) انظر في ذلك تفسير ابن كثير ١/ ٣٣٩.

(٢) انظر ذلك في تفسير ابن كثير ١/ ٣٣٧.

بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ[1] كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [البقرة: ١٤٣ ـ ١٤٦].

جاءت هذه المناقشة الرائعة لليهود في سياق بيان محاولاتهم المتكررة في التشكيك بدعوة الإسلام، وبيان أنهم الأصل في الدين وأنه لن يقبل من أحد سواهم حيث يقول جل شأنه: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾ [البقرة: ١٢٠].

﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِۦمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [البقرة: ١٣٥، ١٣٦].

في هذه المرحلة ـ مرحلة المهادنة ـ كان اليهود يحاولون أن يلقوا في روع المسلمين أنهم مؤمنون مسلمون مثلهم، وأن لديهم علم الأولين، وأنهم أصحاب مكانة عند الله وأن مزاياهم مقررة من الله ومن لم يكن على شاكلتهم فحرام عليه الجنة وهذه أساليبهم مع العرب الوثنين ظنوا أنها تخدع كل الناس ولم يعلموا أن الوحي الإلهي يفضح كل ذلك.

﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾

---

(١) من العلماء من أعاد الضمير إلى أمر تحول القبلة المفهوم من السياق، ومنهم من أعاد الضمير إلى رسول الله ﷺ، واستدلوا بقول عبد الله بن سلام والله إني لأعرف رسول الله أكثر مما أعرف ابني، فإن أوصافه محققة عندي أما ولدي فلا أدري ما فعلت النساء: انظر الرواية في تفسير ابن كثير: ١/ ٣٣٩.

﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾﴾ [البقرة: ٧٦ ـ ٨١].

إن دين الله بيّن واضح لا يحابي أحداً، وليس بين الله وبين أي من خلقه نسب، وإنما هي أعمالهم يحصيها ثم يوفيهم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله. ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه.

وإن القوامة على دين الله لا تكون بالتوارث وإنما بالتوفيق الذي يهبه الله لمن يشاء من عباده فيهديهم ويصلح بالهم في خدمة دينه وشريعته، ومن لم يكن أهلاً لهذه المنحة أبعده الله وكبه على وجهه في النار، إن الافتراءات المختلفة والادعاءات الكاذبة والمزاعم الباطلة والعنجهية المغرورة مما كتبوها بأيديهم في التلمود وأضفوا عليها صفة التقديس بنسبتها إلى الله لن تغير من واقعهم شيئاً، ولن تجعل من تحريفهم وتوليهم عن أحكام الله وافتراءاتهم على خلق الله ميزة تكسبهم القوامة على شرائع الله والوصاية على عباد الله ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ [آل عمران: ٢٣ ـ ٢٦].

إن هذه الآيات تكشف جانباً من العنجهية اليهودية فهم ليسوا بحاجة إلى رسالة وتشريع وحكمة، لأنهم الشعب المختار الذي ضمنوا آخرتهم فلن يمسهم العذاب إلا أياماً معدودات بمقدار أيام عبادتهم العجل أو بعدد سبعة أيام فعمر الدنيا في توراتهم المحرفة سبعة آلاف سنة، وهم يعذبون عن كل ألف سنة يوماً[(١)]، إنه الغرور المحض بما افتروه ونسبوه إلى الله.

---

(١) تفسير ابن جرير الطبري: ١/٣٠٣، وتفسير ابن كثير: ١/٢١١.

وعندما جابههم المسلمون لماذا لا تؤمنون برسول الله ﷺ وأنتم تزعمون أنكم تؤمنون بالله ورسله وكتبه، راوغوا واختلقوا الأعذار الواهية للتهرب وقالوا إن الذي يأتيك هو جبريل وهو عدونا ولو كان إسرافيل أو ميكائيل صاحبك لاتبعناك[1].

﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [البقرة: ٩٧، ٩٨].

ـ لقد استحثت آيات كثيرة أهل الكتاب على الاستجابة لدعوة الحق، وترك العناد والمقاومة بالباطل، وذكرتهم بنعم الله على أجدادهم وإنقاذهم من بطش عدوهم، وتفضيلهم على الأمم الوثنية بإرسال الرسل فيهم وإنزال الكتب عليهم كما في قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [البقرة: ٤٧ ـ ٥٠].

كما ذكرتهم الآيات الكريمة بشطط بني إسرائيل وجهالاتهم وتجاوز الله تعالى عنهم وتكريمهم المرة تلو المرة وإغداق النعم عليهم لفك ضائقتهم كلما صادفتهم أزمات مادية أو معنوية في معايشهم:

يقول جل من قائل: ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾﴾ [البقرة: ٥١].

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن

(١) تفسير ابن كثير: ١/ ٢٣١.

كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [البقرة: ٥٥ ـ ٦٠][(١)].

ولكن قلوب اليهود القاسية ما كان يفيدها التذكير وما كان لها أن تتعظ بسير أسلافهم وقد صاغها التلمود على الغطرسة والكبر والافتئات والمراوغة، يقول جل شأنه عنهم: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [البقرة: ٧٤].

ويوجه الخطاب للمؤمنين من باب التخفيف عليهم لكيلا يتهموا أنفسهم بالتقصير في دعوة القوم إلى الحق. وإنما هي طبائع اليهود التي نشأوا عليها فلا تذهب أنفسهم حسرات على هؤلاء الجفاة العتاة غلاظ القلوب.

﴿۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [البقرة: ٧٥ ـ ٧٧].

ولم يقتصر الأمر على كشف ما فعله أسلاف اليهود من الجرائم وأيدهم أخلافهم، بل بين القرآن الكريم ما يفعله اليهود وقت بعثة رسول الله ﷺ من تناقضات لما أخذ عليهم في كتبهم من العهود والمواثيق، ففي كتبهم لا ينبغي أن يقاتل اليهودي ابن ملته ولا يخرجه من داره وأرضه ولا يناصر عليه عدواً

(١) في سورة البقرة أكثر من ٨٠ آية كلها في الحديث عن بني إسرائيل وتعداد نعم الله عليهم ومقابلتهم لهذه النعم بالجحود والتمرد والكفران.

ولا يسفك له دماً، ولا يأخذ منه أسيراً، إلا أن أحلاف قبائل اليهود كانت مع القبائل الوثنية فكانت تناصر حلفاءها على أبناء ملتهم من اليهود فبنو قينقاع قد حالفوا الخزرج وبنو النضير وبنوا قريظة حالفوا الأوس فيقع بينهم قتال، وربما وقع الأسر من أحد الأطراف للآخر، فيرجعون ليجمعوا المال ويفك أسر اليهودي الذي هم أسروه لأن كتابهم يمنع أخذه أسيراً.. هذا ما سجلته عليهم الآيات الكريمة[1] في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [البقرة: ٨٤ ـ ٨٦].

كما بينت الآيات الكريمة أن من شأن اليهود مناقضة العهود والمواثيق وعدم الالتزام بها إلا في حالة ضعفهم وخوفهم، وما العهود التي يمضونها مع غيرهم إلا سياسة مرحلية وإذا وجدوا فرصة لنقضها وظنوا في أنفسهم القوة أو توقعوا مناصرة من جهة فإنهم يتبرؤون من تلك العهود، وهذا ديدنهم لذا على المسلمين أن يكونوا على حذر منهم ولا يركنوا إلى العهود التي أبرموها مع اليهود وإن كان الذي وقعه معهم نبي مرسل:

يقول عز من قائل حكيماً: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا[2] عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [البقرة: ٩٩ ـ ١٠١].

---

(١) انظر في ذلك تفسير ابن كثير ٢١٦/١ والقرطبي: ٢٠/٢.

(٢) انظر التعبير بـ(كلما) وهي مركبة من كل وما المصدرية الظرفية، وتفيد التكرار. انظر المعجم في النحو والصرف، زين العابدين التونسي ٦٨/١. والتعبير بها يعطي انطباعاً أن ذلك طبع ملازم لهم لا ينفكون عنه، ودائم الحدوث والتكرار منهم.

إن الدافع لهذه التناقضات وهذه التقلبات النفسية اليهودية الحاقدة المليئة بالشنآن والغيظ على الناس جميعاً، وهذا شأنهم في سالف عصورهم منذ أن حرفوا كلام الله في التوراة وكتبوا التلمود بأيديهم ونسبوه إلى الله زوراً وبهتاناً فلا خير فيهم إلا القليل. وعلى المسلمين الصبر والعفو والصفح حتى يأتي الوعد الحق في إخراجهم ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾﴾ [البقرة: ١٠٥ ـ ١٠٩].

ـ ولما كانت يهود تزعم مزاعم وتنسبها إلى التوراة وهم يظنون أن لا علم لأحد بما في التوراة كان القرآن يدعوهم المرة تلو الأخرى للرجوع إلى التوراة ـ مما لم تنلها أيديهم بالتحريف والطمس ـ ليتأكدوا بأنفسهم من تناقضاتهم وافتراءاتهم يقول جل جلاله:

﴿۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾﴾ [آل عمران: ٩٣ ـ ٩٥].

ـ وكان مما يقض مضجع اليهود أن يروا قبيلتي العرب الكبيرتين في يثرب قد دخلتا الإسلام وآخى الإسلام بين الجميع وأصبح الجميع متآلفين متحابين ترفرف فوق رؤوسهم رايات المحبة والسلام. ومنذ فترة قصيرة كانت الشحناء والبغضاء تأكل قلوبهم بفعل دسائس اليهود، وكانت أموالهم وغلالهم تدخل خزائن اليهود ثمناً للسلاح الذي تسفك به دماؤهم.

مر بجمعهم شاس بن قيس ورأى رجالاً من الأوس والخزرج في مجلس

لهم يتبادلون أطراف الحديث إخوة مسلمين متحابين فساءه ذلك، فدس بينهم من يذكرهم بشعر ملاحمهم في الجاهلية عندما كانوا يفاخرون بانتصاراتهم على غيرهم، والفتنة نائمة لعن الله موقظها فسرعان ما استيقظت على يد اليهود، وتواعد القوم إلى الحرة ليعيدوها جذعة، فخرج إليهم رسول الله ﷺ يهدئهم ويقول لهم أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم، دعوها فإنها منتنة حتى ثاب القوم إلى رشدهم وعرفوا أنها نزغة شيطان استدرجهم إليها يهودي ماكر فأقبل بعضهم إلى بعض يتعانقون ويتسامحون فنزل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾[1] [آل عمران: ١٠٠ ـ ١٠٣].

هنا سؤال يفرض نفسه وهو:

على الرغم من أن القرآن الكريم فصل مواقف اليهود من دعوات أنبيائهم وتمردهم على أوامر ربهم وبيان نزول غضب الله عليهم بسبب كتمانهم الحق وقتلهم الأنبياء وتحريفهم للكتب ونسبتهم إلى الله جل جلاله ما لا يليق، فكيف يرغب رسول الله ﷺ التعاون معهم في إقامة المجتمع المدني الجديد ويوقع معهم معاهدة تعاون وتآزر[2]، وتجريب المجرب عبث وضياع للوقت فما الحكمة في ذلك؟!

(١) انظر أسباب النزول للواحدي ص١١١ وتفسير ابن جرير الطبري: ٢/١٧.

(٢) قال ابن إسحاق: وكتب رسول الله ﷺ كتاباً بين المهاجرين والأنصار وادع فيه يهود وعاهدهم، وأقرهم على دينهم وأموالهم. وشرط لهم واشترط عليهم بسم الله الرحمٰن الرحيم: هذا كتاب من محمد النبي ﷺ، بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم، فلحق بهم، وجاهد معهم، إنهم أمة واحدة من دون الناس، المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم.. وإن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس، وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم..

إن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين، وإن يهود بني عوف أمة من المؤمنين، =

هناك جوابان لمثل هذا السؤال نأخذه من خلال استقرائنا لطبيعة دعوة الإسلام:

الأول: إن مهمة رسول الله هي التبليغ والبيان للناس جميعاً ولا يمكن أن يحكم على أحد من الناس مسبقاً بأن الهداية لن تكون من نصيبه فذلك غيب لا يعلمه إلا الله تعالى. لذا لم يدع نوح عليه السلام على قومه ويحكم عليهم بأنهم لن يلدوا إلا فاجراً كفاراً، إلا بعد أن أوحى الله إليه ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [هود: ٣٦].

لذا نجد أن الهدايات الربانية توجه رسول الله ﷺ إلى الموقف السديد في أشد الظروف قسوة عليه، فعندما هم بالدعاء على مشركي قريش بعد غزوة أحد، وقد شجوا وجهه الشريف وكسروا رباعيته.. فقال كيف يفلح قوم فعلوا بنبيهم هذا نزل قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾﴾ [آل عمران: ١٢٨، ١٢٩].

ومن المعلوم في تاريخ الدعوة في المرحلة المكية أن أناساً كانوا من أشد

= لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه، وأهل بيته وإن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف، وإن ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف وإن ليهود بني جشم مثل ما ليهود بني عوف، وإن ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف... وإن البر دون الإثم، وإن موالي ثعلبة كأنفسهم إن بطانة يهود كأنفسهم، وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد ﷺ وإنه لا ينحجز على ثأر جرح.. وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم وإن بينهم النصر على من حارب أصل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة البردون والإثم... وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة، وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث واشتجار يخاف فساده، فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله ﷺ، وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره، وإنه لا تجار قريش ولا من نصرها، وإن بينهم النصر على من دهم يثرب.. على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم، وإن يهود الأوس، مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض، من أهل هذه الصحيفة. انظر السيرة النبوية لابن هشام بحاشيته الروض الأنف ٢/٢٤٢.

الناس عداوة لدعوة الإسلام وبغضاً لرسول الله ﷺ، ثم صاروا من أشد المناصرين للدعوة، ومن أقرب الناس إلى رسول الله ﷺ[1] فكان لابد من التعامل مع اليهود كأي فئة من الفئات التي يحرص رسول الله ﷺ على تبليغهم الدعوة وبيان الحق لهم، وفتح المجال أمامهم للإيمان. والمساهمة في نشر الإسلام...

الثاني: إن اليهود في يثرب كانوا يشكلون الطبقة المثقفة، وكان الوثنيون ينظرون إليهم نظرة إعجاب، وكان للقبائل العربية معهم صلات ومصالح ووشائج قربى أحياناً وتحالفات عسكرية أحياناً، والبدء بالهجوم عليهم وإعلان الحرب من غير أسباب ملموسة ومبررات واقعية تحدث من جانبهم كل ذلك يشكل عوائق في نفوس القبائل العربية.

لذا نجد أن الرسول ﷺ اتخذ حيال كل موقف ما يناسبه ولم يعمم العقوبة على جميع اليهود على الرغم من اتضاح تشابه مواقفهم في مناسبات تأتي تفصيلات بعضها قريباً، ولكنه اتخذ من موقف كل قبيلة من العهد الذي كان بينه وبينها ما يناسبه وفي الوقت المناسب، فكانت عقوبات بني قينقاع، وبني النضير وبني قريظة، وأهل خيبر وفدك، كل بما يناسبه، فكانت الثقة تملأ قلوب المؤمنين ويزدادون إيماناً بسلامة الموقف والحكمة في التصرف تجاه تلك الأحداث بعد أن يكونوا قد وقفوا بأنفسهم على دواعي اتخاذ هذه المواقف[2].

---

(١) انظر في ذلك قصة إسلام عمر بن الخطاب سيرة ابن هشام: ٢/ ٩٥، وعكرمة بن أبي جهل الطبقات الكبرى لابن سعد: ٧/ ٤٠٤ وأبي سفيان بن حرب سيرة ابن هشام ٤/ ٩، وعمرو بن العاص، سيرة ابن هشام: ٣/ ٢٩٦ بل ومن اليهود في المرحلة المدنية: عبد الله بن سلام ومخيريق وميمون بن يامين.

(٢) لا يوجد أصعب من موقف الجندي المقاتل في المعركة إذا كان يشعر في قرارة نفسه أنه ظالم وقضيته ليست عادلة. لذا فمن الخطأ تضليل الجنود وإيهامهم على أنهم مقدمون على قتال العدو الفلاني. ثم يجد الجندي نفسه في ميدان آخر وجهاً لوجه مع أشقائه أو بني قومه، كما حدث ذلك لجيوش عربية حيث كانوا يوهمون أنهم ذاهبون لقتال اليهود ثم يجدون أنفسهم في بلد عربي يقاتلون العرب.

كما أنها تسحب من العدو اللافتة التي يمكن أن يرفعها ويجمع الناس حولها لمناصرته ضد دعوة الحق. وبالتالي يجد العدو نفسه وحيداً في ميدان المعركة يجابه مصيره نتيجة غدره وخيانته أو تآمره مع أعداء الإسلام فلا يجد من أحد مناصرة ولا مواساة.

وفي أحداث بني قريظة وخيبر الشواهد الكثيرة من أقوال اليهود أنفسهم على استحقاقهم لهذا المصير المظلم نتيجة خرقهم العهود والمواثيق، إن استثمار المواقف الخاطئة من جانب العدو وتسخيرها لكسب الرأي العام من السياسات التي اعتمدها المسلمون منذ عهد رسول الله ﷺ وهي من السياسة الشرعية المعتمدة[1].

---

(١) قارن ذلك بما يفعله أعداء الإسلام من الدول الكبرى اليوم تجاه بعض حكام المسلمين وتصرفاتهم الخاطئة ويحمّلون المسلمين نتيجة هذه التصرفات الخاطئة ليؤلبوا الرأي العام العالمي ويسخرون منظمة الأمم المتحدة واسمها لتنفيذ مآربهم في ضرب مصالح المسلمين وإن كنا لا نستبعد تواطؤ كثير من حكام المسلمين معهم في التمهيد لمثل هذه المواقف.

أسباب الانحراف لدى اليهود
عن الإيمان بدعوة الحق

إن في جبلة الإنسان حب التملك والسيطرة، وإشباع الغرائز والانطلاق من القيود التي تلزم سلوكاً معيناً في الحياة، وهذه الأمور هي الصفات البهيمية في كل إنسان إلا أن العقل الذي منحه الله جل جلاله للإنسان وميّزه به عن سائر المخلوقات يفرض عليه كتم كثير من الشهوات البهيمية وعدم الجري وراءها في كل الميادين وإنما يشبعها بمقدار، وما اختلط على العقل أمره ولم يميز بين السليم والسقيم فيه أو لم يحط بأبعاد المفاسد والمصالح فيه، فقد جاء الوحي الإلهي على ألسنة الأنبياء والمرسلين لتجلية الموقف الصحيح وإظهار الصراط المستقيم الذي ينبغي سلوكه في العلائق الاجتماعية والتصرفات الفردية إلى جانب التكاليف العبادية. وكلما انحرفت البشرية عن الجادة أو سيطرت الشهوات والشبهات على نور الحق أرسل الله سبحانه وتعالى الرسل مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتب والهدايات لإعادة البشرية إلى جادة الصواب، هذه سنة الله في رسالاته إلى الناس.

إلا أن التاريخ البشري يدل على أن الإنسان لا يترك شهواته ومعهوداته بسهولة لمجرد ورود الحق إليه بل يحاول الاستمرار عليها والدفاع عنها، وكثيراً ما يبرر هذه العادات بحجج وإن كانت واهية إلا أنه يتشبث بها لعلها تنفعه ولو داخل نفسه.

وإذا انكشفت هذه الحجج ولم تنفع صاحبها، وكان التشبث بها مسيطراً على النفوس وقعت المجابهة بين أصحاب الحق وأهل الأهواء والشبهات، وتكون المعارك سجالاً، إلى أن تتحقق سنة الله في خلقه ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر: ٥١].

وتاريخ بني إسرائيل مليء بهذه الصراعات، وكثيراً ما تمكن أهل الباطل من قتل خصومهم من الأنبياء والصالحين، يقول جل جلاله عنهم: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾﴾ [النساء: ١٥٥].

إلا أن عبقرية اليهود لم تقف عند المجابهة والتبرير والتحايل، بل طالت في كثير من الأوقات أصل الديانة والشرائع فحرفتها لتلائم دوافعهم وأهواءهم، وتناولت سير الأنبياء والمرسلين الأطهار فشوهتها لتكون منطلقاً لانحرافاتهم السلوكية فلا يعترض على انحرافاتهم لأنهم بشر قاصرون وقعوا فيما وقع فيه أنبياؤهم، وليسهل عليهم قيادة الرعاع الذين تسيرهم شهواتهم فإذا ملكوا أزمتها تمكنوا من قيادتهم ولو إلى ما فيه حتفهم.

وأدرك اليهود أن السيطرة على النفوس والعقول لا تتم إلا بتحقيق جانبين لهم:

الأول: القضاء على كل معتقد يجمع أتباعاً ويصوغهم صياغة معينة، وإحلال معتقد تافه متناقض مكانه تتباين حوله الآراء والأفكار، فلا هو معتقد سماوي ينظر إليه بقدسية، ولا هو معتقد بشري تتوصل العقول إليه بناء على التجربة، بل يخلطون بين الخرافة والمثالية غير الواقعية والبهيمية في السلوك والإخلاد إلى مستنقع الشهوات، وبذلك تتميع الشخصية وتنحط الأخلاق ويسهل انقيادها ويتحكم في مصائرها، فلا عقيدة دافعة للمقاومة ولا سياجاً خلقياً يحمي من الذوبان.

الثاني: السيطرة المالية والتحكم في المصالح.

وقد رأوا أن أقرب طريق للسيطرة على المال والاقتصاد العالمي هي جمع المال بأي وسيلة كانت ومن أشهر هذه الطرق: الربا، والتجارة بالعرض والتجارة بالسلاح والمحرمات.

فإلى جانب توفير المال في الأيدي بسهولة من هذه الطرق، هناك

مكاسب جانبية تتحقق جراء استخدام تلك الطرق فالربا يؤدي إلى تحكم طبقة معينة محدودة العدد في مصير الشعوب والأمم وذلك من خلال السيطرة على مقدرات تلك الشعوب، فيؤدي إلى وجود الأحقاد والبغضاء بين تلك الطبقة الطفيلية المتسلطة وبين سواد الشعب المحروم فيزداد الصراع الطبقي وتسفك الدماء وتثور الفتن.

والتجارة بالعرض يؤدي إلى نشر الرذيلة وسيطرة البهيمية على مشاعر الإنسان، والانحطاط الخلقي مرتع خصيب لنشر الدمار والانحراف وبالتالي السيطرة على مقاليد الأمور فما أسهل التحكم في قدرات شعب تسيره شهواته.

والتجارة بالسلاح يساعد على نشر الفتنة وسفك الدماء وتوقد أتون ومحارق لمقدرات الشعوب من الأموال والرجال والمستفيد من كل ذلك هم تجار الأسلحة فأرباحهم متحققة مهما كان مصير المعارك فالغالب والمغلوب فيها خاسر، وقد أجاد اليهود استغلال هذه الميادين، منذ فجر تاريخهم الأسود، فما حلوا بقعة من الأرض إلا وحاولوا السيطرة على أهلها عن طريق الربا والفساد الخلقي وإثارة الفتن ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [المائدة: ٦٤].

ودهاقنة الإفساد في العالم لم يكتفوا بنشر الفساد وإثارة الفتن والحروب وسيلة للسيطرة على العالم بل جعلوا ذلك ديناً يتقربون به إلى الله بزعمهم، وما أخطر الانحراف والفساد إذا أصبح معتقداً لدى الإنسان، فطبيعة الإنسان البهيمية إذا أطلق عنانها دمّرت وأفسدت شهوةً وجبلةً فكيف إذا أصبحت معتقداً يدين الإنسان به ويسعى إلى تحقيقه هدفاً ورسالة؟! هذا ما وصل إليه اليهود منذ أن بدأوا بالتخطيط للسيطرة على العالم.

ـ ففي مجال العقائد حصروا اهتمام الإله المتخيل عندهم في شعبه المختار وجعلوا أنفسهم أبناء الله دون سائر الناس وما خلق غيرهم إلا

لخدمتهم[1] وما الأموال إلا مخلوقة لهم فإن استولى عليها غيرهم أعطاهم الحق في إعادتها بكل وسيلة متاحة مشروعة أو غير مشروعة[2].

ـ وفي الرسالات والنبوات ينبغي في زعمهم أن تكون حكراً على بني إسرائيل لهداية من ضل منهم[3] أما غير بني إسرائيل فلا يرتقون إلى مرتبة الخطاب ولا التكاليف لأنهم كالبهائم، لذا فكل من ادعى النبوة ولم تكن له صلة قربى ببني إسرائيل فدعواه مرفوضة باطلة في كتب بني إسرائيل التي حرفوها، وطمسوا معالم كل دعوة أو إشارة وردت في التوراة إلى وجود أنبياء من غيرهم أو يمكن أن يأتوا في مستقبل الأيام.

ـ أما ميادين التشريعات والأحكام والهدايات والأخلاق، فأطلقوا لأيديهم حرية التحريف والتبديل وجعلوا كتبهم قراطيس يظهرون شيئاً منها ويكتمون ما لا يلائم أهواءهم ومخططاتهم في توجهاتهم العامة. وكتبهم مليئة بترهات ينزه العاقل ذهنه من أن يفكر بأنها شريعة سماوية.

ـ إلى جانب كل ذلك فقد نفخوا في أتباعهم تلك العنجهية الفارغة، وأطلقوا أبواقهم الكاذبة لزعم أن الشعب المختار خلق من جبلة خاصة. هيأه الله للسيادة والقيادة[4].

---

(١) يقول الحاخام ـ أباربانيل ـ: (المرأة غير اليهودية هي من الحيوانات، وخلق الله الأجنبي على هيئة الإنسان ليكون لائقاً لخدمة اليهود الذين خلقت الدنيا لأجلهم، لأنه لا يناسب الأمير أن يخدمه ليلاً ونهاراً حيوان وهو على صورته الحيوانية، كلا ثم كلا، فإن ذلك منابذ للذوق والإنسانية كل المنابذة) انظر الكنز المرصود/ ٧٥.

(٢) يقول ألبو ومعه جمهرة الربيين: إن الله أعطى اليهود كل قوة على خيرات الأمم ودمائهم. همجية التعاليم الصهيونية ص٧٣. «إن ممتلكات النصراني بالنظر إلى اليهودي هي ممتلكات لا مالك لها مثل رمال البحار وأول يهودي يستولي عليها عنوة يكون مالكها الأصيل» المرجع السابق ص٧٧.

(٣) انظر همجية التعاليم الصهيونية ص٦٣ وما بعدها..

(٤) قال الرابي مناحم: أيها اليهود، إنكم من بني البشر لأن أرواحكم مصدرها روح الله، وأما باقي الأمم فليست كذلك، لأن أرواحهم مصدرها الروح النجسة. انظر الكنز المرصود في قواعد التلمود ص ٧٥.

ولتحقيق كل ذلك كان توغلهم في المجتمعات الإنسانية لتحقيق مآربهم وأهدافهم في الإفساد والسيطرة. فكان الصراع بينهم وبين شعوب العالم جميعاً.

ولا تكاد تجد شعباً ذا حضارة على وجه الأرض إلا وكان له مع اليهود مواقف وملاحم. هذه سنة الله في اليهود وفي المجتمعات التي يعايشهم اليهود.

ومن هذه الأمم ذات الحضارات على وجه الأرض أمة الإسلام وقد كان لهم مع اليهود منذ انبثاق فجر الإسلام صولات وجولات، في كل الميادين في العقائد والتشريعات والأخلاق والمواقف السياسية والحضارية والميادين الاجتماعية ولا زال هذا الصراع دائراً وسيستمر إلى يوم القيامة.

فالإسلام يسعى لإقامة المجتمع الرباني الذي يقوم بالعبودية لله تعالى، وينشر العدل والحب والصفاء والنقاء والطهر.

واليهود يسعون لإفساد هذا المجتمع واستغلاله والسيطرة على مقدراته المادية والمعنوية وتسخيره لمآربه وإثارة الفتن والمفاسد بين شعوبه، والقضاء على مقومات هذا الدين في جميع الميادين لإحلال حضارة الانحطاط الخلقي والجشع المادي والفتن والحروب محله. إنها معركة الوجود وتحقيق الذات بين المسلمين وبين اليهود على مدار التاريخ، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

عندما يصطدم الأمل
بالواقع والحقيقة

بعد أن دوّنت كتب بني إسرائيل وسجلت شروح التوراة وحواشيها (المشناة، والجماراة، التي عرفت بالتلمود) وكانت متأخرة جداً عن بداية تاريخ اليهود الذين مرّوا بتجارب مريرة كان لهم فيها حياة البدو والرعاة المتنقلين وحياة الحضر والاستقرار والزراعة والاستيطان.

وتفاوتت الحياة بين حياة الرعية المغلوب على أمرها، وحياة الملوك والجبابرة المتحكمين في رقاب غيرهم.

دوّن ذلك التاريخ كله، وتحددت معالم الثقافة اليهودية التي تحمي اليهود من الذوبان في غيرهم عن طريق أحياء اليهود (الجيتو)، وارتسمت البصمات على الشخصية اليهودية التي يراد لها أن تنشأ الأجيال عليها.

وانتشر اليهود في أصقاع المعمورة لحمل رسالتهم التي استقرت الآراء حولها فضربوا مشارق الأرض ومغاربها لتحقيق حلمهم في السيطرة على العالم بأساليبهم الخاصة.

وكان من جملة القبائل التي ضربت في الأرض لتحقيق نبوءات كتبهم قبائل استوطنت شبه جزيرة العرب.

وكان الدافع الأساسي لها في أخذ هذا المنحى من الأرض إلى جانب الدوافع الاقتصادية والاجتماعية دافعاً دينياً، حيث كانت قبائل: بني النضير وبني قريظة والقينقاع يقرؤون في نبوءاتهم أن نبياً سيبعث في بلاد العرب وسيكون مهاجره إلى أرض ذات نخيل وحرات وستتحقق على يديه كثير من نبوءات

التوراة من الحكم بين الناس بالعدل وإقامة دين الله وانتشار دينه وأتباعه في أصقاع الأرض وأنا جيلهم في صدورهم رهبان بالليل فرسان بالنهار.

وكانوا يطمعون أن يكون هذا النبي منهم، لأنه استقر في نفوسهم أن لا نبي إلا من بني إسرائيل بل من سبط معين منهم هو سبط لاوين فاستوطنوا قرى في جزيرة العرب (يثرب، وخيبر، وتيماء) وكلها ذات نخيل وحرات وكانوا يمهدون للنبي الخاتم ويقولون عند التشاجر والمخاصمة مع جيرانهم من القبائل العربية لقد أظل زمان نبي آخر الزمان سنؤمن به ونقتلكم معه قتل إرم وعاد[1] وكانوا لا يشكون أنه سيكون من بني إسرائيل، ولما بعث رسول الله ﷺ وكان من نسل إسماعيل عليه السلام الفرع الثاني من دوحة النبوة من نسل إبراهيم عليه السلام، لم تحتمل نفسية اليهود التي صاغها التلمود وصوّرتهم شعب الله المختار، وهو السادة والقادة كيف تكون النبوة في غيرهم ويكونون أتباعاً لهذا النبي؟.

لقد ذكّرهم القرآن الكريم بهذه الحقائق وبمواقفهم السابقة ودعاهم إلى ترك البغي والحسد والبغضاء فإن النبوة هبة الله يضعها فيمن شاء وهو أعلم حيث يجعل رسالته.

يقول تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾﴾ [البقرة: ٨٩، ٩٠].

إن بغي اليهود لم يكن على غيرهم فحسب بل كان بغيهم على كل من

---

(١) انظر في ذلك سيرة ابن هشام مع الروض الأنف ١٢٤٥، ووفاء الوفا ١/ ١٦٠ وتفسير البغوي ١/ ٩٣ حيث جاء فيه: (... وذلك أنهم كانوا يقولون إذا أحزنهم أمر ودهمهم عدو: اللهم انصرنا عليهم بالنبي المبعوث بآخر الزمان الذي نجد صفته في التوراة، فكانوا ينصرون، وكانوا يقولون لأعدائهم من المشركين: قد أظل زمان نبي يخرج بتصديق ما قلنا فنقتلكم معه قتل عاد وثمود وإرم).

حاول الحد من طغيانهم وأهوائهم وشهواتهم من الأنبياء والمرسلين وأتباعهم الربانيين المصلحين ولو كانوا من بني إسرائيل أنفسهم، فكم من نبي قتلوه ومعه الربيون بغير حق، وكانوا يعلمون علم اليقين أنهم أنبياء مرسلون، وأن لعنة الله تحل على قاتليهم، ولكنها النفوس العاتية والقلوب القاسية الفظة لا تؤثر فيها المواعظ ولا القوارع، ولا يخضعون إلا للقوة التي تقهرهم أو تهدد وجودهم بالإبادة وهم يرونها رأي العين وبغير ذلك فلا يذعنون ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُواْ ۖ قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [البقرة: ٩٣].

فإذا كان البغي والطغيان وقسوة القلب يدفع اليهود ليقتلوا أنبياءهم من بني جلدتهم لأنهم حاولوا إعادتهم إلى حظيرة الإيمان والحد من فسادهم وشرورهم، فكيف يلقون قيادهم لنبي من غير بني جلدتهم بل جاء ليكشف للعالم ولجميع الناس موبقات دهاقنة الدين اليهودي المحرف، وشرورهم وآثامهم، وحقدهم الذي لا يحد على البشرية ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

لقد كان رسول الله ﷺ يبين الحق فيما ينقل إليه من أمر اليهود ويقره مع صبغه[١] بالصبغة الإسلامية وما كان من تحريفات اليهود واختلافهم أبعده

---

(١) بعد هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة وجد اليهود يصومون يوم عاشوراء/ العاشر من محرم/ فسأل عن سبب لصومهم هذا اليوم فقالوا إنه يوم نجى الله فيه موسى وقومه من فرعون فنحن نصومه تعظيماً له، فقال رسول الله أنا أولى بموسى منهم، فأمر بصيامه، وقال خالفوا اليهود وصوموا يوماً قبله أو يوماً بعده وانظر الحديث بمعناه في مسند الإمام أحمد جـ١/ ٣٤٠، وكذلك ما أمر به من تنظيف أفنية البيوت، ولبس النعل في الصلاة مخالفة لليهود، فقالوا إن هذا الرجل لا يترك لنا أمراً إلا ويخالفنا فيه. انظر في ذلك سنن الترمذي. كتاب الآداب ١٩٨/٤ ومختصر سنن أبي داود للمنذري ـ باب الصلاة في النعل ٣٢٩/١.

وأظهر الحق والصواب فيه لقد كانت تلك الهدايات الربانية والشرائع الإسلامية تثير حفيظة النفوس اليهودية التي تربت على تعاليم التلمود الحاقدة، فبذلت كل ما تملك من جهد وسلكت كل سبيل لإطفاء نور الإسلام ولو بالتآمر مع الوثنين المشركين على دعوة التوحيد وهذاما كشفه القرآن الكريم من أفعالهم ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ [النساء: ٥١ ـ ٥٦].

لقد تبوأ اليهود مكانة عظيمة في نفوس القبائل العربية الوثنية قبل الإسلام حيث كانت بأيديهم الزعامة الأدبية والمادية، وجاء الإسلام لينتزع منهم كل ذلك، بل ليكشف سوءتهم في قتلهم الأنبياء وصدهم عن سبيل الله وأكلهم الأموال بالباطل، وكانوا أحرص الناس على إخفاء كل ذلك عن العرب الأميين الذين كانوا ينظرون إلى اليهود أنهم أهل الكتاب الأول وعندهم من العلم ما ليس لدى الأميين(١).

أما الزعامة الأدبية فقد كانت لليهود في المناطق التي استوطنوها في جزيرة العرب في كل من يثرب وخيبر وتيماء وغيرها مما كانوا يتوقعونه أن يكون مهاجر آخر الأنبياء حسب وصف التوراة لأحوال النبي الخاتم. وكانت القبائل العربية وخاصة الأوس والخزرج ترجع إليهم في كثير من القضايا التاريخية والاستفسار عن الأمم السابقة وما كان يحتاج إلى علم ومعرفة خارج

(١) انظر في ذلك ما قالته قريش عندما أرسلت إلى اليهود في يثرب يسألونهم ما يستوثقون به من أمر محمد ﷺ وكان سبب نزول سورة الكهف.
انظر السيرة النبوية لابن هشام مع حاشية الروض الأنف: ٢/٣٩.

دائرة أساطيرهم وما توارثوه من شأن القبائل وأنسابها. على الرغم من أنهم لم يتبعوا اليهود في ديانتهم إما لأن اليهودية ديانة مغلقة، أو لأن الدافع الديني عند الوثنين العرب لم يكن ليحملهم على البحث عن الحقيقة بل كانت الأعراف القبلية والعادات المتوارثة هي المسيطرة على سلوكهم وتصرفاتهم. وكانت هذه الأعراف تتوارث شفاهاً والعرّافون والنسّابون كانوا يأخذون خبرتهم بالممارسة والمجالسة، ولم يكن لديهم كتب ومدونات يرجعون إليها. فكانت الزعامة الثقافية لأهل الكتاب في جزيرة العرب فعندما جاء الإسلام وأظهر الحق، وكشف ما كان أهل الكتاب يحرصون على إخفائه وبيّن حقيقة مواقفهم من الكتب المنزلة، وطمسهم لمعالم الحق وقسوة قلوبهم وكتمانهم لأمر الله. بعد ظهور ذلك فقد اليهود تلك المكانة في نفوس الأميين من الوثنيين، بل فقدوها في نفوس أتباعهم من عامة اليهود ودهمائهم.

وكانت الريادة المالية والاقتصادية في يد اليهود أيضاً، فهم التجار المحتكرون وهم المرابون شأنهم في ذلك شأن كل يهودي يحل أي أرض أو يساكن أي شعب من شعوب العالم، حيث تنص توراتهم المحرفة على أن لا يعامل أخاه اليهودي بالربا، أما غير اليهودي فعامله بالربا، ويرشدهم تلمودهم الحقود على أن جميع الناس خلقوا حميراً ليركبه اليهودي وكل مال يملكه غير اليهودي فإنما غصبه من اليهودي وله إعادته إلى حوزته بأي وسيلة متاحة مشروعة أو غير مشروعة.

لذا فالتعامل بالربا من دعائم الاقتصاد اليهودي، وكانوا يسعون إلى إقراض القبائل العربية للحاجة أو لغير الحاجة.

وكانوا يثيرون الفتن وخاصة بين الأوس والخزرج ليمدوا كلا الطرفين بالسلاح والمال والقروض الربوية، ومما ساعدهم على تنفيذ مخططهم وتحقيق مآربهم تحالف بني قريظة الأوس، وبني النضير الخزرج ليتوغلوا في صفوفهم ولتكون مشورتهم مقبولة ودسائسهم نافذة واليهودي لا يعرف حليفاً ولا يراعي إلاّ ولا ذمة سوى مصالحه المادية وتجارته الربوية ولكنها خطط ماكرة للاستيلاء على مقدرات هذه القبائل واستغلال جهودهم وإثارة الفتنة بينهم ليستفيد اليهود

بمختلف اتجاهاتهم ومذاهبهم وبني أسباطهم من ذلك ولتصب بعد ذلك في خزائنهم وتمتلىء بالمال السحت، فلما جاء الإسلام آخى بين المؤمنين جميعاً ومنهم الأوس والخزرج وفوّت على اليهود الدسائس والمكائد ونبّه على أن طاعة هؤلاء يؤدي إلى الكفر يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ۝١٠٠ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝١٠١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ۝١٠٢ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٠٣﴾[1] [آل عمران: ١٠٠ ـ ١٠٣].

لقد فوّت الإسلام فرص الفتنة على اليهود وقطع عليهم السبيل للإقراض بالربا، حيث حرّم الربا بجميع أنواعه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝١٣٠ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ۝١٣١ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝١٣٢﴾ [آل عمران: ١٣٠ ـ ١٣٢].

بل اعتبر الإسلام أكل الربا بمثابة إعلان حرب على الله ورسوله[2] وذلك ليجتث من النفس المؤمنة جذور التعلقات المالية الخبيثة ويزرع مكانها حب الإنفاق ابتغاء مرضاة الله تعالى ولعل من الحكمة الإلهية البالغة أن تأتي آيات الإنفاق والحث عليه بمختلف أشكاله وأنواعه، وآيات النهي عن الربا والتشديد والنكير على آكليه متعاقبة في سورة البقرة[3] وآل عمران[4].

---

(١) انظر سبب نزول هذه الآيات في أسباب النزول للواحدي وما فعله شاس بن قيس لإلقاء الفتنة بين الأوس والخزرج.

(٢) يقول تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون﴾** سورة البقرة: الآيتان ٢٧٨، ٢٧٩.

(٣) انظر آيات الإنفاق في سورة البقرة من ٢٦١ ـ ٢٧٤ وآيات الربا من ٢٧٥ ـ ٢٨١.

(٤) انظر آيات الربا في سورة آل عمران من ١٣٠ ـ ١٣٢ وآيات الإنفاق من ١٣٣ ـ ١٣٤.

لقد زعزع الإسلام بتحريم الربا أسس الاقتصاد اليهودي وجفف منابع الثروة وقطع أطناب التحكم والسيطرة على المجتمع، ففقد اليهود بذلك أسباب بقائهم وسيادتهم فما كان أمامهم سوى التآمر ليل نهار لإطفاء نور الله بتأليب القبائل الوثنية عليهم كما فعلوا في أحد والخندق وخيبر، وبإلقاء الفتنة بين المسلمين بتحريك أوليائهم من المنافقين كما فعلوا في الأحداث التي رافقت غزوة بني النضير وتسببت في إجلائهم والتآمر على اغتيال رسول الله ﷺ وقيادات المسلمين التي كانت السبب المباشر في حصار بني النضير[١].

هكذا اصطدمت أحلام اليهود وأمانيهم بالحقيقة الناصعة التي ظهرت مع بزوغ فجر الإسلام وقيام دولته في المدينة المنورة، وعندما تحققوا من صدق الرسول وصحة الرسالة أضمروا له عداوة الدهر:

أورد ابن هشام بسنده عن أم المؤمنين صفية بنت حيي بن أخطب رضي الله عنها أنها قالت: كنت أحب ولد أبي إليه، وإلى عمي أبي ياسر، لم ألقهما قط مع ولد لهما إلا أخذاني دونه، قالت: فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة، ونزل قباء، في بني عمرو بن عوف، غدا عليه أبي حيي بن أخطب وعمي أبو ياسر بن أخطب مغلسين[٢]، قالت: فلم يرجعا حتى كانا مع غروب الشمس قالت: فأتيا كالين كسلانين ساقطين يمشيان الهوينى، قالت: فهششت إليهما كما كنت أصنع فوالله ما التفت إليّ واحد منهما، مع ما بهما من الغم، قالت: وسمعت عمي أبا ياسر، وهو يقول لأبي: حيي بن أخطب: أهو هو؟ قال: نعم والله، قال: أتعرفه وتثبته؟ قال: نعم، قال: فما في نفسك منه؟ قال عداوته والله ما بقيت[٣].

كان حيي بن أخطب يعبر عن دخيلة النفس اليهودية التي صاغها التلمود لقد عرف شأن رسول الله ﷺ وصدقه ودعوته كما يعرف ابنه ونفسه ﴿ٱلَّذِينَ

---

(١) الروايات في ذلك في الدر المنثور ٢/ ٥٦٣.

(٢) مغلسين: مأخوذة من الغلس: وهو ظلمة آخر الليل إذا اختلطت بضوء الصباح. انظر النهاية لابن الأثير: ٣/ ٣٧٧.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام، مع حاشية الروض الأنف للسهيلي ٢/ ٢٥٨، دار المعرفة.

﴿ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [البقرة: ١٤٦].

ولكن النفوس المنطوية على البغي والحسد والحقد كيف تقبل الحق وترضخ له، فكان منهجهم عداوة الدهر لدعوة الحق. وهو المنهج الدائم المستمر إلى يومنا هذا تجاه الإسلام والمسلمين وسيبقى هذا المنهج إلى قيام الساعة. كما أخبر بذلك الصادق المصدوق. ولقد كانت الاعترافات تصدر من بعض اليهود بين الفينة والأخرى، ولكنها كانت تحجب بحجب كثيفة من الإنكار والجحود:

فقد ورد أن كنانة بن صويراء قال ليهود بني النضير: والله إنه لرسول الله، وما قام إلا أنه أخبر بما هممتهم به من الغدر ـ وذلك عندما هموا بإلقاء الحجر على رسول الله ﷺ من فوق الجدار ـ وإنه لآخر الأنبياء، وكنتم تطمعون أن يكون من بني هارون، فجعله الله حيث شاء، وإن كتبنا والذي درسنا في التوراة التي لم تغير ولم تبدل: أن مولده بمكة، وأن دار هجرته يثرب وصفته بعينها ما تخالف حرفاً مما في كتابنا، وما يأتيكم به أولى في محاربته إياكم، ولكأني أنظر إليكم ظاعنين يتضاغى صبيانكم قد تركتم دوركم خلوفاً وأموالكم، وإنما هي شرفكم فأطيعوني، وأسلموا وادخلوا في دين محمد فتأمنوا على أموالكم وأولادكم وتكونون من علية أصحابه، وتبقى بأيديكم أموالكم، ولا تخرجون من دياركم قالوا: لا نفارق التوراة وعهد موسى[1].
أورد ابن القيم ما قاله الحرث بن عوف لعيينة بن حصن عندما أقسم له قائلاً: والله ليظهرن محمد على ما بين المشرق والمغرب، يهود كانوا يخبروننا بهذا أشهد لسمعت أبا رافع سلام بن أبي الحقيق يقول: إنا نحسد محمداً على النبوة حيث خرجت من بني هارون، وهو نبي مرسل، ويهود لا تطاوعني على هذا، ولنا منه ذبحان واحد بيثرب وآخر بخيبر، قال الحرث قلت لسلام: يملك الأرض جميعاً؟ قال: نعم والتوراة التي أنزلت على موسى، وما أحب

(١) انظر سبل الرشاد ٤/ ٤٥٤ نقلاً عن ظلال السيرة النبوية، محمد عبد القادر أبو فارس ص ١٨٠.

أن يعلم يهودي بقولي فيه[1].

قلة من اليهود استطاعوا أن يتغلبوا على داء الحسد الذي أضرم في داخلهم على رسول الإسلام فأعلنوا إسلامهم منهم:

يامين بن عمير، وأبو سعد بن وهب وهما من بني النضير عندما قال أحدهما لصاحبه: والله إنك لتعلم أنه رسول الله فما ننتظر أن نسلم فنأمن على دمائنا وأموالنا، فنزلا من الليل وأسلما فأحرزا أموالهما[2].

هكذا كان شأن اليهود فهم قوم بهت كما قال عنهم عبد الله بن سلام رضي الله عنه وأرضاه، وما هذه المواقف إلا نتيجة طبيعية لتربية التلمود الذي أورثهم الحقد والضغينة على العالم جميعاً، وجعل الشخصية اليهودية مجمع نقائص ونقائض.

---

(١) انظر زاد المعاد ٤/١٣٩.

(٢) انظر السيرة الحلبية ٢/٥٦٦.

مرحلة المجابهة

إننا لا نستطيع أن نحدد تحديداً زمنياً بدأ هذه المرحلة ولا نهايتها فإن الكشف عن معتقدات اليهود التي أدخلوها في كتبهم، نسبوها إلى الله زوراً وبهتاناً، ومعتقداتهم في الأنبياء ومواقفهم من رسالاتهم كل ذلك جاء في المرحلة المكية، ولكن من شأن القرآن الكريم أن يربط بين الحدث وبين ما يناسبه من العظات والعبر، وما يشابهه من تاريخ الأمم في العصور الغابرة، وبيان سنن الله في ذلك كله.

لذا فإن ربطنا لقضايا فكرية معروفة عن اليهود، وكذلك التعقيب على الحدث بما يناسب التوجيه القرآني قد يكون له شبه بمواقف سابقة أو لاحقة، ولكن الربط والبيان الجديد يرد بمناسبة الواقعة الجديدة في المرحلة، وكشف عن جانب في الشخصية اليهودية متأصل فيهم متوارث من الأجيال السابقة.

فليس موقفاً قرآنياً جديداً من اليهود وإنما هو إيراد جديد لمجيء المناسبة التربوية أو التوجيهية نتيجة حدوث ما يستدعي الاستشهاد بها.

أ ـ المجابهة الفكرية مع اليهود:

أخذت الدعوة الإسلامية مسار المهادنة مع الطوائف الموجودة في المدينة ـ كما تقدم ـ وذلك بغية إتاحة المجال للتفكير والمناقشة الهادئة، وقد اكتسبت بذلك أرضاً جديدة وميادين فسيحة وإقبالاً على الدخول في دين الله.

ولكن ذلك لم يكن ليريح اليهود الذين أسقط في أيديهم، وبدأ القرآن في هذه المرحلة يدعوهم إلى الإيمان والدخول في دين الله ويزيح الحجب عن أعينهم ويقيم البراهين على أن هذا النبي هو النبي الذي أخبرت به كتبهم وأنهم

يعرفون أوصافه، وبدأ بعض أحبارهم يدخل الإسلام لما تحقق من مطابقة الصفات التي قرأوها في كتبهم عنه[1].

١ ـ وكان رسول الله ﷺ لا يتوانى عن دعوتهم ومناشدتهم الرجوع إلى الحق كما كان لاحتكاك الصحابة بهم ومناقشتهم ودعوتهم إلى الإسلام آثار تدفعهم لإثارة الشكوك تجاه ما يقوله الصحابة رضوان الله عليهم.

فلما كانت دولة الإسلام تحتاج إلى النفقات المالية لإيواء المهاجرين وللإنفاق على السرايا والبعثات الجهادية، ونزلت آيات الإنفاق في سبيل الله تحث المسلمين للإنفاق تربية وتهذيباً لنفوسهم ووقاية لشح النفوس من جهة ولسد الخلة في المجتمع الإسلامي وإيجاد لحمة التآزر وآصرة المودة بين أفراده من جهة أخرى من مثل الآيات الكريمة ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾ [البقرة: ٢٤٥].

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [الحديد: ١١].

﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحديد: ١٨].

---

(١) انظر قصة إسلام مخيريق وكان من أحبار يهود أسلم يوم أحد واستشهد يومئذٍ السيرة النبوية لابن هشام ٢/٢٥٧... وقصة إسلام ميمون بن يامين في الإصابة ٣/٣٧١ وكذلك قصة إسلام عبد الله بن سلام، فقد أورد الإمام أحمد والبخاري والنسائي وغيرهم عن أنس قال: سمع عبد الله بن سلام بمقدم النبي ﷺ وهو في أرض يخترف ـ فأتى النبي ﷺ فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي، ما أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام أهل الجنة؟ وما ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمه؟ قال: أخبرني جبريل بهن آنفاً، قال: جبريل؟ قال نعم، قال: ذاك عدو اليهود من الملائكة، فقرأ هذه الآية: **﴿من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك﴾** سورة البقرة: الآية ٩٧ قال: أما أول أشراط الساعة فنار تخرج من المشرق فتحشر الناس إلى المغرب، وأما أول ما يأكل أهل الجنة فزيادة كبد حوت، وأما ما ينزع الولد إلى أبيه وأمه، فإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع إليه الولد وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزع إليها، قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله.

انظر مسند الإمام أحمد والجامع الصحيح للبخاري كتاب تفسير القرآن: ٥/١٤٨.

﴿إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ [التغابن: ١٧].

قالت يهود: لقد افتقر رب محمد يستقرضنا المال. فنزلت الآيات تبين هذه المقولة الملحدة ﴿لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾ [آل عمران: ١٨١، ١٨٢].

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ۚ﴾[1] [المائدة: ٦٤].

٢ ـ ولما كان الصحابة رضوان الله عليهم يعرضون عليهم دعوة الحق كانت يهود تتحجج بأنهم لا يؤمنون برسول حتى يأتيهم بالآيات البينة التي تدل على صدقه، فكشف القرآن الكريم ادعاءاتهم وحقيقة كتمانهم الأمور وعنادهم تجاه الأنبياء جميعاً على الرغم من أخذ العهود والمواثيق منهم أن لا يكتموا شيئاً من الحق، يقول تعالى في ذلك ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾﴾ [آل عمران: ١٨٣، ١٨٤].

﴿۞ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [آل عمران: ١٨٦، ١٨٧].

---

(١) تفيد روايات أسباب النزول أن آيات سورة آل عمران نزلت عندما عرض عليهم أبو بكر رضي الله عنه الإسلام فتباهو بغناهم وأن لا حاجة لهم لرب محمد، أما آيات سورة المائدة فنزلت عندما طالبهم رسول الله ﷺ بالمساهمة في الإنفاق حسب العهد الذي كان بينهم وبين المسلمين، فقالوا يد الله مغلولة عنا ولا نملك مالاً لننفقه.

انظر في ظلال السيرة النبوية للدكتور: محمد عبد القادر أبو فارس ١/٥١. وسيرة الرسول لدروزة ٢/١٤٩.

٣ ـ ليس هذا فحسب، بل كانوا يختلقون الأحداث ثم يأتون إلى رسول الله ويسألونه عنها، فعندما يخبرهم بالحق في الحادثة، قالوا لكنا نجد في التوراة خلاف ذلك فيبرزون الشيء المحرّف ويكتمون الحق وعندما ينصرفون يثني بعضهم على حصافة بعض وحنكته ومهارته ويطلب بعضهم من الآخرين الثناء على هذا التصرف الماكر، ففضحهم القرآن الكريم على هذه الأساليب الملتوية وأوعدهم على هذه المواقف المنحرفة يقول تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾﴾ [آل عمران: ١٨٨، ١٨٩].

٤ ـ يلبس اليهود لكل حالة لبوسها، فعندما أعيتهم الحيلة للإفساد بين الأوس والخزرج حيث نبه الله سبحانه وتعالى إلى هذه الفتن وأمرهم بتوحيد الصف كما جاء في سورة آل عمران في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [آل عمران: ١٠٠، ١٠١].

حاولوا تشكيك المسلمين في دينهم وإبعاد المترددين الراغبين في الإسلام عن التفكير في الدخول فيه فتظاهروا بالدخول في الإسلام في أول النهار ثم ارتدوا وأعلنوا ردتهم آخر النهار وأشاعوا في الناس إنهم لم يجدوا خيراً في هذا الدين الجديد. لكي يوهموا العرب الأميين بأن أهل الكتاب أدرى منهم في صحة الأديان وصوابها، فلو كان هذا الدين الجديد خيراً لما فارقوه وهذا ما تشير إليه الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ [آل عمران: ٧٢ ـ ٧٤].

ولما انكشفت حيلتهم وأظهر الوحي الإلهي حقيقة صنيعهم لجأوا إلى

حيلة أخرى هي التودد للمسلمين بصلة القرابة والنسب فقالوا نحن من ولد يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم وأنتم من ولد إسماعيل بن إبراهيم فنحن أبناء عم، ونحن وإياكم تربطنا صلة الرحم والجوار منذ القدم فهلا كان بيننا وبينكم تعاون وتشاور في كل الأمور، فحذر الله جل جلاله المسلمين من الاطمئنان لهم والركون إليهم واتخاذهم بطانة لأن قلوبهم مملوءة حقداً وحسداً على المسلمين قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾ [آل عمران: ١١٨ ـ ١٢٠].

٥ ـ لقد عرف اليهود بالمخاتلة والمخادعة، وإذا أرادوا التملص من عهد أو قضية تلزمهم بعبء مالي أو مشقة بدنية أو غيرها أوجدوا لها مبررات فإن ضاقت بهم السبل ألصقوها بكتابهم وديانتهم شأنهم في ذلك شأن المفترين في كل عصر: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأعراف: ٢٨، ٢٩].

وإذا حدثت حادثة استثقلوا حكم التوراة فيها حاولوا اختلاق حكم من عند أنفسهم، أو إلصاقه بأي جهة كانت:

روى أحمد ومسلم وأبو داود عن البراء بن عازب قال: مر على النبي ﷺ بيهودي محمم[1] مجلود، فدعاهم فقال: أهكذا تجدون حد الزاني

---

(١) التحميم: تسويد الوجه انظر النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ١/ ٤٤٤ وكانوا يحملون الزانيين على حمارين بالمقلوب ويطوفون بهما الأحياء تشهيراً، وهو الحد الذي اتفقوا عليه بدل الرجم.

في كتابكم؟ قالوا: نعم، فدعا رجلاً من علمائهم فقال: أنشدك بالله الذي أنزل التوراة على موسى: أهكذا تجدون حد الزاني في كتابكم؟ قال: اللهم لا، ولولا أنك نشدتني بهذا لم أخبرك، نجد حد الزاني في كتابنا الرجم، ولكنه كثر في أشرافنا فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد، فقلنا: تعالوا نجعل شيئاً نقيمه على الشريف والوضيع، فاجتمعنا على التحميم والجلد فقال النبي ﷺ: اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه، وأمر به فرجم، فأنزل الله: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٤١﴾ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ وَإِن تُعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيۡـٔٗاۖ وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [المائدة: ٤١، ٤٢].

٦ ـ جاء عبد الله بن صوريا الأعور الفطيوني ومعه مجموعة من بني جلدته إلى رسول الله ﷺ لمجادلته ومحاولة افتتانه عن دينه فقالوا: ما الهدى إلا ما نحن عليه فاتبعنا تهتد، وكانت النصارى من وفد نجران قالوا من قبل مثل تلك المقولة فرد الله عليهم في ذلك فنزل قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْۗ قُلۡ بَلۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِـۧمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبۡغَةَ ٱللَّهِ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ وَنَحۡنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلۡ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡ وَلَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُخۡلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمۡ تَقُولُونَ إِنَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ قُلۡ ءَأَنتُمۡ أَعۡلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿١٤٠﴾﴾ [البقرة: ١٣٥ ـ ١٤٠].

لقد كانت هذه صورة من صور المجادلة وبيان الحق لليهود عندما كانوا يثيرون القضايا التاريخية وهم يزعمون أنهم أهل الكتاب الأول وأنهم على حق.

٧ ـ عن ابن عباس رضي الله عنهما أن كعب بن أسد، وابن صلوبا، وعبد الله بن صوريا وشاس بن قيس قال بعضهم لبعض: اذهبوا بنا إلى محمد لعلنا نفتنه عن دينه فأتوه فقالوا: يا محمد إنك قد عرفت أنا أحبار يهود وأشرافهم وساداتهم وإنا إن اتبعناك اتبعنا يهود ولم يخالفونا، وإن بيننا وبين قومنا خصومة فنحاكمهم إليك، فتقضي لنا عليهم، ونؤمن لك ونصدقك، فأبى ذلك رسول الله ﷺ فأنزل الله عز وجل فيهم: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَـٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [المائدة: ٤٨، ٤٩][١].

إن هذه المحاولات التي كان اليهود يحاولون التأثير بها على مواقف رسول الله ﷺ ليتخذوها حجة لحرب الإسلام وأهله والتشكيك في صدق رسول الله ﷺ إنها أساليب اليهود منذ القدم في تحريف أحكام شرائع الله، وصد الناس عنها بأي وسيلة كانت ليتحكموا في الأنظمة التي يلزمون الناس بها حيث يطبقونها متى شاؤوا ويعطلونها متى شاءوا حسب أهوائهم والمصالح اليهودية التي يرونها. أما أن تكون شريعة ثابتة لا تخضع للأهواء والمؤثرات فلن تحقق لهم ما يريدون. لقد نجح اليهود قديماً في تحريف الديانات ومنها الدين النصراني حيث أدخلوا فيه من الوثنيات ما شاؤوا أن يدخلوه وتحكموا في الديانات الوضعية ولبسوها على أصحابها، فأصبحوا ألعوبة بيد اليهود،

---

(١) انظر السيرة النبوية لابن هشام مع حاشيته الروض الأنف ٢/ ٢٨٢، وانظر تفسير ابن كثير ٢/ ٦٧.

ولكن شريعة الإسلام استعصت عليهم فلم تجد محاولاتهم مع رسول الله ﷺ ولا مع الصحابة من بعده.

٨ ـ ولعل أخطر دور كان يلعبه اليهود هو تآمرهم مع المنافقين على تخريب المجتمع الإسلامي من داخله.

لقد رأى اليهود في تلك الفئة من الناس ضالتهم، حيث وجدوا زعماء للمنافقين كعبد الله بن أبي يأكل الحقد قلبه لفوات الملك والزعامة من بين يديه بعد أن كان قاب قوسين منه. ووجدوا في أتباعه، رعاعاً لا يستخدمون عقولهم وإنما تحركهم العصبية الجاهلية، وتجمعهم المصالح الآنية العاجلة، ويدفعهم الحرص عليها على التظاهر بالإسلام والاختلاط بالمسلمين وحضور جمعهم وجماعاتهم والخروج معهم إلى الجهاد أحياناً بغية الحصول على الغنائم ولدرء خطر التوجه إليهم. وكان اليهود يتصلون بهم سراً لتوجيههم وأخذ المعلومات منهم للتعرف على الثغرات التي ينفذون منها إلى الصف الإسلامي لإثارة الفتن ونشر الإشاعات ومحاولة صرف الناس عن دينهم.

ولعل أدق تعبير جاء عن دور اليهود في هذا التوجيه والفتنة ما عبر عنه القرآن الكريم بالشياطين، فكما يوسوس شياطين الجن في قلوب الناس كلما وجدوا غفلة عن ذكر الله ومجالاً لبث نفثاتها، كذلك شياطين الإنس كانوا يوجهون في الخفاء أتباعهم من المنافقين وينفثون سمومهم وفتنهم في المجتمع، فكان المنافقون يتصلون بالمؤمنين ويتظاهرون بالإيمان ولكن عند اجتماعهم بشياطين الإنس جددوا لهم العهد أنهم على ما عهدوا فيهم من الولاء والتبعية لهم.

﴿وَإِذَا لَقُوا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوٓا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ [1] قَالُوٓا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ۝ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝١٥﴾ [البقرة: ١٤، ١٥].

ولقد حذّر الله سبحانه وتعالى المنافقين على فعلتهم السيئة ووبخهم على

---

(١) انظر زاد المسير لابن الجوزي في تفسير كلمة الشياطين ١/٣٥.

موالاتهم اليهود من دون المؤمنين، وأن ذلك لن يغني عنهم شيئاً في الدنيا والآخرة، وأمرهم بعدم غشيان مجالس أولئك الكفرة الذين يستهزؤون بكتب الله ورسله، وبين لهم أن هذا التذبذب في المواقف سيجرهم إلى أوخم العواقب وأسوئها: يقول عز من قائل: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾﴾ [النساء: ١٣٨ ـ ١٤٦].

إنه كشف فاضح للمظاهر والممارسات التي كان المنافقون يؤدونها وبيان لأمارات شخصية ومقولات سيئة كانوا يتفوهون بها وخداعاً وتمويهاً، ولكن أحوالهم لا تخفى على ذي بصيرة إيمانية. ومع كل ما قاموا به وما تفوهوا به تجاه المسلمين وتجاه دعوة الله، فإن الله سبحانه وتعالى الرحيم بعباده فتح لهم باب التوبة وأطمعهم فيها بشرط أن يقلعوا عن تلك الصلات مع اليهود وأن يصلحوا نفوسهم بالالتزام بأحكام الشرع وتطبيقها نصاً وروحاً ويتوجهوا بقلوبهم إلى الله ويتركوا هذه الخصلة البغيضة، فعندئذ سيدخلون في زمرة المؤمنين الصادقين ليكون لهم الأجر العظيم في الدارين.

لقد كانت العهود والمواثيق السرية الخاصة بين المنافقين واليهود على الولاء والتناصر تلعب دوراً في إثارة المشكلات في المجتمع المدني.

وما توسط ابن أبي بن سلول وإلحاحه على رسول الله ﷺ لترك قتل يهود بني قينقاع والاكتفاء بإجلائهم إلا لون من ألوان تنفيذ العهود السرية، وكذلك الصلات السرية مع يهود بني النضير، هذه الصلات التي فضحها الله سبحانه وتعالى وبيّن أن المنافقين ورّطوا حلفاءهم اليهود ثم تخلوا عنهم كما يفعل الشيطان بأتباعه ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الحشر: ١١ ـ ١٦].

وحتى في هذا السياق وفي التعقيب على هذا التآمر ثم التخاذل يعقب القرآن الكريم على موقف المنافقين ويفتح لهم باب الأمل وأن لا يكونوا مثل هؤلاء اليهود الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم، فلا هم لهم إلا الفساد والإفساد في الأرض، فضلوا وأضلوا.

لعلها إثارة لبقايا ما كان المنافقون يتظاهرون به من الإسلام وتوجيه الخطاب بصفة الإيمان فتح باب الأمل لهم وإطماعهم، وخير علاج لأمراض قلوبهم هو هذا القرآن الذي لو أنزل على جبل لخشع وتصدع رهبة وخشية من الذي كان هذا كلامه.

وتختم الآيات بذكر بعض أسماء الله الحسنى الدالة على أن فتح باب الأمل للناس رحمة بهم والله الملك القدوس المهيمن العزيز الجبار، لا ينقص ضلال هؤلاء وغيرهم من ملكه شيئاً كما لا يزيد إيمانهم شيئاً في ملكه ولكن من رحمته بعباده أن لا يرضى لهم الكفر.

وسورة المجادلة تكشف لنا جانباً من هذه العلاقة بين المنافقين واليهود،

وهذا الولاء القوي الذين لا يفسره إلا جمعهم على عداوة المسلمين يقول جل شأنه:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [المجادلة: ١٤ ـ ١٨].

إن تكرار هذه التحذيرات في القرآن الكريم حول موالاة الكفار، والنكير على من لا يرتدع ولا يكف عن الاتصال بأعداء الله المغضوب عليهم من اليهود لدليل على أن مكر اليهود لم ينته، وأنه كان ذا أثر كبير على المجتمع الإسلامي وكانت صيانة المجتمع الإسلامي تتطلب مثل هذا التكرار والتنبيه والتحذير من العواقب.

تعقيب
ما ورد في تفضيل بني إسرائيل وتوجيهه

جاءت آيات عديدة في القرآن الكريم تذكّر بنعم الله على بني إسرائيل ومنها أنه فضلهم على العالمين كقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [البقرة: ٤٧، ١٢٢].

﴿قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ [الأعراف: ١٤٠].

﴿وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۖ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ وَدَمَّرۡنَا مَا كَانَ يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ [الأعراف: ١٣٧].

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآئِهِۦۖ وَجَعَلۡنَٰهُ هُدٗى لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة: ٢٣، ٢٤].

وقد يتساءل بعض الناس ألا تدل هذه النصوص من القرآن الكريم على تفضيل اليهود وتميزهم واختيارهم دون سائر العالمين؟!

نقول إن هذا التفضيل كان بسبب اختيارهم لحمل رسالة ربهم فكانت الميزة مقترنة بالقيام بأعباء الرسالة فكانوا في عصرهم مفضلين على الأمم الوثنية والمشركة لأنهم أتباع الرسل وأنهم حملة رسالة التوحيد. ولكن بعد تخليهم عن حمل الرسالة، وأفعالهم الشنيعة في التحريف والتبديل وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقتل الأنبياء بغير حق استحقوا اللعن والطرد من رحمة الله وضرب الذلة والمسكنة عليهم إلى يوم الدين.

يقول سيد قطب: وتفضيل بني إسرائيل على العالمين موقوت بزمان استخلافهم واختيارهم فأما بعد ما عتوا عن أمر ربهم وعصوا أنبياءهم وجحدوا نعمة الله عليهم وتخلوا عن التزاماتهم وعهدهم فقد أعلن الله حكمه عليهم باللعنة والغضب والذلة والمسكنة وقضى عليهم بالتشريد، وتذكير الله لهم بهذا التفضيل منه إطماع لهم كي ينتهزوا الفرصة المتاحة على يد الدعوة الإسلامية فيعودوا إلى موكب الإيمان(١).

إن كل نعمة يقابلها تكليف، وكل تكليف يترتب عليه أجر ومثوبة فإن قام بها المكلف استحق الأجر والمثوبة، أما إذا أهمل أو غيّر حسب هواه فإن عقوبة الله العاجلة والآجلة له بالمرصاد فلما تخلى بنو إسرائيل عن القيام بالمهام وصموا بهذا العار الأبدي في العاجلة وفي الآجلة لهم عذاب عظيم. يقول الله تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩].

﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾﴾ [النساء: ١٦٠، ١٦١].

إن الأحكام التي بينت أسبابها وعللها ينبغي عدم بترها عن تلك الأسباب والعلل ولا ينبغي تجزئة آيات الكتاب والإيمان ببعضها وترك بعضها كما هو الحال مع اليهود الذين ذم الله سبحانه وتعالى هذه الخصلة فيهم: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [البقرة: ٨٥].

إن العدل الرباني لكل الناس ولا يظلم ربك أحداً، لقد وجد من بني

(١) في ظلال القرآن ١/ ٦٩.

إسرائيل أتباع للأنبياء ناصروا الحق مع رسلهم وضحوا في سبيل ذلك فاستحقوا ثناء الله عليهم كما في قوله تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [الأعراف: ١٥٩].

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة: ٢٤].

ولكن الله لا يحابي أحداً عندما يكون الانحراف عن منهج الله وعن وحيه إلى الإخلاد إلى الأرض وإلى شهوات النفس وإلى تيه الأهواء وضلال العقول ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّـٰغُوتَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُوا۟ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا۟ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [المائدة: ٦٠ ـ ٦٣].

إنه العدل الإلهي المطلق فهو يمدح المحسن على إحسانه وطاعته واستقامته على الطريقة. ويذم المعاند المشاق المتمرد على طاعة ربه.

ومن خلال دراسة النصوص الكريمة نجد أن هذا التفضيل مشروط بشروط:

أ ـ أنهم لما التزموا مقتضى الإيمان واتبعوا موسى عليه السلام وطبقوا شرائعه صاروا أصحاب فضل على معاصريهم الآخرين لأنهم كانوا على الوثنية والشرك.

ب ـ كما أنهم استحقوا الثناء عليهم وذكر فضلهم بسبب صبرهم الدال على قوة إيمانهم.

جـ ـ كما أن التعبير بـ(لما صبروا) ولما تفيد الظرفية، فيكون تفضيلهم وجعلهم أئمة كان محدداً بظرف خاص، وموقوتاً بزمان خاص، وهو الزمان الذي تحقق فيه إيمانهم وسط كفر من حولهم، ووجد فيه صبرهم النابع من

إيمانهم، فتفضيلهم إنما كان على (عالمي) زمانهم، وليس على كل العالمين حتى قيام الساعة. وال التعريف في (العالمين) للعهد الذهني المأخوذ من سياق الآيات التي تعرض قصتهم.

وقد مضى زمانهم وانقضى قبل بعثة رسول الله ﷺ، وقبل وجود الأمة المسلمة (وارثة) بني إسرائيل في التفضيل على العالمين والقيام بحمل الرسالة ونشرها والقيام بالخلافة في الأرض(١).

إن الذين يتلون الآيات السابقة في القرآن الكريم عليهم أن لا يغفلوا الآيات الأخرى التي تحدثت عن حكم الله في بني إسرائيل عندما غيّروا وبدلوا وحرّفوا وكتموا فقد جاء فيهم القدر الإلهي الممتد:

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [آل عمران: ١١٢].

بل كان أنبياؤهم يعلنون حكم الله فيهم بسبب تمردهم على أحكام التوراة وتماديهم على الانحراف والفجور وخنق الحق ودعم الباطل.

﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩].

واليهود لا يعرفون للمبادئ حقيقة، ولا تنطوي قلوبهم على تقدير للمثل ولا يقتنعون بقدسية للعبادات، بل معبودهم ما يختلقونه بأيديهم ويتخذون ما سواه هزواً ولعباً.

﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾﴾ [المائدة: ٦٠].

---

(١) انظر ذلك في الشخصية اليهودية من خلال القرآن ص١١٥.

ويتحمل أحبار السوء الإثم الأكبر لأنهم أعانوهم على انحرافهم ولم ينهوهم عن الفساد الذي انغمسوا فيه، بل كانوا يشاركونهم في ذلك.

﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (٦٣) وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٦٤)﴾ [المائدة: ٦٣، ٦٤].

إن قوماً يقرأون الآيات التي ذكر فيها تفضيل بني إسرائيل على العالمين ويغفلون الآيات التي جاءت في وصفهم بأقبح الأوصاف وذكرت تخليهم عن مقومات الفضل والريادة واستحقوا غضب الله عليهم إلى يوم القيامة، إن من يقرأ بعض آيات الكتاب ويغفل دلالات الآيات الأخرى، كمن يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعضه وهو صنيع اليهود في كتبهم.

إن المقرر الثابت في شرائع الله ورسالات أنبيائه أن لا نسب بين الله وبين أحد من خلقه، وإنما هي الأمانة والتكاليف فمن قام بها وأداها وتقرب إلى الله بما شرع استحق رضوان الله.

ومن تقاعس عنها ولم يقم بها على وجهها استحق غضب الله وعقوبته ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٧)﴾ [الزمر: ٧].

﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾ [القتال: ٣٨].

ب ـ المجابهة الحربية مع اليهود:

كان رسول الله ﷺ حريصاً على تأليف قلب اليهود المقيمين في المدينة، وذلك لفتح المجال أمامهم لتدبر دعوة الحق عن قرب، ولكف آذاهم عن

المسلمين في بداية مرحلة جديدة والمسلمون يقدمون على تأسيس دولة وإقامة مجتمع إسلامي على أسس جديدة.

فكان الميثاق الذي كتبه الرسول ﷺ وحدد فيه المسؤوليات للفئات الثلاث: المسلمين واليهود والمشركين.

وكان من أهم البنود:

١ ـ الدفاع المشترك عن المدينة تجاه من يقصدها بسوء مهما كان انتماؤه.

٢ ـ تحمل النفقات العامة والديات.

٣ ـ عدم إحداث شيء يناقض الميثاق، وعدم إيواء المحدثين.

ويظهر من تفصيلات الميثاق أن اليهود لم يكونوا حلفاً واحداً بل كانت لهم ولاءات متعددة وأحلاف مع أطراف، فمنهم من كان يوالي الخزرج ومنهم من يوالي الأوس ومنهم من يوالي بني النجار ومنهم من يوالي قبائل صغيرة..

لذا نصت الوثيقة على جميع هذه الأطراف تفصيلاً[1].

لم تكن المجابهة بين المسلمين واليهود في المدينة حرباً بالمعنى المعهود للحرب، وإنما كانت حملات تأديبية كلما كثرت دسائسهم وفسادهم داخل المجتمع الإسلامي.

١ ـ حملة لتأديب بني قينقاع:

وكانت أول حملة تأديبية لليهود ما جرى ليهود بني قينقاع يقول كتّاب

---

(١) انظر نص الوثيقة في السيرة النبوية لابن هشام ٢/٢٤٢. مع حاشية الروض الأنف وانظر الفقرات المنقولة في هامش ص٧١، ٧٢ من الكتاب.

السيرة: لما كانت وقعة بدر أظهر يهود بني قينقاع البغي والحسد ونبذوا العهد والمدة فأنزل الله تعالى على نبيه: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنفال: ٥٨]، قال رسول الله ﷺ: إني أخاف بني قينقاع[١].

وذلك لأنهم كانوا لا يخفون عداءهم للمسلمين، وكانوا يقولون: أغرَّ محمداً أنه غلب أعراباً لا عهد لهم بالحرب ولو لاقانا لوجدنا أننا الرجال[٢].

وكانت الحادثة التي أوقدت الشرارة عليهم: أن امرأة مسلمة قدمت بجلب لها فباعته في سوق بني قينقاع، وجلست إلى صائغ بها، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها، فأبت، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها فلما قامت انكشفت سوأتها، فضحكوا بها، فصاحت، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله، وكان يهودياً، وشدت اليهود عل المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود، فغضب المسلمون، فوقع الشر بينهم وبين يهود بني قينقاع.

فسار إليهم رسول الله ﷺ يحمل لواءه عمه حمزة بن عبد المطلب،

---

(١) انظر طبقات ابن سعد ٢/٢٩.

(٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ جمع يهود بني قينقاع في سوقهم ثم قال: يا معشر يهود احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة وأسلموا فإنكم قد عرفتم أني نبي مرسل، تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله عليكم، قالوا يا محمد إنك ترى أنا قومك!! لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة، إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس، فأنزل الله فيهم قوله تعالى: **﴿قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد، قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأي العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار﴾** سورة آل عمران: الآية ١٢.
انظرالسيرة النبوية لابن هشام ٣/١٣٧، وفتح الباري ٨/٣٣٤ وتفسير ابن كثير ٢/١٤، والكامل في التاريخ ٢/١٣٧.

فحاصرهم خمس عشرة ليلة، قذف الله في قلوبهم الرعب فنزلوا على حكم رسول الله ﷺ فأمر المنذر بن قدامةالسالمي بتكتيفهم ليضرب أعناقهم.

فلما رأى رأس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول رجال بني قينقاع قد كتفوا لتضرب أعناقهم جاء إلى رسول الله ﷺ، وقال: يا محمد أحسن في موالي وكانوا حلفاء الخزرج في الجاهلية، فأبطأ عليه رسول الله ﷺ، فقال: يا محمد أحسن في موالي، فأعرض عنه رسول الله ﷺ فأدخل يده في جيب درع النبي ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: أرسلني، وعرف الغضب في وجه رسول الله ﷺ، قال: لا والله لا أرسلك حتى تحسن في موالي، أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع قد منعوني من الأحمر والأسود تحصدهم في غداة واحدة، إني والله امرؤ أخشى الدوائر، فقال رسول الله ﷺ: هم لك[1].

فحكم فيهم رسول الله ﷺ بإجلائهم من المدينة خلال ثلاثة أيام، على أن يصطحبوا معهم الذرية والنساء، وللمسلمين السلاح والأموال.

وكلف عبادة بن الصامت ـ وكان حليفهم في الجاهلية فتبرأ منهم عندما نقضوا العهد ـ بالإشراف على إجلائهم، فمضى بهم حتى سلكوا طريق الشام ونزلوا بأذرعات.

وفي موقف ابن أبيّ بن سلول وعبادة بن الصامت نزل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْۚ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المائدة: ٥١ ـ ٥٦].

---

(١) انظر السيرة النبوية لابن كثير ٣/٦ والكامل في التاريخ ٢/١٣٨.

لقد كان لموقف رسول الله ﷺ من اليهود ومن رأس المنافقين أثر بالغ في نفوس الناس فبإبعاد بني قينقاع من المدينة كفّ شرهم وقطع دابر تآمرهم مع حلفائهم من المنافقين، وكان في ذلك إضعاف لموقف ابن أبيّ بن سلول ولو لم يجب طلبه بالكف عن قتلهم فلربما أثار فتنة هوجاء في المدينة خاصة وأن كثيراً من بني عوف من الخزرج كانوا يسمعون له مسلمهم ومشركهم عصبية، وكان الوقت مبكراً لكشف حقيقة ابن أبي أبيّ، فقد حدثت فيما بعد أحداث عرّته تماماً أمام العقلاء من مؤيديه، بل وصل الحد إلى ولده وكان يسمى عبد الله أيضاً أن يطلب من رسول الله قتل أبيه إن كان قد حكم بقتله لأنه يخشى إن تولى غيره ذلك أن لا يستطيع رؤية قاتل أبيه فيقتله، فيكون قد قتل مسلماً بكافر فيدخله الله النار[1] ولكن رسول الله ﷺ كان يقول له المرة تلو الأخرى، سنحسن إلى أبيك ما دام بيننا، ولم يشأ أن يقول الناس إن محمداً يقتل أصحابه، نظراً لتظاهر المنافقين بالإسلام ولكي لا يتخذ ذلك سنة في الولاة من بعده فيقتلون مناوئيهم على الظنة، لقد كانت سياسة حكيمة من رسول الله ﷺ أن يكف شر المفسدين ويقطع روافد الفتنة ويحصرها في موقعها، ويجنب المجتمع الإسلامي الاضطراب ولما ترسخ دعائمه ويشتد سوقه.

٢ ـ حملة التأديب لبني النضير:

والحملة الثانية التي قام بها رسول الله ﷺ ضد اليهود ما كان من حملته ضد بني النضير:

فقد نشط المنافقون وشياطينهم من اليهود بعد غزوة بدر واتصل زعيم بني النضير كعب بن الأشرف بالمشركين من قريش يحثهم على الثأر لقتلاهم في بدر، ووعدهم بتقديم الدعم لهم، وليحمل قريشاً على الثقة بكلامه أثنى على أصنامهم ودينهم وارتد على عقبيه ليقول كلمته الفاجرة لقريش أنتم أهدى سبيلاً من المسلمين، فسجل القرآن عليه وعلى من معه من اليهود هذه الارتكاسة، في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ

---

(١) انظر ذلك في تفسير ابن كثير.. في تفسير سورة المنافقون: ٤/ ٣٧٢.

﴿وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَمَن يَلۡعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمۡ لَهُمۡ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلۡمُلۡكِ فَإِذًا لَّا يُؤۡتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمۡ يَحۡسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۖ فَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ ءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَءَاتَيۡنَٰهُم مُّلۡكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن صَدَّ عَنۡهُۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾﴾ [النساء: ٥١ ـ ٥٥].

ولم يقتصر نشاط زعماء بني النضير على ذلك، بل استطاعوا عن طريق حلفائهم من المنافقين أن يخذلوا الجيش الإسلامي في أحد فينسحب ابن أبيّ بثلث الجيش بعد مغادرتهم المدينة إلى أرض المعركة في أحد[١]. وهو يدعي أنه لن يحدث قتال كما أخبر القرآن الكريم عنهم. ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ﴿١٦٧﴾﴾ [آل عمران: ١٦٦ ـ ١٦٧].

وكان شعر كعب بن الأشرف ينتشر بين المنافقين في المدينة، ويؤجج نار الحقد في قلوبهم وكانت شماتته بالمسلمين لما أصابهم يوم أحد، ومن المعلوم أن للكلمة دوراً في المعارك لا يقل عن دور الحلقة.

إلى جانب استهتاره بالقيم الإسلامية وتشببه بالنساء العفيفات من المؤمنات الطاهرات، حتى قال رسول الله ﷺ **«من لي بكعب بن الأشرف فقد آذى الله ورسوله»**[٢]. فكان أمر اغتياله وارتاح المسلمون من شره.

وفي هذا النشاط المحموم لليهود ضد الإسلام والمسلمين حدثت حادثة تآمرهم على قتل رسول الله ﷺ عندما خرج إلى بني النضير يطالبهم بالمساهمة

---

(١) ولعله السر في ورود ذكر أهل الكتاب في سياق الحديث عن غزوة أحد في سورة آل عمران حيث نهت الآيات الكريمة عن اتخاذ بطانة من دون المؤمنين، ومقابلة أهل الكتاب للمؤمنين بوجه وما تخفيه صدورهم من الحقد والبغضاء وإرادة السوء بالمؤمنين أعظم مما يصدر على ألسنتهم. انظر الآيات ١١٨ ـ ١٢٠ من سورة آل عمران.

(٢) انظر صحيح البخاري مع شرح فتح الباري ٨/ ٣٣٩.

في ديات لزمت المسلمين نتيجة قتل خطأ ارتكبه أحد الصحابة[١]، وكان من بنود المعاهدة التي وقع اليهود عليها المساهمة في التكاليف التي تلزم السلطة الإسلامية في المدينة باعتبارهم من مواطني هذه السلطة[٢].

فلما علم رسول الله ﷺ بهذه المؤامرة عن طريق الوحي رجع إلى المدينة وأرسل إليهم أن اخرجوا من المدينة فلا تساكنوني بها وأخبرهم بما تآمروا عليه من قتله ومحاولة إلقاء عمرو بن جحاش صخرة عليه من فوق الجدار.

وأجّلهم عشراً، وبينما هم يستعدون للجلاء ومنهمكون في إحضار الإبل أرسل إليهم رأس المنافقين عبد الله بن أبيّ بن أبي سلول أن لا تخرجوا من دياركم وأقيموا في حصونكم فإن معي ألفين من قومي وغيرهم يدخلون حصونكم ويموتون دونكم قبل أن يوصل إليكم، وتمدكم قريظة وحلفاؤكم من غطفان. فطمع بنو النضير واغتروا بهذه الوعود فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ إنا لا نخرج من ديارنا فاصنع ما بدا لك. وكان على رأس يهود بني النضير بعد كعب بن الأشرف حيي بن أخطب، فنصحه بعض عقلاء اليهود أمثال سلام بن مشكم حيث قال له: منتك نفسك والله يا حيي الباطل، فإن قول ابن أبي ليس بشيء، وإنما يريد أن يورطك في الهلكة حتى تحارب محمداً فيجلس في بيته ويتركك، ألا ترى أنه أرسل إلى كعب بن أسد القرظي سيد بني قريظة أن تمدكم بنو قريظة، فقال له: لا ينقض رجل واحد منا العهد فأيس من بني قريظة، وأيضاً قد وعد حلفاءه من بني قينقاع مثل ما وعدك حتى حاربوا ونقضوا العهد وحصروا أنفسهم في صياصيهم وانتظروا ابن أبي فجلس في بيته وسار إليهم محمد حتى نزلوا على حكمه، فإذا كان ابن أبي لا ينصر حلفاءه ومن كان يمنعه من الناس ونحن لم نزل نضربه بسيوفنا مع الأوس في حروبهم[٣] فقال حيي نأبى إلا عداوة محمد وإلا قتاله. فقال سلام بن مشكم: فهو والله جلاؤنا من أرضنا، وذهاب أموالنا وشرفنا وسبي ذرارينا مع قتل مقاتلينا. فأبى حيي إلا محاربة رسول الله ﷺ وألقت بنو النضير له قيادها.

---

(١) انظر الحادثة في السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ٢٤٠ والسيرة الحلبية ٢/ ٥٦٠.

(٢) انظر بنود المعاهدة فيما تقدم ص ٧١.

(٣) كان بنو قينقاع حلفاء الخزرج في الجاهلية، أما بنو النضير وبنو قريظة فكانوا حلفاء الأوس.

وتحدثت سورة الحشر ـ وتسمى سورة بني النضير أيضاً ـ عن هذه الحملة التأديبية لبني النضير، وعن موقف المنافقين الذين تمالؤا مع اليهود حيث جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١١) لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ (١٢) لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (١٣) لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ (١٤) كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٥) كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (١٦) فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (١٧)﴾ [الحشر: ١١ ـ ١٧].

وبعد حصار دام بضعة وعشرين يوماً يئس يهود بني النضير من مناصرة المنافقين لهم فنزلوا على حكم رسول الله ﷺ ورضوا بالجلاء على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة[١] فخرجوا إلى خيبر وحزن المنافقون لخروجهم أشد الحزن[٢] وكان هذا الإجلاء في السنة الرابعة للهجرة بعد غزوة أحد بأشهر لتبدأ مرحلة جديدة في نشاط اليهود من خلال القيادات التي انتقلت إلى خيبر بعد انتقال بني النضير إليها وكان نشاطهم ذا شقين تأليب القبائل العربية على المسلمين من خلال تحريك قريش وحلفائها ومن خلال تحريك بني قريظة وهي القبيلة اليهودية الثالثة التي كانت لا تزال تساكن المسلمين في المدينة، ولم تكن تعلن عن مناقضتها للعهود ولا تظاهر أحداً على المسلمين، ولكن حقد حيي بن أخطب ومن معه من يهود خيبر لم يكن ليترك بني قريظة بمنأى عن غدرهم وكيدهم وتآمرهم على المسلمين.

فكانت سبباً في مصرع بني قريظة كما يأتي.

---

(١) آلة الحرب.

(٢) انظر أحداث غزوة بني النضير في سيرة ابن هشام ٣/ ٢٤٠ وزاد المعاد ٢/ ١١٠ والسيرة الحلبية ٢/ ٥٥٩ وتفسير ابن كثير: ٤/ ٣٤٠.

تعقيب
الاغتيال السياسي

لقد كان بين الفترة والأخرى يوجه رسول الله ﷺ بعض شباب المسلمين لاغتيال بعض زعماء اليهود كما فعل رسول الله ﷺ عندما قال:

- **(من لي بكعب بن الأشرف فقد آذى الله ورسوله)**[1] فانتدب له محمد بن مسلمة وسلكان بن سلامة (أبو نائلة)، وعباد بن بشر بن وقش والحارث بن أوس بن معاذ وأبو عيسى بن جبر، وليلة تنفيذ المهمة مشى معهم رسول الله ﷺ إلى البقيع ثم ودعهم قائلاً: انطلقوا على اسم الله، اللهم أعنهم[2]، وبقي في انتظارهم فلما رجعوا استقبلهم قائلاً أفلحت الوجوه[3].

- عمرو بن جحاش: وهو الذي انتدب لإلقاء الحجر على رسول الله ﷺ. فبعد غزوة بني النضير قال رسول الله ﷺ ليامين بن عمير - الذي أسلم -: ألم تر ما لقيت من ابن عمك، وما همَّ به من شأني؟ فجعل ابن عمير لرجل جعلاً على أن يقتل له عمرو بن جحاش فقتله.

- أبو رافع سلام بن أبي الحقيق: ركب في نفر من بني قومه بني النضير إلى قريش وغطفان وثقيف وغيرهم من قبائل العرب يؤلبهم على حرب رسول الله ﷺ، وذلك بعد إجلاء بني النضير إلى خيبر، حيث نزل أبو رافع في أحد حصونها، فأرسل إليه رسول الله ﷺ خمسة نفر من الخزرج وهم: عبد الله بن عتيك، وعبد الله بن أنيس، وأبو قتادة، والأسود بن خزاعي،

---

(١) صحيح البخاري مع شرحه فتح الباري ٨/ ٣٣٩. والطبقات الكبرى لابن سعد ٢/ ٣٢.

(٢)(٣) فتح الباري ٨/ ٣٤٠ والسيرة النبوية لابن كثير ٣/ ١٣.

ومسعود بن سنان[1]، فتمكنوا من قتله في داره ليلاً. ولو نظرنا في سيرة هؤلاء لوجدناهم يقومون بأعمال ضد الدولة وضد رئيسها وضد المجتمع الإسلامي:

١ ـ نقضهم العهد الذي التزموا فيه بمناصرة المسلمين ضد كل عدو خارجي وعدم إيواء المحدثين المعادين أو إعطائهم الجوار.

٢ ـ تحريض الأعداء على حرب المسلمين.

٣ ـ الحرب الإعلامية ضد المسلمين من هجاء رسول الله ﷺ والمسلمين ورثاء قتلى المشركين.

٤ ـ التشبيب بالمسلمات القانتات وإشاعة الفحش من القول.

٥ ـ التآمر على قتل رسول الله ﷺ، وانتداب أحدهم لذلك (عمرو بن جحاش).

على ضوء ما تقدم يثور سؤال:

ما حكم الاغتيال السياسي الآن؟!

لإصدار الحكم الشرعي في ذلك لا بد من استقراء النصوص والاطلاع على أقوال العلماء فيها، ولعل ما ينبغي مراعاته جملة أمور منها:

١ ـ شروط في ولي الأمر الذي يصدر الحكم أو الأمر:

أ ـ أن يصدر القرار من أعلى سلطة مسؤولة في الدولة.

ب ـ أن يكون الأمر مجمعاً عليه، من غير مخالف.

جـ ـ أن يترتب على تنفيذ القتل علناً فتنة أكبر.

د ـ أن لا يترتب على تنفيذ الاغتيال فتنة أكبر.

---

(١) صحيح البخاري بشرح فتح الباري: ٢٦/٥ كتاب المغازي، انظر الكامل في التاريخ ١٤٦/٢.

٢ ـ شروط في المغتال الذي تقرر اغتياله:

أ ـ أن يكون كافراً ـ على ملة غير الإسلام ـ خالف شرط الذمة والعهد، أو مسلماً خالف أمراً معلوماً من الدين بالضرورة، فحكم عليه بالردة إجماعاً.

ب ـ أن يكثر فساده وشره، وتقدير ذلك يعود إلى أهل الشورى أو أهل الحل والعقد، أو اللجنة العليا.

جـ ـ أن يكون إجماع بين أهل الحل والعقد على استحقاقه القتل نتيجة أفعاله المخرجة له من الملة.

إن العمل بحد ذاته مشروع لأن رسول الله ﷺ قد أمر به وهو المشرِّع، ولكن لا بد له من ضوابط تكبح جماح الحكام لئلا يتخذ فعل رسول الله ﷺ ذريعة للفتك بكل من خالفهم الرأي أو كانت له انتقادات سياسية للحكم.

وهذا اللون من القتل أو تنفيذ حكم الله في المفسدين في الأرض غير حكم إهدار الدم، إذ إن إهدار الدم يكون الحكم فيه علنياً، ولا يحدد شخص ولا طائفة لتنفيذه، وإنما يشجع عليه مقابل أجر أخروي أو دنيوي.

٣ ـ حملة التأديب لبني قريظة:

لم يكن اليهود لتكف عن إيقاد نار الحروب ضد المسلمين، فبعد أن أجليت بنو النضير عن المدينة اتخذوا خيبر وكراً لتآمرهم وقاعدة لانطلاق مسعري نار الفتنة إلى القبائل العربية، فقد ركب حيي بن أخطب وسلام بن مشكم وكنانة بن أبي الحقيق وهوذة بن قيس وأبو عامر الفاسق إلى قريش في مكة يحرضونهم على حرب الرسول ﷺ وبقوا معهم يوسوسون لهم ويزينون لهم قتال المسلمين حتى حملوا خمسين رجلاً من بطون قريش على التحالف وقد ألصقوا أكبادهم بالكعبة متعلقين بأستارها أن لا يخذل بعضهم بعضاً ويكونون يداً واحدة على محمد ما بقي منهم رجل.

عندئذٍ شعر الوفد بالراحة، فخرجوا من مكة إلى غطفان ودعوهم إلى حرب المسلمين وقالوا لهم إنا سنكون معكم وإن قريشاً قد بايعوهم على ذلك

وجعلوا لهم تمر خيبر سنة إن هم نصروهم على المسلمين[1].

فخرجت قريش في أربعة آلاف مقاتل على رأسهم أبو سفيان بن حرب يحمل لواءهم عثمان بن طلحة، وخرجت غطفان وفزارة وبنو مرة وبنو سليم وبنو أسد وبنو أشجع وعلى رأسهم عيينه بن حصن الفزاري الأحمق المطاع وطلحة بن خويلد الأسدي والحارث بن عوف المري وأبو مسعود بن رخيلة الأشجعي وكلهم صناديد أقوامهم في ستة آلاف مقاتل تتمة العشرة آلاف. ليخيموا بمجمع الأسيال بالقرب من المدينة في ثلاثة عساكر وملاك أمرها إلى أبي سفيان.

ولم تنته مكيدة اليهود عند هذا الحد بل أرسل حيي بن أخطب إلى قريش بعد أن عسكروا بالقرب من المدينة ـ أن يرسلوا إليه ألف رجل، وإلى غطفان أن يأتيه منهم ألف رجل ليغيروا على المدينة من الخلف، فصار خوف رسول الله ﷺ والمسلمين على الذراري أشد من الخوف على أهل الخندق.

ولم يفت حيي بن أخطب موقع بني قريظة في المعركة وكان قد وعد قريشاً أنهم سيكونون معهم، وهم سبعمائة وخمسون مقاتلاً، فأتى كعب بن أسد القرظي سيد بني قريظة فدق باب حصنه، فأبى أن يفتح له وألح عليه في ذلك فقال له: ويحك يا حيي إنك امرؤ مشؤوم، وإني قد عاهدت محمداً فلست بناقض ما بيني وبينه، ولم أر منه إلا وفاء وصدقاً، فقال له: ويحك افتح لي أكلمك، فقال: ما أنا بفاعل، فغاظه، فقال له: والله ما أغلقت دوني إلا تخوفاً على جشيشتك[2] أن آكل معك منها، ففتح له، فقال له: ويحك يا كعب، جئت بعز الدهر، جئتك بقريش حتى أنزلتهم بمجمع الأسيال، وبغطفان حتى أنزلتهم بجانب أحد، قد عاهدوني وعاقدوني أن لا يبرحوا حتى يستأصلوا محمداً ومن معه، فقال له كعب: جئتني والله بذل الدهر، وكل ما يخشى، فإني لم أر في محمد إلا صدقاً ووفاء ويحك يا حيي دعني وما أنا عليه.

---

(١) انظر السيرة الحلبية ٢/ ٦٣٠.

(٢) الجشيشة: هي أن تطحن الحنطة طحناً جليلاً ثم تجعل في القدر ويلقى عليها لحم أو تمر وتطبخ. انظر النهاية لابن الأثير: ١/ ٢٧٣.

فلم يزل حيي بكعب حتى أعطاه عهداً من الله وميثاقاً لئن رجعت قريش وغطفان ولم يقتلوا محمداً أن يكون معه في حصنه ويصيبه ما أصابه. فعندئذ نقض كعب العهد وبريء مما كان بينه وبين رسول الله ﷺ ومزقوا الصحيفة التي كان بها العقد. وجمع رؤساء قومه وأعلمهم بما صنع من نقض العهد وشق الكتاب الذي كتبه رسول الله ﷺ[1] وهذا ما يحدثنا به القرآن الكريم من أمر اليهود مع الأحزاب حيث يقول تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ [الأحزاب: ٩ ـ ١١].

كان اليهود المحرك للتجمع والحشود من الخارج، وكان المنافقون يثيرون الإشاعات والأراجيف بين صفوف المقاتلين خلف خطوط المسلمين، فمن قائل إن محمداً كان يعدنا بلاد فارس وقصور الشام ونحن الآن نخندق على أنفسنا من الخوف ولا يأمن أحدنا أن يذهب لقضاء حاجته، ومنهم من كان يتعلل بأوهى الأعذار ليترك الساحة ويفر من الميدان يزعم أن بيوتهم مكشوفة للعدو.

ولكن المؤمنين الصادقين كان لهم شأن آخر يقول الله تعالى عنهم: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾﴾ [الأحزاب: ٢٢ ـ ٢٤].

ولما وصل خبر نقض العهد من اليهود إلى رسول الله ﷺ أرسل سعد بن معاذ وسعد بن عبادة إليهم للتأكد من الخبر فوجدوهم قد نقضوا العهد ونالوا

---

(١) انظر السيرة الحلبية ٢/٦٣٨.

وزاد المعاد لابن القيم ٢/١١٧، والسيرة النبوية لابن هشام بحاشية الروض الأنف ٣/٢٦١.

من رسول الله ﷺ، وتبرؤوا من عقده وعهده فشتمهم سعد بن معاذ وهم حلفاؤه في الجاهلية، وشاتمهم سعد بن عبادة، فقال له سعد بن معاذ دع عنك مشاتمتهم فما بيننا وبينهم أربى. وبعد أن اطمأن حيي بن أخطب إلى نجاح مخططه مع بني قريظة صار يمد قريشاً بالمؤن ليستمروا في حصار المدينة، وفي أحد الأيام وبينما طائفة من الأنصار خرجوا ليدفنوا ميتاً منهم بالمدينة صادفوا عشرين بعيراً لقريش محملة شعيراً وتمراً وتبناً، حمّلها ذلك حيي بن أخطب شداداً وتقوية لقريش، فأتوا بها رسول الله ﷺ فتوسع بها على أهل الخندق[1].

ولما رجع المشركون خائبين وأرسل الله عليهم جنوده من الريح ومما لا يرى ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾ [الأحزاب: ٢٥].

كان لا بد من محاسبة بني قريظة على فعلتهم هذه وخيانتهم لله ولرسوله ولنقضهم العهد وغدرهم، ولعل رسول الله ﷺ كان يريد استشارة الصحابة رضوان الله عليهم في ذلك إلا أن الوحي لم يمهله فقد نزل جبريل عليه السلام ورسول الله ﷺ يغتسل من آثار المعركة فناداه: عذيرك[2] من محارب، عفا الله عنك أو قد وضعتم السلاح قبل أن تضعه الملائكة؟ فقال رسول الله ﷺ: نعم، قال فوالله ما وضعناه، إن الله يأمرك يا محمد بالسير إلى بني قريظة فإني عامد إليهم فمزلزل بهم الحصون.. فأدبر جبريل عليه السلام ومن معه من الملائكة حتى سطع الغبار في زقاق بني غنم، يقول أنس: كأني أنظر إلى الغبار ساطعاً في زقاق بني غنم موكب جبريل عليه السلام حين سار لبني قريظة[3].

فأذن مؤذن رسول الله ﷺ: من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة. ونادى المنادي يا خيل الله اركبي.

فسار إليهم رسول الله ﷺ وقد لبس الدرع والمغفر والبيضة وأخذ قناة

---

(١) السيرة الحلبية ٢/٦٤٧.

(٢) أي من يعذرك؟!

(٣) انظر السيرة النبوية لابن هشام ٣/٢٦٧. والسيرة النبوية لابن كثير ٣/٢٢٤ والسيرة الحلبية ٢/٦٥٨. وانظر قول أنس في صحيح البخاري: كتاب المغازي ٥/٥٠.

بيده، وتقلد السيف وركب الفرس، وكان معه ثلاثة آلاف مقاتل وحمل اللواء علي بن أبي طالب رضي الله عنه. فلما مر على نفر من بني النجار وجدهم قد لبسوا السلاح ينتظرون رسول الله ﷺ فقال: هل مر بكم أحد؟ قالوا: نعم، دحية الكلبي مرّ على بغلة بيضاء، وأمرنا بحمل السلاح، وقال لنا: رسول الله ﷺ يطلع عليكم الآن فلبسنا سلاحنا وصففنا، فقال رسول الله ﷺ: ذاك جبريل عليه السلاح، بعث إلى بني قريظة يزلزل حصونهم ويقذف الرعب في قلوبهم.

وحاصر رسول الله ﷺ بني قريظة خمساً وعشرين ليلة، فلما أيقنوا أن رسول الله ﷺ غير منصرف عنهم حتى يناجزهم، قال كبيرهم كعب بن أسد:

يا معشر يهود قد نزل بكم من الأمر ما ترون وإني عارض عليكم خلالاً ثلاثاً أيها شئتم، قالوا وما هي؟ قال نتابع هذا الرجل ونصدقه، فوالله لقد تبين لكم أنه نبي مرسل، وأنه الذي تجدونه في كتابكم، فتأمنون على دمائكم وأموالكم ونسائكم وأبنائكم، وما منعنا من الدخول معه إلا الحسد للعرب حيث لم يكن من بني إسرائيل، ولقد كنت كارهاً لنقض العهد، ولم يكن البلاء والشؤم إلا من هذا الجالس ـ يعني حيي بن أخطب وكان قد دخل معهم حصنهم حين رجعت الأحزاب وفاءً لكعب بما كان عاهده عليه ـ أتذكرون ما قال لكم ابن خراش حين قدم عليكم؟ إنه يخرج بهذه القرية نبي فاتبعوه وكونوا له أنصاراً، وتكونوا آمنتم بالكتابين الأول والآخر، قالوا: لا نفارق حكم التوراة أبداً ولا نستبدل به غيره.

قال كعب: فإذا أبيتم عليّ هذه، فهلمّ فلنقتل أبناءنا ونساءنا، ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالاً مصلتين السيوف، ولم نترك وراءنا ثقلاً حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، فإن نهلك نَهلك ولم نترك وراءنا نسلاً، وإن نظفر فلعمري لنجدن النساء والأبناء.

قالوا نقتل هؤلاء المساكين فما خير العيش بعدهم؟

قال فإن أبيتم عليّ هذه، فإن الليلة ليلة السبت وأن عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمنوا فيها، فانزلوا لعلنا نصيب من محمد وأصحابه غرة، فقالوا: نفسد سبتنا ونحدث فيه ما لم يحدث فيه من كان قبلنا إلا من قد علمت وأصابه ما لم يخف عليك من المسخ.

وقال لهم عمرو بن سعدى: قد خالفتم محمداً فيما حالفتموه، ولم أشرككم في غدركم فإن أبيتم أن تدخلوا معه فاثبتوا على اليهودية، وأعطوا الجزية، فوالله ما أدري يقبلها أم لا؟ قالوا: نحن لا نقر للعرب بخراج في رقابنا يأخذونه، القتل خير من ذلك.

فلما لم تتفق كلمتهم على رأي أرسلوا إلى رسول الله ﷺ نباش ابن قيس يعرضون عليه أن ينزلوا على ما نزلت عليه بنو النضير من أن لهم ما حملت الإبل إلا الحلقة، فأبى رسول الله ﷺ أن يحقن دماءهم ويسلم لهم نساءهم والذرية، فأرسلوه ثانياً بأنه لا حاجة لهم بشيء من الأموال لا من الحلقة ولا من غيرها فأبى رسول الله ﷺ إلا أن ينزلوا على حكم رسول الله ﷺ، ثم إنهم بعثوا إلى رسول الله ﷺ أن ابعث إلينا أبا لبابة ـ رفاعة بن المنذر ـ نستشيره في أمرنا ـ وكان حليفاً لهم مناصحاً لهم، وكان ماله وولده وعياله في بني قريظة فأرسله رسول الله ﷺ إليهم، فلما رأوه قام إليه الرجال، وجهش إليه النساء والصبيان يبكون في وجهه من شدة المحاصرة وتشتيت مالهم فرقّ لهم، وقالوا: يا أبا لبابة أترى أن ننزل على حكم محمد؟ قال: نعم وأشار بيده إلى حلقه: أي إنه الذبح[1].

ثم لم يجد بنو قريظة بداً من النزول على حكم رسول الله ﷺ فعزل رسول الله ﷺ المقاتلين وكانوا بين السبعمائة والثمانمائة وأمر بهم فكتّفوا، وعزل الذراري والنساء جانباً، فتدخل الأوس حلفاء بني قريظة في الجاهلية وطلبوا من رسول الله أن يعاملهم معاملة بني قينقاع حلفاء الخزرج، فأرضاهم رسول الله ﷺ بأن يحكّم فيهم سيد الأوس سعد بن معاذ فرضي به الأوس وبنو قريظة ورسول الله ﷺ.

---

(١) ندم أبو لبابة على هذا التصرف واعتبره خيانة لله ولرسوله، فلم يرجع إلى رسول الله ﷺ وإنما رجع إلى مسجد رسول الله فربط نفسه بسارية المسجد وآلى على نفسه أن لا يفك نفسه إلا للصلاة أو لقضاء الحاجة حتى تنزل توبته، ويكون رسول الله هو الذي يفكه. فنزل فيه قوله تعالى: ﴿**وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم**...﴾ انظر السيرة النبوية لابن هشام ٣/٢٦٨. وزاد المعاد لابن القيم ٢/٧٣.

فأرسل رسول الله ﷺ إلى سعد بن معاذ ـ وكان في خيمة رفيدة في مسجد رسول الله يعالج من السهم الذي أصابه يوم الخندق ـ فجاءه قومه وحملوه إلى رسول الله وقد أحاطوا به وهم يقولون: يا أبا عمرو أحسن في مواليك فلما ألحوا عليه وأكثروا، قال: لقد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم.

وأراد سعد بن معاذ أن يستوثق بنفسه من تحكيم الأطراف جميعها له فقال لبني قريظة: أترضون بحكمي قالوا: نعم فأخذ عليهم عهد الله وميثاقه أن الحكم ما حكم به، وقال للجهة التي فيها رسول الله ﷺ وعلى من ههنا مثل ذلك وأشار إلى الناحية وهو معرض عن رسول الله إجلالاً له، فقال رسول الله ﷺ: نعم. قال سعد: فإني أحكم فيهم أن تقتل الرجال، وتغنم الأموال وتسبى الذراري والنساء. فقال رسول الله ﷺ لسعد: لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سماوات.

وشقت الأخاديد في سوق المدينة، ثم أرسل إليهم يأتون بهم أرسالاً في الليل ليلقوا جزاء خيانتهم وغدرهم، فقتلوا وألقوا في تلك الخنادق ثم رد التراب عليهم في تلك الخنادق.

ولما أتي بحيي بن أخطب مجموعة يداه إلى عنقه بحبل، فلما نظر إليه رسول الله ﷺ قال: ألم يمكّن الله منك يا عدو الله؟

قال: بلى، أبى الله إلا تمكينك مني، أما والله ما لمت نفسي في عداوتك ولكنه من يخذل الله يخذل.

ولما جيء بسيد بني قريظة كعب بن أسد، قال له النبي ﷺ: يا كعب قال نعم يا أبا القاسم، قال: ما انتفعتم بنصح ابن خراش لكم، وكان مصدقاً بي أما أمركم باتباعي، وإن رأيتموني تقرؤوني منه السلام، قال: بلى والتوراة يا أبا القاسم، ولولا أن تعيرني يهود بالجزع من السيف لاتبعتك ولكنه على دين يهود[1].

(١) انظر السيرة الحلبية ٢/٦٦٨.

تعقيبات

التعقيب الأول: لقد وُجد سعد بن معاذ رضي الله عنه في موقف امتحان وابتلاء من الله، فهل بقي في نفسه من شوائب الجاهلية شيء، وهل للنفاق مسرى إلى قلبه فيتخذ موقفاً شبيهاً بموقف رأس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول من حلفاء الجاهلية، لو كان للزعامة في قومه واستمرارها مطمع في نفسه لأرضاهم بذلك وقد ألحوا عليه أن يكون رحيماً بحلفائه لكن الدافع الإيماني عند سعد بن معاذ كان أقوى من أي ولاء، وكان ولاء الله ورسوله هو الوحيد، كيف لا وقد نزل بعد حادثة بني قينقاع قول الله تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المائدة: ٥١ ـ ٥٦].

فهذه النذر الربانية كانت نصب عين سعد بن معاذ، وما قيمة الزعامات والحياة الدنيا إذا كانت النهاية غضب الله وعذابه الأخروي لقد حكم فيهم حكم الله المبرء من الهوى والمصالح الشخصية والولاءات القبلية، حكم الله الذي يرجح مصلحة الإسلام والمسلمين والصالح العام على أي اعتبار آخر، لذا أيّد النبي ﷺ حكمه وقال له: لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة.

وجاء التأييد الرباني ليخلد هذا الحكم الذي أجراه الله على لسان سعد بن معاذ رضي الله عنه: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾ [الأحزاب: ٢٦، ٢٧].

إن أركان الدولة لا تتوطد إن لم يكن لها نظام تطبقه على الكبير والصغير لا تؤثر فيه الأهواء ولا يخضع لأمزجة الحكام. يزن أعمال الناس ويكون الحكم العدل على تصرفاتهم.

ولا تدخل هيبة السلطة الإسلامية إلى قلوب الناس إن لم تكن الطبقة الحاكمة جادة في تطبيق أحكام العدل الرباني دون مواربة أومداهنة أو محاباة على حساب شرع الله.

لقد عاتب الله سبحانه وتعالى رسوله عندما أخذ موقفاً ليناً سمحاً من أسرى بدر حيث أنزل رب العزة ﴿مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنفال: ٦٧، ٦٨].

إن الدول تحتاج ـ وبخاصة في مراحل التأسيس ـ إلى صرامة وقوة واتخاذ قرارات من شأنها توطيد دعائم الحق والعدل. وتأخذ على أيدي أهل الكيد والخيانة.

لقد سجل سعد بن معاذ موقفاً للمؤمن الذي يترفع بولائه لله ولرسوله على أي ولاء آخر فكان جديراً بأن يهتز لموته عرش الرحمٰن[١].

التعقيب الثاني: إن بعض النفوس الضعيفة لا تحتمل نتائج هذا الحكم ولا تريد أن تتخيل أفواجاً من الخونة يقدمون للقتل فتقطع رؤوسهم وترمى جيفهم في خنادق وهم يبلغون المئات. ويقولون هذه قسوة وهمجية.

---

(١) «عن جابر رضي الله عنه: سمعت النبي ﷺ يقول: اهتز العرش لموت سعد بن معاذ» صحيح البخاري ـ مناقب سعد بن معاذ: ٤/٢٢٧.

إن هؤلاء لا يتصورون عظم الجريمة التي ارتكبها هؤلاء الغدارون ولا يتصورون النتائج التي كانوا يرمون إليها لو فازوا في جريمتهم وتمكنوا من اجتياح المدينة مع الأحزاب ماذا كان سيحدث للمسلمين ونسائهم وذراريهم.

وأعظم من ذلك ماذا كان ينتظر منهم تجاه دعوة الحق أما كانوا حريصين على إطفاء نور الله والقضاء على بيضة الإسلام لترجع الجاهلية وليرجع حكم التلمود الأسود بمضامينه من الحقد الأسود على البشرية.

إن عقوبة الموت لأعداء الله المتآمرين على طمس معالم الحق الساعين للإفساد في الأرض ليست كثيرة.

لقد أراح رسول الله ﷺ المسلمين عندما نفّذ حكم الله في بني قريظة وطهر عاصمة الدولة الإسلامية الفتية من شرور اليهود حيث لم تبق تجمعات دينية تتآمر على عقيدة الأمة وتساعد أعداءها.

إنها السياسة الشرعية الحكيمة لتوطيد أركان دولة الإسلام وهو الحكم العدل سواء رضي البشر أم سخطوا.

بل إننا عندما نقرأ في تاريخ أي دولة من الدول سواء كانت تتبع مذهباً وضعياً أو تستمد نظامها من دين سماوي محرّف نجد أنها تبيح لنفسها سحق المناوئين لها، ولا ترى في ذلك غضاضة وقد لا يصل الأمر مع هؤلاء المناوئين إلى درجة التعاون مع أعداء الدولة. وفي التاريخ الحديث والقديم عبر وحوادث لمن يعتبر.

التعقيب الثالث: لقد غزت ثقافات وافدة معاصرة أذهان المسلمين، وأثرت على بعض القيادات الإسلامية المعاصرة فاستهجنوا أحكام الإسلام في الأسرى، وبدأت الانهزامية داخل نفوسهم، لأن بعض أحكام القرآن لا تستسيغها عقول الماسونية وربائبها الذين تغذوا بلبانها وترعرعوا في أحضانها ومن هذه الأحكام الشرعية ما قاله علماء المسلمين وطبقه رسول الله ﷺ ومن بعده خلفاؤه الراشدون ومن تبعهم بإحسان من أمراء المؤمنين وملوك الإسلام وسلاطين المسلمين. حيث قالوا إذا تغلب الجيش الإسلامي على أعداء الإسلام من الكفار أن أمير المؤمنين مخيّر بين أربعة أمور يطبق أيها شاء حسب ما يرى فيه مصلحة الإسلام والمسلمين. وهي:

١ ـ الفداء: بأن يفادي الأسرى من الأعداء بأسرى من المسلمين أو بمال أو بمنفعة تعود على المسلمين. كما فعل رسول الله ﷺ بأسرى بدر، حيث فاداهم على مال، ومن لم يكن لديه مال وكان يجيد الكتابة جعل فداءه تعليم بعض صبيان المسلمين القراءة والكتابة[١].

٢ ـ المن عليهم بدون مقابل ابتغاء مرضاة الله تعالى أو تأليفاً لقلوبهم أو غير ذلك. كما فعل رسول الله ﷺ ببعض الأسرى من بني المصطلق، ومع قريش يوم فتح مكة حيث قال لهم اذهبوا فأنتم الطلقاء، وكما فعل في أسرى ثقيف وهوازن يوم حنين.

٣ ـ الاسترقاق: أن يجعلهم أرقاء حيث تسلب حريتهم ويلحقون بالمتاع والأنعام، حيث أهدروا آدميتهم وكرامتهم[٢] عندما وقفوا أمام دعوة الحق وحرصوا على القضاء على الإسلام وإطفاء نور الله. وقد فعل ذلك رسول الله ﷺ مع كثير من القبائل العربية وفعله خلفاؤه الراشدون عند فتح بلاد فارس وبلاد الروم.

٤ ـ القتل: وهو أن يقتل المقاتلون البالغون من الذكور وكذلك كل من اشترك في القتال الفعلي وكان في أرض المعركة كما فعل رسول الله ﷺ مع يهود بني قريظة.

وللإمام أن يطبق في المعركة الواحدة كل هذه الأحكام أو بعضها فله أن يمن على بعضهم ويفادي آخرين ويسترق مجموعة منهم ويقتل آخرين. كما فعل بأسرى بدر فقد قتل النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط. كما للإمام أن يعقد معاهدات مع بعض الدول يلتزم بموجبها بلون من ألوان التعامل للأسرى من باب المعاملة بالمثل ولكن يراعي في كل الأحوال مصلحة المسلمين. ولا تكون الثقافات المعادية أو التيارات الفكرية أو الضغوط الدولية هي الأصل في هذه الاتفاقات. كما للإمام أن ينبذ إلى أية دولة معاهداتها إن خشي منهم الخيانة كما نص عليه القرآن: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ

(١) انظر في ذلك السيرة الحلبية غزوة بدر الكبرى: ٢/٤٥١.

(٢) عرّف فقهاء المسلمين الرق بأنه: عجز حكمي يلحق بالآدمي سببه الكفر.

إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الأنفال: ٥٨].

لقد وقف بعض المعاصرين على النص الكريم في قوله تعالى ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ﴾ [محمد: ٤].

فقالوا إن حكم الأسرى هو أحد الأمرين: المنّ بإطلاق سراحهم من غير مقابل. وإما الفداء بمال أو تبادل مع أسرى المسلمين. ولم يلتفتوا إلى أقوال الرسول الكريم وإلى فعله وإلى سيرة خلفائه من بعده وإلى النصوص الكريمة الأخرى أما هذا النص في سورة (محمد)[1] فقد قال المفسرون أقوالاً في توجيهه يقول الإمام القرطبي:

واختلف العلماء في تأويل هذه الآية على خمسة أقوال:

١ ـ أنها منسوخة في أهل الأوثان.

٢ ـ إنها في الكفار جميعاً وهي منسوخة.

٣ ـ إنها ناسخة.

٤ ـ لا يكون فداء ولا أسر إلا بعد الإثخان والقتل بالسيف.

٥ ـ إنها محكمة والإمام مخير في كل حال.

ورجح القرطبي القول الخامس حيث يقول:

وهو مذهب مالك والشافعي والثوري والأوزاعي وأبي عبيد وغيرهم. وهو الاختيار. لأن النبي ﷺ والخلفاء الراشدين فعلوا كل ذلك، قتل النبي ﷺ عقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث يوم بدر صبراً، وفادى سائر أسارى بدر، ومنّ على ثمامة بن أثال الحنفي وهو أسير في يده، وأخذ من سلمة بن الأكوع جارية ففدى بها أناساً من المسلمين، وهبط عليه ﷺ قوم من أهل مكة ـ أي في الحديبية ـ فأخذهم النبي ﷺ ومنّ عليهم، وقد منّ على سبي هوازن، وهذا كله ثابت في الصحيح، قال النحاس: وهذا على أن الآيتين محكمتان معمول بهما، وهو قول حسن، لأن النسخ إنما يكون لشيء قاطع فإذا أمكن

---

(١) سورة (محمد) تسمىٰ أيضاً سورة (القتال).

العمل بالآيتين فلا معنى للقول بالنسخ، إذ كان يجوز أن يقع التعبد إذا لقينا الذين كفروا قتلناهم، فإذا كان الأسر جاز القتل والاسترقاق والمفاداة والمنّ، على ما فيه الصلاح للمسلمين، وهذا القول يروى عن أهل المدينة والشافعي وأبي عبيد، وحكاه الطحاوي مذهباً عن أبي حنيفة[1].

إن أحكام الشريعة مصدرها الكتاب والسنة والإجماع والقياس وهي مصادر التشريع في الإسلام، وليست أهواء الناس ولا أنظمة التلمود أو الماسونية أو محافلها الدولية.

٤ ـ حملة التأديب ليهود خيبر:

بعد معاهدة الصلح مع قريش في الحديبية لم يبق مركز ثقل لأعداء الإسلام في جزيرة العرب يحسب لهم حساب سوى اليهود في خيبر، حيث انتقل إليها كثير من يهود بني النضير وبعض يهود بني قينقاع فاتخذوا منها وكراً لتأليب القبائل العربية من غطفان وغيرها.

فما أن عاد رسول الله ﷺ من الحديبية لم يمكث في المدينة سوى شهر وبعض الشهر حتى أمر بالتوجه إلى خيبر لكسر شوكة اليهود فيها وحاصر المسلمون حصونهم ليقطعوا المدد عنهم من حلفائهم من القبائل المجاورة. وما زالت حصون اليهود تتهاوى تحت ضربات جند الله وكلما فتح حصن انتقل اليهود إلى آخر، فلما لم يجدوا مفراً من الهزيمة فاوضوا على الصلح لإنقاذ حياتهم من المصير الذي آل إليه بنو قريظة.

فأرسل ابن أبي الحقيق إلى رسول الله ﷺ يطلب منه الصلح على حقن دماء من في حصونهم من المقاتلة وترك الذرية لهم ويخرجون من خيبر وأرضها بذراريهم ويخلون بين رسول الله ﷺ وبين ما كان لهم من مال وأرض وعلى الصفراء والبيضاء والكراع والحلقة إلا ثوباً على ظهر إنسان، فقال رسول الله ﷺ وبرئت منكم ذمة الله وذمة رسوله إن كتمتموني شيئاً فصالحوه على ذلك[2].

---

(١) انظر تفسير القرطبي المسمى (الجامع لأحكام القرآن) ١٦/٢٢٧، ٢٢٨.

(٢) انظر زاد المعاد لابن القيم ٤/١٣٦.

ولكن أنّى لليهود أن يصدقوا في عهودهم وأن يتخلوا عن المال والكنوز وهو معبودهم من دون الله. لذا فقد غيبوا مسكاً فيه مال وحلي لحيي بن أخطب كان احتمله معه إلى خيبر حين أجليت بنو النضير، فقال رسول الله ﷺ لعم حيي بن أخطب ما فعل مسك حيي الذي جاء به من النضير قال: أذهبته النفقات والحروب، فقال: العهد قريب والمال أكثر من ذلك فدفعه رسول الله ﷺ إلى الزبير فمسّه بعذاب فأقر بالمسك ودل على مكانه، فقتل رسول الله ﷺ ابني أبي الحقيق بالنكث الذي نكثوا من تغييب الأموال.

وأراد رسول الله ﷺ أن يجلي اليهود من خيبر، فقالوا: يا محمد دعنا نكون في هذه الأرض نصلحها ونقوم عليها فنحن أعلم بها منكم.

- ولم يكن للمسلمين أحد يقوم على الأراضي المفتوحة وقد أخذ الجهاد عليهم أوقاتهم - فأعطاهم خيبر على أن لهم الشطر من كل زرع وكل ثمر ما بدا لرسول الله ﷺ أن يقرهم.

فكانت أرض خيبر ملكاً للمسلمين قسمها رسول الله ﷺ بين الغانمين وزارع عليها اليهود، فلما دنا أجل رسول الله ﷺ أوصى أن لا يجتمع دينان في جزيرة العرب.

وفي عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه أجلاهم من خيبر لتطهر جزيرة العرب من شرورهم.

لقد انتهت المجابهة الفكرية المباشرة بين المسلمين وبين اليهود بانقطاع الوحي ووفاة رسول الله ﷺ. كما انتهت حملات التأديب لليهود بإجلائهم عن جزيرة العرب، لتبدأ مرحلة أخرى من إفساد اليهود في العالم الإسلامي بإثارة الفتن بين المسلمين ودس القضايا الفكرية الدخيلة والمذاهب السياسية الهدامة في المجتمع الإسلامي بغية تقويضه من الداخل، وقد كشف علماء المسلمين كثيراً من هذه المخططات والدسائس، ووصل اليهود إلى بغيتهم في أوقات كثيرة مما كلّف المسلمين دماء وخسائر مادية جسيمة وسنعرض في فصول قادمة - إن شاء الله تعالى - جوانب من هذا المكر وألواناً من هذه الفتن التي أثارها اليهود في المجتمعات الإسلامية، لنأخذ العبرة منها لتكون منارات نهتدي بها في مستقبل أيامنا.

الباب الثاني

المعالم القرآنية لسنن الله القدرية في اليهود

تمهيد في سنن الله تعالى القدرية:

لله في كونه ومخلوقاته سنن كونية وسنن اجتماعية، يجري الكون بموجبها حسب أوامر الله وإرادته وهي ثابتة تحفظ الثبات والدوام والانتظام في الكون.

وهذه السنن مبنية على أسباب تؤدي إلى نتائجها الحتمية، إلا إذا تدخلت الإرادة الإلهية فعطلت النتيجة لتكون خارقة للعادة ـ للسنة القدرية ـ.

ـ إن سنة إحراق النار للأجسام القابلة للاحتراق سنة كونية لم تتخلف إلا عندما كان الأمر الإلهي لها بترك هذه السنة ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأنبياء: ٦٨ ـ ٧٠].

فتعطلت السنة الكونية لتكون معجزة لأبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام.

ـ وسيلان الماء من المكان المرتفع إلى المكان المنخفض سنة كونية ولكن الماء وقف حائطاً هائلاً ليفتح الطريق اليبس لكليم الله موسى عليه السلام ومن معه من المؤمنين من بني إسرائيل ليسلكوا فيه سبيل النجاة من طغيان فرعون ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا

ٱلْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الشعراء: ٦٣ ـ ٦٨].

ومثل تلك السنن الكونية المادية في الطبيعة سنن الله في المجتمعات والأمم والحضارات وهي سنن قدرية لا تتخلف.

ـ فمن هذه السنن القدرية قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ ﴾ [الإسراء: ١٦، ١٧].

إن أهل العلم بسنن الله الكونية والقدرية يرون أن هذه السنة حتمية كحتمية إحراق النار وسيلان الماء.

إن الأمة التي ينغمس قادتها في حمأة الشهوات ومستنقع الرذيلة ويسخرون طاقات الأمة للنزوات الشخصية وتمجيد الذات ولا يوجد في الأمة من يقف أمام سعارهم البهيمي، إنها أمة كتبت مصيرها بيدها، ووقعت على نفسها بالدمار فجاءها القضاء المبرم والقدر المحتوم فدمرت تدميراً، وفي الحضارات القديمة والحديثة من لدن نوح عليه السلام إلى اليونان والرومان وحتى في تاريخ المسلمين إلى عصرنا الحاضر شواهد حق وصدق على اطراد هذه السنة القدرية في العالم.

ـ ومن هذه السنن المطردة ما جاء في قوله تعالى:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنفال: ٥٣].

«إن الله لا يغير ما بقوم من عزة وسلطان ورفاهية وخفض عيش وأمن وراحة حتى يغير أولئك ما بأنفسهم من نور العقل وصحة الفكر وإشراق البصيرة والاعتبار بأفعال الله في الأمم السابقة، والتدبر في أحوال الذين جاروا عن صراط الله فهلكوا وحل بهم الدمار...

حادوا عن الاستقامة في الرأي، والصدق في القول، والسلامة في الصدر، والعفة عن الشهوات، والحمية على الحق، والقيام بنصره، والتعاون

على حمايته، خذلوا العدل فلم يجمعوا هممهم على إعلاء كلمته واتبعوا الأهواء الباطلة وانكبوا على الشهوات الفانية، وأتوا عظائم المنكرات، خارت عزائمهم، فشحوا ببذل مهجهم في حفظ السنن العادلة واختاروا الحياة في الباطل على الموت في نصرة الحق، فأخذهم الله بذنوبهم وجعلهم عبرة للمعتبرين.

هكذا جعل الله بقاء الأمم ونماءها في التحلي بالفضائل، وجعل هلاكها ودمارها في التخلي عنها. سنة ثابتة لا تختلف باختلاف الأمم، ولا تتبدل بتبدل الأجيال كسنته تعالى في الخلق والإيجاد وتقدير الأرزاق وتحديد الآجال[1].

إن سنن الله المادية ثابتة لا تتخلف إلا بخرق العادة، ويدركها كل العقلاء وسنن الله القدرية في المجتمعات ثابتة لا تتخلف إلا بخرق العادة، ويدركها أهل البصيرة من العقلاء.

والسنة لا تصبح سنة مطردة إلا إذا اعتمدت على أسباب موضوعية غير مقيدة بزمان محدد أو حالات شاذة أو قيود وشروط طارئة، وقد أورد القرآن الكريم جملة من السنن القدرية الخاصة باليهود وهي سنن قررها الله سبحانه وتعالى فيهم، وليست من اجتهاد المجتهدين ولا آراء الفلاسفة والمصلحين، بل هي سنن من الذي خلق اليهود وأرسل فيهم رسله وأنزل عليهم شرائعه، فكانت لليهود مواقف وكان لليهود طريقتهم الخاصة في التعامل مع أنبيائهم، وفي أخذهم بشرائعهم، وفي علاقاتهم مع الشعوب التي اختلطوا بها. فكان لهم منهج في الحياة تربوا عليه وربوا أجيالهم ولا يزالون على هذه المناهج فشكلت لديهم طباعاً ونفوساً وعادات محكّمة تتحكم في أساليب حياتهم وبالتالي كانت سنناً ثابتة في أجيالهم، لذا نجد القرآن الكريم يخاطب معاصري رسول الله ﷺ ويحملهم جرائر آبائهم وأجدادهم، وما ذاك إلا لأنهم يرون ما كان يراه الأباء

---

(١) انظر تفسير المنار ١٠/٤٣، وهي مقتطفات من مقالة للشيخ محمد عبده نشرت في العروة الوثقى العدد ١٧ في ٦/١٢/١٣٠١هـ الموافق ٢٥/٩/١٨٨٤م.

والأجداد من كتمان الحق والتحريف لشرائع التوراة واستباحة قتل الأنبياء وإباحة أكل أموال الناس بالباطل.

وفيما يلي نذكر جملة من هذه السنن القدرية في اليهود مع التمهيد لها أو التعقيب عليها أو التحليل لمضامينها.

سنن الله القدرية في بني إسرائيل

من خلال العرض القرآني لتاريخ بني إسرائيل ومواقفهم من أنبيائهم وعلاقاتهم بغيرهم من الأمم والشعوب، ومن خلال تعاملهم مع أحكام شرائعهم وتربية الأجيال على نهج محدد. من خلال كل ذلك نتعرف على جوانب من سنن الله الثابتة في بني إسرائيل التي أوردها القرآن الكريم وتكشف عن طبائع وأخلاق وعادات تتوارثها الأجيال من اليهود مهما تباينت بهم الأوطان وتطاولت عليهم الأزمان.

ومعرفة هذه السنن التي أخبر بها العليم الخبير لها أهميتها من جوانب متعددة:

١ ـ إنها دين ندين الله سبحانه وتعالى به وأي انصراف عنه أو تبديل أو تحريف لهذه النصوص المحكمة إلحاد في دين الله وتعطيل لهدايات القرآن.

٢ ـ إنها تكشف حقائق القوم وعناصر تكوين شخصيتهم فتنير لنا سبل التعامل معهم، ويقطع دابر الزيف والتمويه الذي يتظاهرون به ويدخلون به على الأمم والشعوب في العقائد والسلوك والعادات وغيرها.

٣ ـ إنها تعطي للمؤمنين ثروة ثقافية ووعياً سياسياً وحنكة اقتصادية بحيث تحفظ للمؤمن كيانه المتميز، ولأمته سيادتها واستقلالها، وللدولة الإسلامية مجدها وهيبتها.

ليبقى المجتمع الإسلامي المجتمع الرباني الذي يرفع راية الدعوة إلى الله وإقامة شرع الله في ربوع الأرض على نور وبصيرة بمنأى عن مخططات المفسدين في الأرض، وسنجعل من كل سنةٍ معلماً يحدد لنا صراطاً مستقيماً ونهجاً وشرعة لا نحيد عنها.

المَعْلَم الأول

التزوير المتعمد للكتاب المنزل وتغيير حقائق الدين:

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٩].

لقد اختلق أحبار اليهود كتاباً من عند أنفسهم كتبوه بأيديهم ووضعوا فيه كل سمومهم ودونوا فيه أحلامهم وأمانيهم، ثم نسبوه إلى الله تعالى وأضفوا عليه من القدسية أكثر مما أضفوه على التوراة المنزلة على موسى عليه السلام إنه كتاب التلمود الذي كتبوه أيام الشتات وكان التلمود الفلسطيني والتلمود البابلي اللذين يختلفان اختلافات كثيرة ولكنهما يجتمعان على الخطوط العريضة في تمجيد الشعب المختار وتسخير الأميين لخدمتهم وأكل أموال الناس بأي طريق لإعادتها إلى ملك الشعب المختار[1].

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا التزوير والافتراء بقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [البقرة: ٧٨، ٧٩].

وتارة يلبّسون على الناس أمر الكتاب بليّ اللسان عند القراءة ليوهموا

---

(١) جاء في الكنز المرصود في قواعد التلمود: إن تعاليم الحاخامات لا يمكن نقضها ولا تغيرها ولو بأمر الله، ص٥٣.
وانظر معركة الوجود بين القرآن والتلمود، عبد الستار فتح الله سعيد ص١٣١.
وفي التلمود: إذا خالف أحد اليهود أقوال الحاخامات يعاقب أشد العقاب، لأن الذي يخالف شريعة موسى خطيئته مغفورة، أما من يخالف التلمود فيعاقب بالقتل، نقلاً عن الكنز المرصود ١١١.

الناس بأنهم يقرأون في كتابهم المنزل عليهم: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [آل عمران: ٧٨].

إنه الافتراء المتعمد ولم يأت ذلك نتيجة التباس أمر على هؤلاء الأحبار ولا نتيجة فهم خاطئ لنص من نصوص كتابهم، وإنما هو التزوير والافتراء عن علم وعن قصد، وهذا ما تشعرنا بها الآية الكريمة ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ إن الربيين الذين وضعوا التلمود في الشتات ليحافظوا على ذوبان اليهود في المجتمعات الأخرى رأوا أن إعطاء اليهود جرعات من الآمال والأحلام والاعتزاز والفخر والتعالي على تلك الشعوب الوثنية يحفظ عليهم كيانهم ورأو أن توجيهاتهم لا تؤخذ مأخذ الجد ما لم يضعوا عليها طابع التقديس بل قدّسوها أكثر من التوراة وربوا الأجيال عليها ولا زال التلمود هو الكتاب الذي يصنع شخصية اليهودي الخاصة في كل عصر وكل جيل[1].

---

(١) يقول برنارد لارار: لكن اليهودي حافظ دينياً على فكرة الاستعلاء والتفوق هذه واستمر في النظر بأنفة واحتقار إلى جميع الذين كانوا غرباء عن شريعته، أما الذي علّمه أن يكون كذلك فهو كتاب التلمود المليء بعصبية ضيقة وضارية لقد اتهم الكتاب بأنه ضد المجتمع، وهذ التهمة تنطوي على شيء من الحقيقة.
ويقول المؤرخ اليهودي الألماني رهاينريخ غريتيس عن التلمود البابلي: (بكلمة واحدة فإن التلمود هو مربي الأمة اليهودية ومعلمها).
انظر مقدمة كنوز التلمود ص٨ ترجمة محمد خليفة التونس.
قال الرابي مناحم: أيها اليهود، إنكم من بني البشر لأن أرواحكم مصدرها روح الله، وأما باقي الأمم فليست كذلك، لأن أرواحهم مصدرها الروح النجسة، الكنز المرصود في قواعد التلمود ص٧٥.
ويقول الحاخام ـ أباربانيل:
(المرأة غير اليهودية هي من الحيوانات وخلق الله الأجنبي على هيئة الإنسان ليكون لائقاً لخدمة اليهود الذي خلقت الدنيا لأجلهم، لأنه لا يناسب لأمير أن يخدمه ليلاً ونهاراً حيوان وهو على صورته الحيوانية، كلا ثم كلا، فإن ذلك منابذ للذوق والإنسانية كل المنابذة، فإذا مات خادم اليهودي أو خادمته، وكان من المسيحيين، فلا يلزم أن تقوم له التعازي بصفة كونه فقد إنساناً، ولكن بصفة كونه فقد حيواناً من الحيوانات المسخرة له) الكنز المرصود ص٧٥.

المَعْلَم الثاني

الموبقات والانحراف الخلقي

دين يتقربون به إلى الله في زعمهم

﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٥].

إن في جميع الأمم والشعوب من يسرق ويزني ويخون الأمانة ويتعامل بالربا.

ولكن كل من يرتكب ذلك يقر على نفسه بالانحراف وأنه يرتكب ذنباً ومعصية، والمجتمع ينظر إليه كذلك. ولا يوجد في الأمم من يزعم أنه يتقرب إلى الله بهذه الانحرافات سوى اليهود.

وهذا ما أشارت إليه الآيات الكريمة حيث يقول جل شأنه: ﴿۞ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ[(١)] وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ [آل عمران: ٧٥ ـ ٧٧].

---

(١) عن ميمون بن مهران قال: ثلاثة المسلم والكافر فيهن سواء من عاهدته فوفّ بعهده مسلماً كان أو كافراً فإنما العهد لله ومن كانت بينك وبينه رحم فصلها مسلماً كان أو كافراً، ومن ائتمنك على أمانة فأدها إليه مسلماً كان أو كافراً.

١ ـ أكل المال الحرام ومسارعتهم فيه:

انطلاقاً من عقيدة اليهود أنهم البشر وأن الدنيا خلقت من أجلهم، وأن الأمم الأخرى ما خلقت إلا لخدمة اليهود، فإن المال لليهود وحدهم، وإذا وجد في أيدي غيرهم فإنما قد غصبوه من اليهود، وتلمودهم مليء بمثل ذلك وأحبارهم يضربون الأمثلة للتفنن في الحصول على المال وإعادته إلى حوزة اليهود واستخلاصه من يد الأميين، فقد جاءت نصوص كثيرة تنص على ذلك منها:

يقول الرابي (البو): «سلط الله اليهود على أموال باقي الأمم ودمائهم»[١].

ويقول الرابي (عشي): «إني نظرت كرماً حاملاً عنباً فأمرت خادمي أن يستحضر لي منه، إذا ظهر أنه تعلق (ملك) أجنبي، وأن لا يمسه إذا ظهر أنه تعلق يهودي»[٢].

ويمتدحون فعل الرابي صموئيل ـ أحد حاخاماتهم ـ عندما اشترى آنية من الذهب من أجنبي كان يظنها الأجنبي نحاساً ودفع ثمنها أربعة دراهم فقط وهو ثمن بخس وسرق أيضاً درهماً من البائع.

وفعل الرابي كهانا، عندما اشترى مائة وعشرين برميلاً من النبيذ ولم يدفع للأجنبي إلا ثمن مائة برميل فقط.

ولا يجوز لليهودي في شريعته أن يرد مالاً مفقوداً لأمي فقد جاء في التلمود: (إن الله لا يغفر ذنباً ليهودي يرد للأمي ماله المفقود)[٣].

والتعامل بالربا عند اليهود طريقة مشروعة للسيطرة على أموال الأميين.

يقول الرابي مؤاب: (عندما يحتاج النصراني إلى دراهم فعلى اليهودي أن يستولي عليها من كل جهة ويضيف الربا الفاحش إلى الربا الفاحش حتى يرهقه

---

(١) انظر الكنز المرصود ص٧٢.

(٢) المرجع السابق ص٧٣.

(٣) المرجع السابق ص٧٥.

ويعجز عن إيفائه ما لم يتخل عن أملاكه أو حتى يضاهي المال مع فائدته أملاك المسيحي وعندئذ يقوم اليهودي على مدينه وبمعاونة المحاكم يستولي على أملاكه)[1].

وإذا ضاعت وثيقة لأمي فيها إثبات حقه على يهودي، فلا يجوز حسب تعاليم التلمود أن يعيدها اليهودي الذي رآها إلى الأمي لإثبات الحق. يقول الرابي جريكام: «إذا فقد أجنبي سنداً محرراً على يهودي بدين ما، ووجده يهودي فيمتنع رده إليه لأن الدين يسقط بوجود السند تحت يد يهودي، وإذا قال من وجده إني أرده لصاحبه احتراماً لاسم الله وتأدية للحق فيلزم الرد عليه بما يأتي وهو: إذا أردت أن تحترم اسم الله فادفع الدين من مالك»[2].

هذه بعض أقوال أحبارهم وربييهم في شروحهم على التوراة، فهل بقيت وسيلة من الوسائل للحصول على المال السحت إلا ونصوا عليها؟!

وهل يستغرب أن ينص القرآن الكريم على هذه الطبيعة الراسخة في المتقدمين منهم والمتأخرين عندما يصمهم بهذه السمة:

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [التوبة: ٣٤، ٣٥].

وإذا كان هذا دين الكبراء منهم فلا عجب أن نراهم يتركون الأتباع يرتعون في المال الحرام ولا ينهونهم عن أكله يقول تعالى في حقهم:

﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [المائدة: ٦٢، ٦٣].

---

(١) أخلاق اليهود ص٤١.

(٢) همجية التعاليم اليهودية ص١٥٦، ١٥٧.

ونتيجة هذه التعاليم المضللة التي حشوا بها أذهان اليهود - والإثم الأكبر، لا شك على القادة الموجهين الربيين الذين بيدهم دفة القيادة والتوجيه - ونتيجة لتلك التعاليم وجدت هذه النفسية المطوية على الشر والكذب والخداع والمبالغة في أكل الحرام والحرص عليه:

يقول تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾[1] [المائدة: ٤١، ٤٢].

ولهذه الصفات الراسخة في نفسية اليهودي، تجده منبوذاً من المجتمعات الإنسانية جميعاً، رمز الجشع والاستغلال والنذالة ويضحي بكل القيم في سبيل الحصول على المال، فالعرض والأخلاق والدين والمروءة كل ذلك يضحي به في سبيل الحصول على المنافع المادية.

لأجل هذه المفاهيم التي اختلقها اليهود والتزموا بها، عاملهم الله سبحانه وتعالى بتلك الشدة والقيود والإصر والأغلال ليربي تلك النفوس المنحرفة ويلين من قسوة تلك القلوب المتحجرة.

يقول الله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾﴾ [النساء: ١٦٠، ١٦١].

وإذا حصل اليهودي على المال طغى وتجبر وجعله وسيلة للإفساد والتدمير بل والاستعلاء على الذات الإلهية، ويظنون أن من أوتي المال فقد

---

(١) لم تستخدم كلمة السحت في القرآن الكريم إلا في حق اليهود، ومعنى السحت: المال الحرام الذي يذهب بدين المرء ومروءته، وفي الكلمة إشارة إلى الأساليب الدنيئة التي يتبعها اليهود للحصول على هذا الحرام فليس كل حرام سحتاً، انظر هذا المعنى في عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ للسمين الحلبي ص٢٣٣.

أوتي السيادة والعزة والسعادة يقول الله سبحانه وتعالى عنهم:

﴿لَقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾ [آل عمران: ١٨١، ١٨٢].

عقيدة اليهود في الأنبياء عليهم الصلاة والسلام:

إن الأنبياء والمرسلين هم صفوة خلق الله الذين اصطفاهم لحمل رسالته إلى الناس وهم الأنموذج العملي لتطبيق شرائع الله وحمل دعوته، حيث يتمثلون الدعوة وأحكامها في سيرتهم الشخصية، لذا فالشرائع والأحكام تستمد من أقوالهم وأفعالهم وتقريراتهم. من هنا كانت لهم العصمة في حياتهم فلا تسلط عليهم الشياطين ولا يستطيع أحد من البشر أن يخدعهم أو يلبّس عليهم أمور الدنيا فهم في الذروة من الكمالات البشرية من الذكاء والفطنة والأمانة والصدق والشجاعة والكرم والنبل والمروءة وسائر الصفات الرفيعة.

﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾﴾ [الحج: ٧٥، ٧٦].

والرسالة والنبوة هبة من الله تعالى لا تكتسب بالرياضات الروحية أو الجهد البشري ولكن الله يعطيها لمن تكون لديه الأهلية لحملها.

لذا لما تطلّع بعض القوم لأن تأتيهم الرسالة أو تصيبهم، رد الله سبحانه وتعالى عليهم هذه الأوهام والآمال، يقول تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ [الأنعام: ١٢٤].

هذا واقع أنبياء الله وأصفيائه من خلقه وهذا ما نعتقده في حقهم، ولكن الأمر مختلف عند اليهود في حق الأنبياء.

فالتوراة المحرفة تصورهم عصابة من الأشرار يرتكبون الموبقات ويحرصون على الشهوات، يشربون الخمور ويزنون بالقريبات والبعيدات والمحرمات يكذبون ويخادعون، ويقتلون ويسفكون الدم الحرام، ويسرقون

ويستولون على الأموال يزني أحدهم بابنته وحليلة ابنه، ويتآمر على أتباعه ليستولي على زوجته.

فهل تتصور هذه الأعمال في حق أفسق الناس وأشرارهم؟ هكذا تصور كتب اليهود المقدسة الأنبياء والمرسلين الذي يتبعونهم وهذا لون من ألوان ترويج الإفساد في الأرض ونشر الرذيلة، لأن الذي يقرأ مثل ذلك عن الأنبياء ويقول في نفسه فما الحرج عليّ إن أنا عملت مثل عملهم ووقعت في مثل ما وقعوا فيه، فإذا كان الأنبياء هكذا فكيف نحن البشر. وكثرة الحديث عن أمر ما يجعل وقعه خفيفاً على النفوس لا تشمئز من ذكره وفيما يلي نقولات عن بعض كتب اليهود في حق الأنبياء:

أ ـ فعن لوط عليه السلام وابنتيه تقول التوراة: «وصعد لوط من صوغر وسكن في الجبل وابنتاه معه لأنه خاف أن يسكن في صوغر فسكن في المغارة هو وابنتاه وقالت البكر للصغيرة أبونا قد شاخ وليس في الأرض رجل ليدخل علينا كعادة كل الأرض هلم نسقي أبانا خمراً أو نضطجع معه فنحيي من أبينا نسلاً فسقتا أباهما خمراً في تلك الليلة ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها وحدث في الغد أن قالت البكر للصغيرة إني قد اضطجعت البارحة مع أبي. نسقيه خمراً الليلة أيضاً وقامت الصغيرة واضطجعت معه ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها فحبلت ابنتا لوط من أبيهما فولدت البكر ابناً ودعت اسمه موآب، وهو أبو الموآبيين إلى اليوم. والصغيرة ولدت ابناً أيضاً ودعت اسمه بني عمي وهو أبو بني عمون إلى اليوم»[(١)].

وتصوّرْ عائلة أحد الأنبياء بمثل هذا التفكير وهذه التربية، ولوط عليه السلام باعترافهم أحد الأنبياء، فكيف تكون أسر غيرهم في عقلية اليهود.

أما آل لوط فصورتهم مشرقة في القرآن الكريم وهو الحق اللائق بمقام أنبياء الله وأصفيائه:

---

(١) سفر التكوين، الإصحاح ١٩ ص٢٩.
والذي دفع أحبار اليهود إلى اختراع هذه الفرية، تحقير نسل المؤابيين، وبني عمون الذين كانوا ينازعون الإسرائيليين الأرض والديار.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝٥٤ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ۝٥٥ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ۝٥٦ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ۝٥٧ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ۝٥٨﴾ [النمل: ٥٤ ـ ٥٨].

ب ـ ويسرد اليهود قصة داود مع أوريا في توراتهم المحرفة كما يلي:

«وكان في وقت المساء أن داود قام عن سريره وتمشى على بيت الملك فرأى من على السطح امرأة تستحم وكانت المرأة جميلة المنظر جداً، فأرسل داود وسأل عن المرأة فقال واحد أليست هذه بتشبع بنت أليعام إمرأة أوريا الحثي، فأرسل داود رسلاً وأخذها فدخلت إليه فاضطجع معها وهي مطهرة من طمثها ثم رجعت إلى بيتها وحبلت المرأة فأرسلت وأخبرت داود وقالت: إني حبلى فأرسل داود إلى يوآب يقول أرسل إليّ أوريا الحثي فأرسل يوآب أوريا إلى داود فأتى أوريا إليه فسأل داود عن سلامة يوآب وسلامة الشعب ونجاح الحرب وقال داود لأوريا أنزل إلى بيتك واغسل رجليك فخرج أوريا من بيت الملك وخرجت وراءه حصة من عند الملك ونام أوريا على باب بيت الملك مع جميع عبيد سيده ولم ينزل إلى بيته فأخبروا داود قائلين لم ينزل أوريا إلى بيته فقال داود لأوريا أما جئت من السفر فلماذا لم تنزل إلى بيتك.. وفي الصباح كتب داود مكتوباً إلى يوآب وأرسله بيد أوريا وكتب في المكتوب يقول اجعلوا أوريا في وجه الحرب الشديدة وارجعوا من ورائه فيُضرب ويموت.. فخرج رجال المدينة وحاربوا يوآب فسقط بعض الشعب من عبيد داود ومات أوريا الحثي أيضاً..

فلما سمعت امرأة أوريا أنه قد مات أوريا رجلها ندبت بعلها ولما مضت المناحة أرسل داود وضمها إلى بيته وصارت له امرأة وولدت له ابناً، وأما الأمر الذي فعله داود فقبح في عيني الرب»[1].

---

(١) سفر صموئيل الثالي الإصحاح ١١ ص٤٩٨.

هذه أفعال داود في ذهن اليهود وتوراتهم المحرفة، أما القرآن الكريم فقد أثنى على نبي الله داود عليه الصلاة والسلام: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾﴾ [النمل: ١٥].

ويقول الله سبحانه وتعالى فيه ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الأنبياء: ٧٨ ـ ٨٠].

والقضية التي وردت في سورة (ص) حول داود وتسور المحراب عليه من قبل الخصمين عرضها القرآن الكريم، وعلى الرغم من أن ظاهرها كانت في قضية خصومة على النعاج فقد كانت مزلقة قدم لبعض المفسرين المسلمين بسبب اطلاعهم على روايات بني إسرائيل وتلفيقاتهم حول أوريا وزوجته، وظاهر الآيات لا يدل على شيء من ذلك، وسبب استغفار داود عليه السلام وإنابته إنما كان بسبب احتجابه عن الرعية لعبادة ربه، وسماع أحد الخصمين والقضاء له قبل سماع الخصم الآخر، وبعد الحادثة جاء الثناء العطر على داود عليه السلام ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾ [ص: ٢٦].

ج ـ ويعتقد اليهود أن نبيهم هارون هو الذي صنع العجل لبني إسرائيل:

تقول التوراة المحرفة: «ولما رأى الشعب أن موسى أبطأ في النزول من الجبل اجتمع الشعب على هارون وقالوا له: قم اصنع لنا آلهة تسير أمامنا لأن هذا موسى الرجل الذي أصعدنا من أرض مصر لا نعلم ماذا أصابه، فقال لهم هارون انزعوا أقراط الذهب التي في آذان نسائكم وبنيكم وبناتكم وآتوني بها، نزع كل الشعب أقراط الذهب التي في آذانهم وأتوا بها إلى هارون فأخذ ذلك من أيديهم وصوره بالإزميل وصنعه عجلاً مسبوكاً فقالوا هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر، فلما نظر هارون بنى مذبحاً أمامه ونادى هارون

وقال غداً عيد للرب فبكروا في الغد وأصعدوا محرقات وقدموا ذبائح سلامة وجلس الشعب للأكل والشرب ثم قاموا للعب» سفر الخروج الإصحاح ٣٢ ص ١٣٩، ١٤٠.

حاشا لله ولرسله أن يعبدوا مع الله أحداً وهم دعاة التوحيد، الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر. ولقد كان موقف هارون عليه السلام مثل موقف موسى عليه السلام من عبدة العجل ولكنه لم يقاتل بمن معه من الموحدين عبدة العجل خشية أن يغضب عليه موسى ويقول فرقت بين بني إسرائيل فانتظره حتى يحضر وهذه شهادة ربه له بهذا الموقف يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾﴾ [طه: ٩٠ ـ ٩٤].

من خلال النقول السابقة من التوراة المحرفة ومن التلمود المزوّر نجد أن الانحراف والظلم والفساد الخلقي وأكل المال السحت كل ذلك دين يدين به اليهود لأنها من جملة عقائدهم في أنبيائهم. لذا فهم يربّون الأجيال على هذه المفاهيم ويجعلونها جزءاً لا يتجزأ من شخصيتهم.

المَعْلَم الثالث

نقض العهود والمواثيق من جبلتهم

﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ﴾ [الأنفال: ٥٦] ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهۡدٗا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [البقرة: ١٠٠].

ينظر اليهود إلى العهود والمواثيق التي يوقعونها مع غيرهم إنها توقع للضرورة ولغرض مرحلي ولمقتضيات مصلحة آنية، فإذا استنفذ الغرض المرحلي، نقض اليهود الميثاق من غير استشعار بأي اعتبار خلقي أو التزام أدبي، فاللجوء إلى العهود والمواثيق ما هو إلا حالة اضطرارية إن لم يستطع اليهود تجاوزها بالحيلة والخداع والتزوير، أو خشوا البطش بهم أو القضاء على مصالحهم المادية.

ولكن عندما تتوافر الظروف المناسبة، وتزول الحالة الطارئة التي اقتضت التوقيع على الميثاق، فلا بد من إزالة هذا القيد الذي هو يقيد تصرفاتهم أو يحد من حركتهم للوصول إلى هدفهم الذي يسعون إليه.

ويشير القرآن الكريم إلى هذه الطبيعة الماكرة في اليهود في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثۡقَفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡحَرۡبِ فَشَرِّدۡ بِهِم مَّنۡ خَلۡفَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةٗ فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنفال: ٥٦، ٥٨].

إن العلاج الناجع لمثل هؤلاء القوم الذين اعتادوا نقض العهود المرة تلو المرة ينبذ إليهم عهدهم وأن لا يدخل معهم في ميثاق، وإنما تعد لهم القوة التي ترهبهم فهؤلاء لا يستقيمون على شرعة إلا إذا كانت القوة تهددهم، فلا

ينبغي أن يكون العهد ملتزماً به من جانب واحد فيصبح له قيداً يثقل كاهله بينما الطرف الآخر لا يتقيد به وينتهز الفرص. ولكن الفرق بين المؤمنين وغيرهم، أن المؤمن يُعلم عدوه بنبذ العهد جهاراً لقاء عدم التزام العدو به فيكون في حل منه، أما العدو فيخاتل وينقضه سراً من غير أن يجرؤ على البوح بمقصده.

وهذا ما فعله رسول الله ﷺ مع يهود بني قينقاع فقال: «**إني أخاف من بني قينقاع فنبذ إليهم عهدهم وكان من الأمر ما كان**»[1].

وسياسة اليهود في نقض العهود أن ينبذه فريق منهم ويبقى فريق محافظاً على العهد وذلك تجنباً للاستئصال، فإن لقي الناقضون للعهد جزاء رادعاً، لم يقدم الآخرون على ذلك، أما إن سلموا من العقوبة والتأديب لحق بهم الآخرون في النقض والتفلت من الميثاق.

وهذه السياسة أشار إليها القرآن الكريم في معرض الحديث عن اليهود ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [البقرة: ١٠٠] أكثرهم لا يؤمنون بالعهد ومضمونه وإنما يلتزمون به ظاهراً ويعملون على تعطيله وإلغائه باطناً. وتأتي بعد هذه الآية ما يشعر بأنهم قد تحرروا من أكبر عهد وميثاق أخذه الله عليهم ولم يلقوا له بالاً فما بالك بالعهود التي يقطعونها على أنفسهم مع البشر. حيث يقول جل شأنه: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [البقرة: ١٠١].

لقد كان ضمن ما نزل عليهم في التوراة أنهم إن أدركوا زمان آخر الأنبياء أن يؤمنوا به ويتبعوه وينصروه، وأغلظ الميثاق عليهم في ذلك كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [آل عمران: ٨١، ٨٢].

---

(١) انظر ما تقدم ص١٠٦.

إن من يلقي بعهد الله وراء ظهره، فكيف يظن به أن يحافظ على المواثيق مع البشر بل إنهم يطبقون ما نصت عليه توراتهم المحرفة[1].

هذا كان موقفهم مع رسول الله ﷺ، غدر يهود بني قينقاع بعد غزوة بدر وساءهم انتصار المسلمين على المشركين.

وغدرت بنو النضير بعد غزوة أحد وتجرأوا على المسلمين بعد أن أصابهم ما أصابهم في أحد.

وغدرت بنو قريظة يوم الأحزاب وتمالؤا مع المشركين على طعن المسلمين من الخلف، فكان من أمرهم أن منهم من أجلي ومنهم من أسر ومنهم من قتل جزاءاً وفاقاً لغدرهم وخياناتهم.

واليوم يعيد التاريخ نفسه، كم هدنة وقعت مع اليهود، فكانت كل هدنة تمهد لحرب لاحقة وتضم إلى أراضي إسرائيل أرض جديدة.

واليوم يقدم العرب على تجربة جديدة مع اليهود للتنازل لهم عن فلسطين فهل يرضى اليهود بذلك أم تكون خطوة مرحلية للانقضاض مرة أخرى لتحقيق حلم دولة إسرائيل الكبرى.

إننا على يقين تام أن هذا الأمر لن يطول، وأن التوسع سيعود من جديد لأن الهدف النهائي لم يتحقق بعد وسيطرة اليهود على العالم لم تتم بشكل ظاهر ولم يتوج ملكهم على العالم.

ولنا وقفات مع سياسة اليهود الحاضرة وفي المستقبل في الجزء اللاحق من هذا الكتاب بإذن الله إن كان في العمر فسحة.

---

(١) جاء في التوراة (فلا تقطعوا عهداً مع سكان هذه الأرض) انظر سفر القضاة ٢/٢.

وينص التلمود. (على اليهودي أن يؤدي عشرين يميناً كاذبة، ولا يعرض أحد إخوانه اليهود لضرر ما)، انظر الكنز المرصود ص٩٥ نقلاً عن صراعنا مع اليهود في ضوء السياسة الشرعية/ ١٠٢.

المَعْلَم الرابع

القوة المرهبة تحملهم على الالتزام بالشرائع والعهود والمواثيق

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا ۖ قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [البقرة: ٩٣].

﴿۞ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [الأعراف: ١٧١].

﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الأنفال: ٦٠].

الشخصية اليهودية شخصية متلونة لا تعرف الأخذ الجاد بالأحكام التي تحد من شهواتها وتخالف أهواءها، وتحاول التملص من قيود التشريعات لتطلق لهوى النفس العنان فتفسد في الأرض وتدمّر وتحاول التحايل بأي وسيلة لتعطيل الشرائع وتفريغها من محتواها التربوي الذي يحمل النفس على الاستقامة.

كان هذا موقفهم من شرائع التوراة وموقفهم مع نبي الله موسى عليه السلام.

فلما جاءهم موسى عليه السلام بألواح التوراة ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [الأعراف: ١٤٥].

حاولت بنو إسرائيل التخلص من هذه الشرائع واستصعبوا الأمر قال ابن عباس... أمرهم موسى بالذي أمر الله أن يبلغهم من الوظائف فثقلت عليهم وأبوا أن يقروا بها حتى نتق الله الجبل فوقهم كأنه ظلة قال رفعته الملائكة فوق رؤوسهم[١].

وفي رواية قال موسى هذا كتاب أتقبلونه بما فيه فإن فيه بيان ما أحل لكم وما حرم عليكم وما أمركم وما نهاكم؟ قالوا انشر علينا ما فيها فإن كانت فرائضها وحدودها يسيرة قبلناها: قال: اقبلوها بما فيها قالوا: لا، حتى نعلم ما فيها، كيف حدودها وفرائضها فراجعوه مراراً فأوحى الله إلى الجبل فانقلع فارتفع في السماء حتى إذا كان بين رؤوسهم وبين السماء قال لهم موسى: ألا ترون ما يقول ربي عز وجل لئن لم تقبلوا التوراة بما فيها لأرمينكم بهذا الجبل، فلما نظروا إلى الجبل خر كل رجل ساجداً على حاجبه الأيسر ونظر بعينه اليمنى إلى الجبل فرقاً من أن يسقط عليه.

وهي سجدة اليهود إلى اليوم يقولون هذه السجدة التي رفعت بها العقوبة[٢].

وعندما وجدوا القتيل في حي من أحيائهم وتخاصموا وأرادوا التعرف على قاتله لجأوا إلى موسى عليه السلام ليحكم بينهم فقال موسى: ﴿.. إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٦٧ قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا فَارِضٞ وَلَا بِكۡرٌ عَوَانُۢ بَيۡنَ ذَٰلِكَۖ فَٱفۡعَلُواْ مَا تُؤۡمَرُونَ ٦٨ قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوۡنُهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ صَفۡرَآءُ فَاقِعٞ لَّوۡنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ٦٩ قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ ٧٠ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا ذَلُولٞ تُثِيرُ ٱلۡأَرۡضَ وَلَا تَسۡقِي ٱلۡحَرۡثَ مُسَلَّمَةٞ لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ قَالُواْ ٱلۡـَٰٔنَ جِئۡتَ بِٱلۡحَقِّۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ [البقرة: ٦٧ ـ ٧١].

إن المماطلة والتردد وسوء الأدب تنبعث من أقوالهم، وهم يخاطبون

---

(١) انظر ذلك في تفسير ابن جرير الطبري ٩/ ٧٥.

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٢/ ٢٦٠.

أعظم أنبيائهم الذي يعتقدون برسالته وبالوحي الذي يأتيه من الله، يقولون له ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ وهو في منصب الحكم والقضاء والفصل بين الخصومات، لقد ظنوا أنه يستهزئ بهم لما رأوا أن طلبه لا ينسجم مع عقولهم الكليلة التي لا تؤمن بالغيبيات والخوارق، ولم يجدوا مناسبة مادية بين ذبح البقرة والتعرف على القاتل.

وانظر إلى قولهم لموسى عليه السلام: ﴿ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾ وهل كان ما يقوله قبل ذلك من ذكر الأمر والمواصفات غير الحق؟!

إنها النفسية اليهودية المتعجرفة، والشخصية الملتوية.

ولعله من اللطائف القرآنية الدقيقة أن يأتي الأمر بإعداد القوة لإدخال الرعب والرهبة إلى قلوب أعداء الله في سياق الحديث عن المعاهدات ونقض اليهود لها في كل مرة، فإن المعاهدة ليست سوى حبر على ورق لا أثر لها في الواقع إن لم تكن مدعمة بالقوة التي ترتعد لها فرائص العدو كلما فكّر في نقضها أو إبطال مفعولها.

وبعد الأمر بإعداد القوة الرهيبة يأتي الحديث عن السلم، لأن السلم إن لم يكن من موطن القوة والعزة فهو تنازل للعدو وخضوع لشروطه فيكون استسلاماً لا سلماً، يقول تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ۝٦٠ ۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٦١﴾ [الأنفال: ٦٠، ٦١].

إنها التوجيهات الربانية لأمة الإسلام ورسم معالم السياسة الشرعية في الحرب والسلم مع أعداء الإنسانية.

وليس للمؤمن خيار تجاهها إنها شريعة الله وهداياته، وفي الالتزام بها السعادة والسيادة. وفي التخلي عنها الخذلان والشقاء والتعاسة.

فهل يتدبر المسلمون اليوم أوامر ربهم جل جلاله وعز سلطانه.

المَعْلَم الخامس

الحرص على الحياة والتخاذل عند اللقاء

﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾ [البقرة: ٩٦] ﴿وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ [آل عمران: ١١١].

إن الذي لا يؤمن بالحياة الأخرى ولا يرجو ثواب أعماله. يجد أن فرصته الوحيدة هي هذه الدنيا فيهتبل الفرص لإشباع لذاته واستغلال المتاح أمامه.

أما الذي يؤمن بالآخرة وثوابها فيحد كثيراً من رغبات النفس ويلزم نفسه حدود الشرع والمبادئ السماوية.

وواقع اليهود وأفعالهم ومخططاتهم تدل على أنهم لا يؤمنون باليوم الآخر، بل حرفوا التوراة ليجعلوا المراد من اليوم الآخر ما ينعكس على المؤمنين به في الحياة الدنيا في صورة من الصور وأن الصالحين من الأموات سينتشرون في الأرض ليشتركوا في ملك المسيح الذي سيأتي في آخر الزمان، فإذن الحياة الآخرة عندهم في الدنيا أيضاً ولكنها حياة ثانية بالنسبة للصالحين. وفريق آخر من اليهود ينكر البعث بعد الموت أصلاً ويرى أن ثواب الأعمال الصالحة ما تعود على الإنسان من مصالح ولذة متعة في حياته.

وعقيدة هذا شأنها، وتأويلات لربانيهم في تفسير الحياة الأخرى والبعث بعد الموت هذا مسارها، لا شك أن مثل هذه العقيدة ستوجد حرصاً على الحياة وتشبثاً بها لا مثيل له.

لذا حاججهم القرآن الكريم وأبرز تناقضهم: فهم يزعمون أنهم الشعب المختار وأن الدار الآخرة لهم وأنه لا يدخل الجنة معهم أحد وأنها بانتظارهم

فإذا كان الأمر كذلك فلا يفصل بينهم وبين دخول الجنة ونعيمها إلا الموت الذي يضع نهاية للشقاء والآلام والحرمان فهلا تمنوا الموت وسلكوا المسالك التي تؤدي بهم إلى الموت من الجهاد في سبيل الله أو ركوب المخاطر أو حتى التمني والاشتهاء المجرد. وسجل عليهم القرآن الكريم هذا الاستخزاء والنكوص.

يقول تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ[1] وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾﴾ [الجمعة: ٦، ٧].

﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ[2] تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [البقرة: ١١١، ١١٢].

﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [البقرة: ٩٤ ـ ٩٦].

إن المؤمن إذا علم يقيناً أن مأواه إلى الجنة وهو يؤمن بما ينتظره فيها من نعيم مقيم ورضوان من الله تعالى واجتماع بالأحبة من النبيين والشهداء والصالحين. وإذا أيقن ذلك لا يكون شيء أحب إليه من الانتقال إليها، وإذا كان الموت هو البوابة فلا يكون أحب إليه من اقتحام هذه البوابة ليصل إلى المطلوب.

---

(١) قال المفسرون: المراد بما قدمت أيديهم من السيئات والإفساد في الأرض وقتل الأنبياء وأكل الأموال بالباطل وغيرها من المفاسد التي يعلمون أنها شر وإفساد ومع ذلك يرتكبونها.

(٢) أي قالت اليهود لن يدخل الجنة إلا من كان يهودياً، وقالت النصارى لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانياً ولكن مقياس دخول الجنة الإيمان والعمل الصالح وفق شرائع الله المنزلة. انظر في ذلك تفسير ابن جرير الطبري ١/ ٣٩٢.

لقد رأى هذه اللحظات عمير بن الحمام في غزوة بدر بأم عينه عندما قال رسول الله ﷺ والله لا يقاتل أحد هؤلاء القوم اليوم مؤمناً محتسباً فيقتل مقبلاً غير مدبر إلا دخل الجنة فقال عمير رضي الله عنه يا رسول الله أما بيني وبين دخول الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء، قال بلى وكانت في يده تمرات يأكلها. فنظر إليها ولماذا انتظار أكل التمرات وما الفائدة منها إنه يأكلها ليتقوى بها ويعيش ويتجنب الجوع والأسقام وهل هو ينتظر كل ذلك وقد أيقن نعيم الجنة أمام عينيه إنها لحياة طويلة أن يقضيها في أكل التمرات والجنة ببهائها وزينتها ولذائذها وحورها العين وهي محل تنزل رحمات الله ورضوانه فألقى بالتمرات وكسر قراب سيفه لأنه لا مجال لإغماده فيه ثانية، وألقى بترسه لأنه لا يريد الوقاية من الطعنات من العدو بل حرص على الشهادة في سبيل الله. فكان له ما أراد وما أخبره به الصادق المصدوق(١).

هذا شأن المؤمن بما ينتظره من نعيم الجنة أما أن يجد الأسباب ليعيش الحياة المؤبدة ويتجنب الموت ويكرهه ويكره ذكره أو التذكير به فهذا شأن المنكرين للدار الآخرة الخائفين من مصيرهم فيها، الشاكين في كونهم يستحقون نعيمها.

إن القرآن الكريم يسجل الحقائق الدامغة في شخصية القوم ويبين التربية التي ربى الكبار صغارهم عليها، فهي معالم بارزة باقية في التكوين النفسي اليهودي. وهذا قد سجله عليهم كتبهم ـ حب الحياة والحرص عليها وكراهية الموت.

فقد جاء في سفر الخروج (فلما اقترب فرعون رفع بنو إسرائيل عيونهم وإذا المصريون راحلون وراءهم ففزعوا جداً وصرخ بنو إسرائيل إلى الرب وقالوا لموسى هل لأنه ليست قبور في مصر أخذتنا لنموت في البرية ماذا صنعت بنا حتى أخرجتنا من مصر، أليس هذا هو الكلام الذي كلمناك به في مصر قائلين: كفّ عنا فنخدم المصريين لأنه خير لنا أن نخدم المصريين من أن

---

(١) انظر الحادثة في الإصابة في تمييز الصحابة ٣/٣١، والسيرة النبوية لابن هشام مع الروض الأنف ٣/٤٨.

نموت في البرية، فقال موسى للشعب: قفوا وانظروا خلاص الرب الذي يصنعه لكم اليوم فإنه كما رأيتم المصريين اليوم لا تعودون تروهم إلى الأبد) سفر الخروج الإصحاح ١٤ ص ١١٠.

إنهم كانوا حريصين على الحياة ولو كانت حياة ذل وقهر يسومهم فرعون وجنوده سوء العذاب يذبح الأبناء ويبقي الإناث للخدمة في البيوت، وتارة يذبح الأبناء سنة ويستبقيهم سنة لكي لا يفقد اليد العاملة في الزراعة والصناعة والسخرة والامتهان.

وسجل عليهم القرآن هذه المواقف المخزية ومناقشتهم لموسى بأسلوبه المعجز حيث يقول: ﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأعراف: ١٢٩].

ويـقـول: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ﴾ [الشعراء: ٦١ ـ ٦٦].

ولكن هل أخذ اليهود العبرة من تلك الآيات الباهرة وأن عناية الله تكلأ موسى ومن معه من المؤمنين فيسخر له البحر والحجر والعصا، وهل قوي إيمانهم بما رأوا وهل اجتثوا جذور الشك والخوف، والجبن من قلوبهم بعد ما رأوا الآيات.

فلننظر إليهم في موقف آخر بعدما تقدم، فبعد أن قطعوا البحر واتخذوا فيه طريقاً يبساً ووقفوا على أطراف أرض فلسطين، أرسل موسى عليه السلام نقباءهم ليستطلعوا الأرض والقوم وقد كتب الله عليهم قتال القوم، ودخول الأرض وأوصى النقباء أن لا يخبروا أحداً بما يرون إنما يخبروه وحده حتى لا تسري الإشاعات بين القوم وهم من عرف موسى حقيقة نفوسهم!

ولكن النقباء من جنس شعبهم فما كادوا يرون الجبارين في أرض فلسطين ورجعوا إلى موسى حتى بالغوا في الحقائق وضخموا ما شاهدوه

ليبرروا خوفهم وليلقوا في روع القوم استحالة قتال هؤلاء الجبارين.

جاء في سفر العدد (فرفعت كل جماعة صوتها وصرخت وبكى الشعب تلك الليلة وتذمر على موسى وهارون جميع بني إسرائيل، وقال لهما ـ كل الجماعة ـ ليتنا متنا في أرض مصر أوليتنا متنا في هذا القفر، ولماذا أتى بنا الرب إلى هذه الأرض لنسقط بالسيف تصير نساؤنا وأطفالنا غنيمة أليس خيراً لنا أن نرجع إلى مصر، فقال بعضهم لبعض نقيم رئيساً ونرجع إلى مصر) سفر العدد الأصحاح ١٤ ص ٢٣٣.

لم يكن ذلك عن قلة في المقاتلين أو ندرة في العتاد والسلاح أو قلة خبرة في التدريب عليه بل إنها النفوس المجبولة على الجبن والحرص على الحياة مهما كان لونها وواقعها لقد جاء في سفر العدد تعداد مقاتلتهم (إن عدد المحاربين كان ستمائة ألف وثلاثة آلاف وخمسمائة وخمسين) سفر العدد الإصحاح الأول ص٢٠٨.

ولم يكن عدد أهل فلسطين كبيراً بل لم يكونوا إلا بضعة آلاف، وهذا ما سجله القرآن العظيم ببيانه المعجز المعهود على بني اليهود حيث جاء فيه ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ [1] أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [المائدة: ٢٠ ـ ٢٤].

هل يوجد منطق أغرب من هذا المنطق، أناس يقيمون في ديارهم

(١) المراد بـ﴿من الذين يخافون﴾ أي من بني إسرائيل الخائفين ولكن أنعم الله عليهما بإزالة الخوف من نفسهما وقيل من الذين يخافون الله، ولا يخافون أحداً من البشر... انظر تفسير البحر المحيط لأبي حيان ٣/ ٤٥٥ مكتبة النصر الحديثة.

وأرضهم ويريدون مصالحهم المعيشية، ثم يأتي قوم آخرون يريدون الاستيطان في هذه الأرض والسيطرة عليها وأخذ الأموال غنائم لأنفسهم، ثم لا يجرأون على قتال القوم، وإنما يريدون تفريغها أو أن يتلقوا أعداءهم بالأحضان ويسلموهم الدور والأموال والذراري أي منطق هذا، أم أنهم انطلقوا من منطق كونهم الشعب المختار فعلى الله أن يمهد لهم الطريق بالقضاء على أعدائهم كما فعل بفرعون وجنده، ولكن شتان ما بين الموقفين، فمع فرعون كانت الأسباب العادية غير مهيأة لهم فلم يمكنوا من أخذ الأهبة والتدريب على السلاح ولم يكن لهم كيان ولا رئاسة ولم يعطوا الفرصة لتهيئة أجواء المعارك فعندما وقعوا في محنة وهددوا بالفناء أنقذهم الله تعالى بخارقة فلق البحر.

أما الموقف هنا فمختلف جداً، إنها الأحكام الإلهية وشرائعه كتبت عليهم أن يدخلوا الأرض المقدسة وينقذوها من أيدي الوثنين ويرفعوا عليها راية التوحيد.

والآن لهم كيانهم ولهم قيادتهم الراشدة والفسحة الزمنية ممتدة أمامهم لاتخاذ الأسباب من التدريب على السلاح، وإجادة فنون المعارك وخاصة الوحي الإلهي يتنزل على موسى عليه السلام يرشد ويسدد. وليست من طبائع الأمور ولا من سنن الله في المجتمعات أن تكون الخارقة هي الأصل، إن لله سنناً في التدافع بين المجتمعات وابتلاء المؤمنين للتمحيص ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران: ١٤٢]. إنها سنة إلهية في أحب الناس إليه وهم المؤمنون به أتباع رسوله. ﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

لم يدرك بنو إسرائيل سنن الله في الحياة وربط الأمور بمقدماتها وأسبابها إنهم كانوا يريدون أن يسير الكون بمقتضى الخوارق والآيات، وجهلوا أن هذا يصادم سنن الله في الكون.

إن الخوارق بمثابة الدواء والعلاج لأمور طارئة، أما السنة العامة فهي كالغذاء الدائم العام.

ولكن الحقيقة التي دفعتهم إلى هذا الموقف هي الطبيعة التي تربوا عليها تحت جبروت فرعون وطغيانه فأفقدتهم الثقة بأنفسهم.

لقد وقفت بنو إسرائيل مع نبيهم وقفة تخاذل ونذالة وجبن ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤].

وقارن هذا بموقف صحابة رسول الله ﷺ عندما استشارهم قبيل موقعة بدر وكانت كل المبررات بجانب من لا يريد المعركة. لقد خرجوا يعترضون العير، ولم يدر في خلدهم أنهم سيلقون مقاومة تذكر. فلم يستعدوا بالعتاد الكافي، بل أمر الرسول ﷺ من حضر أن يركب. فكان العدد ثلاثمائة وأربعة عشر. ومعهم سبعون بعيراً يعتقبون عليها وفرسان. وكانوا حفاة عراة.

وكان يقابلهم جيش قرابة الألف مدججين بالسلاح والعتاد، قد خرجوا للقتال لإنقاذ القافلة، وأعدوا لذلك عدته.

فلما استشار رسول الله ﷺ قام بعض المهاجرين فقالوا فأحسنوا الكلام، ولكنه كان يقصد الأنصار لأنهم بايعوا رسول الله ﷺ على أن يحفظوه مما يحفظون به أهلهم وذراريهم أي يدافعون عنه ـ حرب دفاعية ـ ولم يبايعوه على الهجوم خارج المدينة على عدوه.

ولكن الأنصار آمنوا برسول الله ﷺ ودعوته والإسلام كل لا يتجزأ فالجهاد قتال في سبيل الله على كل الأحوال إن اقتضى دفاعاً فهو ذاك وإن تطلب هجوماً فهو الجهاد لإعلاء كلمة الله. فوقف متحدثهم ليقول لرسول الله ﷺ: (يا رسول الله لقد آمنا بك وصدقناك. فسر على بركة الله والله لو خضت بنا البحر لخضناه معك، ولو سرت بنا إلى برك الغماد لسرنا معك وجالدنا معك الناس. وإنا لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون، وإنما نقول اذهب وأنت وربك فقاتلا إننا معكما مقاتلون)[1].

وبعد أجيال ودهور، وبعد عقوبات وتأديبات ربانية تحدث حوادث في بني إسرائيل تدل على أن الطبائع هي هي وأن الجبن والهلع متمكنان من القلوب، فقد حدث أن تسلط الأعداء على بني إسرائيل وفتكوا بهم فتكاً ذريعاً

---

(١) انظر سيرة ابن هشام ٣/ ٣٣.

فقتلوا الثلث وشردوا الثلث واستاقوا ثلثهم أسرى، كان ذلك بعد موسى بأجيال. فلما استعاد المشردون أنفاسهم رجعوا إلى نبيهم وطلبوا منه أن يعقد له راية وأن يعيّن عليهم قائداً ملكاً[1] يقاتلون تحت إمرته هؤلاء الأعداء الذين سفكوا دماءهم وقتلوا ذراريهم وسلبوا أموالهم، لكن النبي كان مدركاً طبائع القوم فقال إني أخشى أن يعين عليكم القائد الملك وتعقد لكم الراية ولكنكم تخذلون وتنصرفون عنه. قالوا كيف ننصرف عنه، ونحن الملتاعون المصابون نريد الانتقام. وكان ما توقعه نبيهم، فما أن عيّن عليهم طالوت ملكاً يقاتلون تحت رايته حتى اعترضوا على تعيينه عليهم ملكاً، وليس من سبط الملوك، وليس من أكثرهم مالاً وهما المقياسان عند بني إسرائيل في الزعامة. أما القدرات الشخصية والكفاءة الذاتية فلا اعتراف بها عندهم ﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ [البقرة: ٢٤٧].

وعلم طالوت أن القوم جبناء مخادعون لا يستطيعون مجابهة الأعداء فأراد اختبارهم ومدى التزامهم بأوامر القائد ومدى تحملهم المشقات ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ﴾ كان عدد الذين لم يشربوا منه وصمدوا معه أربعة عشر وثلاثمائة رجلا[2] وحتى هؤلاء القلة الذين صبروا معه واجتازوا الاختبار عندما رأوا جند الأعداء جالوت وجنوده خفقت قلوبهم من الخوف وارتدعت فرائصهم فثبت قائدهم من عزائمهم ورفع معنوياتهم بتذكيرهم بتأييد الله لهم ونصره إياهم. ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

لما كان الأبناء والأجيال اللاحقة تتربى على ما كان عليه آباؤهم

---

(١) كان من الأمم السابقة يمكن أن تكون رئاسة الدولة في شخص والنبوة في آخر، وقد اجتمعت في داود وسليمان عليهما السلام ولا شك أن اجتماعهما في شخص أقوى لكيان الدولة وإدارتها، وكان ذلك في رسول الله ﷺ ولكنه لم يكن ملكاً.

(٢) انظر في ذلك صحيح البخاري كتاب المغازي ٥/٥.

وأجدادهم من العقائد والأفكار، فقد برزت هذه الأخلاق فيهم في عهد رسول الله ﷺ فلم يدخلوا معركة حقيقية مع صحابة رسول الله ﷺ وجهاً لوجه، على الرغم من تبجحهم وقولهم لو حدث بيننا وبينكم ـ يقصدون المسلمين ـ لقاء لعرفتم أننا الرجال. فلا يغرنكم انتصاركم في بدر على الأعراب الذين لا عهد لهم بفنون القتال[1].

فكانت قينقاع وكانت النضير وكانت بنو قريظة وكانت خيبر، وفيها جميعاً كان التنازل على حكم رسول الله ﷺ فكان الإجلاء وكان أخذ الأموال والدور فيئاً ـ من غير قتال ـ وكان إقامة عقوبة الإعدام عليهم بسبب الخيانة العظمى كما في حادثة بني قريظة.

فلا يستطيعون مجابهة المسلمين وجهاً لوجه أبداً وهذا نقرؤه خلال التاريخ الإسلامي كله مصداقاً لقول الله تعالى فيهم: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًىۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾﴾ [آل عمران: ١١١]، وقوله تعالى: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الحشر: ١٣، ١٤].

وهنا يثور تساءل هل استطاع اليهود أن يخلعوا عن قلوبهم الجبن والهلع في عصرنا هذا فنراهم اليوم يصولون ويجولون في المنطقة من غير خوف، ودخلوا عدة معارك مع العرب فانتصروا عليهم، ولم يستطع العرب مجتمعين أن يهزموهم ولو ومرة واحدة منذ قيام دولتهم عام ١٩٤٨م؟! فكيف نفهم الآية الكريمة ﴿وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ [آل عمران: ١١١].

والجواب على هذا التساؤل من عدة وجوه:

أولاً: إن الخطاب في الآيات الكريمة خطاب للمسلمين ﴿وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ﴾ أي يقاتلوا المسلمين، وكذلك في قوله تعالى ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِۚ﴾ خطاب للمسلمين وكذلك الآيات الأخرى. والمعارك التي وقعت في

(١) انظر السيرة النبوية لابن هشام ٣/١٣٧.

العصر الحديث لم يكن بين اليهود والمسلمين بل بين اليهود والقوميين، ولم يكن قتالهم تحت راية إسلامية لإعلاء كلمة الله بل كانت تحت راية القومية العربية، والحرية والوحدة والاشتراكية، والوطنية، وإقامة الدولة العلمانية، والحكم الديمقراطي. . . إلخ.

فلم يكن الإسلام في الساحة، ولم يكن المسلمون الصادقون قادة الجند، ولم تكن الكتائب كتائب التوحيد، فانتصار اليهود كان على القوميين العرب، وعلى أصحاب أيديولجية الوحدة والحرية والاشتراكية، والعلمانية والوطنية.

ومن الظلم أن نتهم المسلمين أنهم لم يصمدوا أمام حفنة من اليهود، أو أن الإسلام انهزم أمام اليهود.

إن الجيش يوصف بأنه جيش إسلامي إذا كان الهدف من القتال هو إعلاء كلمة الله (من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى فهو في سبيل الله)[1].

والجند الذي يستوفي شرط النصر هو المتمسك بعهد الله وميثاقه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾﴾ [محمد: ٧].

ثانياً: إن من يدرس أحداث المعارك التي جرت بين العرب وإسرائيل منذ عام ١٩٤٨، وإلى يومنا هذا، يجد أنها مسرحيات تمثيلية، والمهرجون الخونة أتقنوا إخراجها لتوطيد أركان دولة اليهود في فلسطين.

أ ـ أليس من المهزلة أن تشترك سبع دول عربية بجيوشها في معركة مع اليهود ويكون القائد العام لهذه الجيوش كلوب باشا الإنكليزي، والقاصي والداني يعرف دور الإنكليز في إقامة دولة اليهود منذ وعد بلفور عام ١٩١٧، حيث وجه وزير خارجية بريطانيا ـ آرثر جيمس بلفور ـ خطاباً إلى الزعيم الصهيوني اللورد رتشيلد جاء فيه: «إن حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف إلى تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين، وستبذل جهدها لتسهيل

---

(١) رواه البخاري في كتاب الجهاد ٣/٢٠٦.

تحقيق هذه الغاية...» كان ذلك في الثاني من شهر نوفمبر عام ١٩١٧م.

ويقول أورمسبي غور - وكيل وزارة المستعمرات البريطانية - في ٩ يوليو عام ١٩٢٣: «إن هدف وجودنا في فلسطين ليس فقط للاحتفاظ بها وطناً روحياً لليهود، ولكن هناك أسباب أخرى»[١] ومروراً بالقضاء على ثورات فلسطين عام ١٩٣٣ وعام ١٩٣٨، وغيرها بالإضافة إلى مد اليهود سراً وعلناً بالسلاح والعتاد والخبراء، وفسح المجال أمام هجرة اليهود لدعمهم وإقامة دولتهم. ثم تأتي الأوامر العليا بجعل القائد العام للجيوش التي تحارب إسرائيل كلوب باشا الإنكليزي؟!!

بل كان ملك الأردن آنئذ الملك عبد الله قد عقد الاتفاقات السرية مع الحكومة الإسرائيلية على تقسيم فلسطين بينه وبين إسرائيل[٢].

ب - وفي حرب السويس عام ١٩٥٦م، كان الصراع بين نفوذ الدول الكبرى في المنطقة وكانت الولايات المتحدة الأمريكية تريد الحلول محل إنكلترا وفرنسا في المنطقة، وكان الجواد الذي تراهن عليه أمريكا رجلها الأول في المنطقة جمال عبد الناصر، فبدأ بتأميم قناة السويس فانجرت أنكلترا وفرنسا لدخول الحرب، وكان دور إسرائيل الدليل الممهد لهم وكالقاعدة المتقدمة لجيوش الغرب، بالإضافة كما قلت في السابق فالراية لم تكن راية إسلامية وكان انسحابهم بضغط أمريكا بعد حصول إسرائيل على مكسب كبير في فتح مضائق تيران على البحر الأحمر أمامها، فهل هذه حرب إسلامية لرفع كلمة التوحيد؟!

جـ - وفي حرب ١٩٦٧، كانت المهزلة أشد، وكان رفاق السلاح المتنافسون على زعامة القومية العربية يريد كل منهم توريط صاحبه في الحرب فنفخوا في زعيم الأمة العربية ليستعرض جيشه المتوجه إلى سيناء، وقد أعطى

---

(١) انظر في ذلك: الإرهاب والعنف في الفكر الصهيوني، د. إسماعيل أحمد ياغي، ط جامعة الإمام ١٤٠٧هـ.

(٢) كشفت إسرائيل عن هذه الاتفاقات في فيلم وثائقي عام ١٩٨٨م.

العهود والمواثيق لأمريكا ولروسيا أن لا يبدأ المعركة مع إسرائيل وكان الآخرون يريدون توريطه لإزاحته عن الزعامة، فاستغلت إسرائيل الفرصة لتوجه الضربة القاضية إلى الطيران المصري وإخراجه من ساحة القتال خلال ساعات معدودات لينهار الصنم وتنكشف مهزلة الصواريخ الظافر والقاهر.

لقد كانت إسرائيل متفقة مع القيادات الفاعلة في هذه الجيوش وقبضتها ثمن الخيانة ودفعت إليهم سلفاً، وحددت ما ينتظرهم من مناصب لقاء تقديمهم معلومات أو مقابل تدميرهم لجيوش بلادهم. وقد تحقق ذلك فيما بعد ووفت إسرائيل لهم بوعودهم فمن بقاء مدة أطول في سدة الحكم ومن ترقية من منصب وزير إلى رئاسة في الدولة ومن قائد فرقة إلى رئاسة الأركان. إنها مهزلة العصر.

د ـ وفي حرب عام ١٩٧٣: صرح القائمون على دفتها والمقررون لقراراتها أنهم اتفقوا مع كيسنجر وزير خارجية الولايات المتحدة الأمريكية آنذاك اليهودي. أن المفاوضات مع إسرائيل لا يمكن أن تصل إلى نتيجة إلا بعد معركة يثبت العرب فيها وجودهم ليتفاوضوا مع موقع القوة، بل ليعقدوا الصلح الدائم مع إسرائيل ولا يوصموا بالخيانة والعار والهزيمة من قبل منتقديهم، فكانت الحرب محدودة الأهداف والوسائل، ولم تكن مطلقاً بقصد رفع كلمة التوحيد أو في سبيل الله. ومن التجني على الحقيقة أن نقول إنها حرب إسلامية أو بين المسلمين واليهود، وأصحابها يتبرؤون من الإسلام. بل لم يدخلوا معركة من هذه المعارك إلا بعد تصفية الصوت الإسلامي في بلدانهم، وتكميم أفواه المسلمين كي لا يتحدثوا عن خياناتهم، وصفقاتهم السرية مع اليهود[١].

ثالثاً: لقد كانت هنالك اصطدامات في بعض الأوقات بين المسلمين واليهود في نطاق ضيق ولم تكن في حرب شاملة كما تقدم. فقد دخلت بعض

---

(١) للمزيد من أسرار حروب العرب مع إسرائيل انظر كتاب: الطريق إلى بيت المقدس، جمال عبد الهادي مسعود ص٩٢ وما بعدها.

الجماعات المتطوعة عام ١٩٤٨ باسم الإسلام، وأذاقت اليهود الأمرين، وكان الجنود الإسرائليون يفرون أمامهم كالجرذان عندما يسمعون صيحات التكبير، وحدث في بعض المعارك أن بعض الضباط في قيادات بعض السرايا كانوا مسلمين فكانوا يقاتلون عن عقيدة وإيمان فلم يستطع الإسرائليون قهرهم أو مجابهتهم وفي معركة الكرامة في غور الأردن عام ١٩٦٨م تمرد ضابط أردني على قيادته وأصدر أوامره للجنود بالتصدي لإسرائيل وشارك معه بعض الفصائل من منظمة فتح وكان بين أفراده مسلمون فكبدوا الإسرائيلين خسائر كبيرة وتركوا ميدان المعركة مهزومين مذعورين وقد وجد في الدبابات الإسرائيلية المدمرة أن قائدي الدبابات كانوا مسلسلين بالسلاسل في دباباتهم منعاً لهم من ترك الدبابات والفرار.

إننا على يقين من وعد الله للمؤمنين المخلصين الصابرين بالنصر وتثبيت الأقدام إن أخلصوا النية لله تعالى. وإننا على يقين بالحقيقة القرآنية بعدم إمكانية صمود اليهودي أمام المسلم وجهاً لوجه.

وإلى أن يوجد المجاهد المؤمن الذي يقاتل لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، وإلى أن ترفع راية التوحيد ويكون القتال تحت ذاك اللواء إلى أن يتحقق ذلك ستبقى إسرائيل وستبقى لها اليد الطولى في المنطقة لتصول وتجول وترعد وتزبد. لأنها لا تجد أمامها أحداً وإنما تجد هياكل فارغة من الإيمان، فهم يجابهون أناساً لا قضية لهم ويقاتلون في سبيل تثبيت عروش لا يقتنعون بأهليتها للقيادة ثم يجابهون قيادات قد عقدت صفقات معها فكيف تخشى بأسهم أو تحسب لهم حساباً.

المَعْلَم السادس

فقدان الثقة الذاتية عند اليهود

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٦١].

إن اليهود خلال تاريخهم المديد لم تقم لهم دولة يعتمدون فيها على إمكاناتهم الذاتية إلا عندما كانت النبوة فيهم - وهي المرحلة التي يعبّر عنها القرآن الكريم بحبل من الله - لقد ساسهم بعض الأنبياء وكانوا ملوكاً في نفس الوقت فكان بنو إسرائيل يقاتلون أعداءهم تحت راية الأنبياء وقد أخذوا الميثاق من الله أنهم لن يغلبوا ما داموا ملتزمين بشرائع الله، وكان الرمز المادي الذي يدخل الطمأنينة على قلوبهم بعدم إلحاق الهزيمة بهم هو التابوت الذي يقدمونه بين أيدي الجند في المعارك والذي جاء ذكره في القرآن الكريم، عندما رغبوا في قتال الأعداء ولكنهم لم يجرؤا دخول المعارك إن لم يكن التابوت بينهم.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾ [البقرة: ٢٤٨].

ولكن كلما خلا عصر من نبي من أنبياء بني إسرائيل تمردوا على شرائع التوراة وأفسدوا في الأرض، فسلط الله عليهم بعض عباده الذين يسومونهم سوء العذاب، حتى يعودوا إلى الذلة والمسكنة، أو يرسل إليهم رسولاً جديداً فتدخل الطمأنينة إلى قلوبهم بحبل من الله.

ولما انقطعت النبوة فيهم وكان آخر أنبيائهم عيسى عليه السلام الذي تآمروا على قتله بالاستعانة بالحكام الرومان، فأنجاه الله منهم برفعه إليه حياً، بعد ذلك انقطع عنهم حبل الله ولم يعودوا يطمعون في عهود ومواثيق تأتيهم

من الله لانقطاع النبوة فيهم، وبما أنهم لا يستطيعون الحياة من غير تكأة على شيء من خارج نفوسهم، لم يبق أمامهم إلا حبل الناس والعيش تحت وصاية أمة من الأمم أو شعب من الشعوب بحيث يتكفل حمايتهم والقتال عنهم وإدخال الطمأنينة إلى قلوبهم.

وهنا يثور تساؤل: كيف يتمكنون من تسخير هذه الأمم أو الشعوب أو الحكومات من أن يكونوا حراساً للمصالح اليهودية ويدفعون بأبنائهم وفلذات أكبادهم إلى أتون المعارك ليحموا اليهود؟!

الأمر ليس بهذه الصورة الفاضحة، وإنما تزين بزخارف الدجل والخداع والتزييف والبهرجة التي يتقن اليهود إخراجها حسب العصور والثقافات وطريقهم في ذلك ضمان المصالح الشخصية لبعض الفئات، أو توفير سبل الملذات والشهوات البهيمية لبعض الطبقات المتسلطة، أو التهديد والوعيد لفئات من الناس إن لم يقدموا لليهود تلك الرعاية وحماية المصالح.

والتاريخ البشري مليء بتلك الصفقات السرية مع الطبقات الحاكمة المتسلطة على رقاب شعوبها لإذلالها في سبيل إرضاء دهاقنة المال اليهود لدخولهم معهم في تلك الاتفاقات السرية[1].

وكم تكون الحسرة شديدة عندما يرى العقلاء أن اليهود يمتصون دماءهم وشرايين المال تصب في بنوك اليهود، ودماء أبنائهم تراق في سبيل حماية مصالح اليهود لا يستطيعون الاعتراض ولا التخلص فيدفعونها والمقت والكبت والحسرة تملأ قلوبهم، لأنهم إن تكلموا فمصيرهم الاغتيال، أو الفضائح الملفقة لأعراضهم، أو فقدان مكانتهم الاجتماعية أو خسارة أموالهم وشركاتهم ومصانعهم وإفلاسها، إنه الحبل من الناس الذي يطوق به اليهود أعداءهم ويشدون به أزرهم ويؤمنون سلامتهم ﴿وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾.

---

(١) انظر في ذلك كتاب اليهود وراء كل جريمة لوليم كار. حيث كشف مؤلفه بالوثائق التاريخية تلك الاتفاقات بين اليهود وملوك ألمانيا، وانكلترا وفرنسا وإيطاليا وأمريكا وروسيا.

فيا هل ترى نحن الآن مقدمون إلى أن يلتف ﴿وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ الذي طرفاه في يد اليهود حول أعناق الشعوب العربية ويكون حكام العرب هم الحراس الذين يسهرون على استحكام هذا الحبل ووثاقته وعدم استرخائه.

إننا نعلم أن كثيراً من الموارد من العالم الإسلامي (البترول، المعادن، الزراعة، الثروة الحيوانية. . .) تستغل من قبل شركات يهودية تحمل جنسيات لدول عظمى ولدول صغرى، تمتص تلك الخيرات بشكل غير معلن لتصب في النهاية في تقوية الاقتصاد الإسرائيلي.

ولكن هل حان الوقت لأن تكشف إسرائيل الأوراق وتلعب على المكشوف كما يقولون، فتسخر الجيوش العربية والإسلامية أيضاً لحماية أنابيب الغاز والنفط وقنوات الري الممتدة من الدول المحيطة بإسرائيل إلى أرض فلسطين، وتنقلب مهمة الجيوش إلى مهمة حراسة تلك المصالح وإخماد أي صوت يستنكر هذا العمل أو يعترض على هذه الخيانة أن ينادي بالأمة لإيقاظها من رقدتها إلى ما يفعله حكامها من مساعدة إسرائيل في لف الحبل حول العنق وشد الأطراف واستيثاق العقدة واستحكامها.

هل نحن مقدمون لنشاهد ﴿وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ يمتد على صورة الأفعى الإسرائيلية ذنبها في (أورشليم) بيت المقدس وهي تمتد لتلتف في عواصم العالم جميعاً لتعود مرة ثانية إلى أورشليم فتستحكم العقدة وتكون إسرائيل سيدة دول العالم بفضل هذا الحبل من الناس.

لقد تمكنت الأفعى اليهودية من عواصم أوروبا وأمريكا ولم تنفع صيحات التحذير التي أطلقها بعض قادتهم[1]، وقد مرت بعواصم الدول الشيوعية والآن

---

(١) انظر ما قاله الرئيس الأسبق بنيامين فرانكلين: ترأس بنيامين فرانكلين، أول اجتماع لمجلس تأسيسي للولايات المتحدة الأمريكية بعد استقلالها عام ١٧٧٩م وألقى خطاباً قال فيه:

«إن هؤلاء اليهود يدخلون البلاد بصفة دخلاء مساكين، وما يلبثون أن يمسكوا بزمام مقدراتها، ثم يتعالون على أهلها، ويحرمونهم من خيرات بلادهم. .

إن هؤلاء اليهود هم أبالسة الجحيم، وخفافيش الليل، ومصاصو دماء الشعوب.

أيها السادة: اطردوا هذه الطغمة الفاجرة من بلادنا قبل فوات الأوان، ضماناً لمصلحة =

= الأمة وأجيالها القادمة، وإلا فإنكم سترون بعد قرن واحد أنهم أخطر مما تفكرون وستجدون أنهم قد سيطروا على الدولة والأمة، ودمروا ما بنيناه بدمائنا، وثقوا أنهم لن يرحموا أحفادنا، بل سيجعلونهم عبيداً في خدمتهم، بينما هم يقبعون خلف مكاتبهم يتندرون بسرور بالغ بغبائنا، ويسخرون من جهلنا وغرورنا...

أيها السادة: ثقوا أنكم إذا لم تتخذوا هذا القرار فوراً فإن الأجيال الأميركية القادمة ستلاحقكم بلعناتها وهي تئن تحت أقدام اليهود...»

ولكن هذه الكلمات ذهبت أدراج الرياح إذ نجح اليهود في شراء أصوات المعارضة لاقتراحه فأسقطوا الاقتراح، واشترى اليهود جميع أعداد صحيفة (تشارلز بكني) التي نشرت الخطاب اليوم التالي وأحرقوها، انظر اليهودية العالمية ص٧٤.

وقد تحققت سيطرة اليهود على الحياة الأمريكية باقتصادها وإعلامها وسلوكيات مجتمعها وسخرت طاقاتها العسكرية الضخمة لتنفيذ مخططات اليهود في العالم ولحماية إسرائيل لتقيم الجسور الجوية بين أمريكا وبين إسرائيل في حال تعرضها للخطر، وجرت الولايات المتحدة الأمريكية لحربين عالميتين لإزالة العقبة الرئيسية أمام إقامة إسرائيل في الحرب العالمية الأولى. (وهي الخلافة العثمانية الإسلامية)، ولتقيم دعائم الدولة اليهودية في فلسطين في الحرب العالمية الثانية، ومن يدري ماذا سيكون في مستقبل الأيام من جرّ القوى العظمى إلى مخططات اليهود في المستقبل.

يقول جيمس فورستا: (وهو وزير الدفاع الأمريكي في عهد الرئيس ترومان): «ليس من حق أي جماعة في أمريكا ـ يقصد اليهود ـ أن يسمح لها أن تؤثر في السياسة الأمريكية بصورة تهدد أمن أمريكا القومي».

وحاول تقليص نفوذ اليهود على الحزبين الرئيسيين في البلاد، ولكن الصحافة اليهودية لاحقته حتى قدم استقالته عام١٩٤٨، وما زالت الصحافة تلحق به التهم حتى ألقوا به من شرفة منزله بنيويورك وزعموا أنه انتحر. خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية ص٢٩٤.

ومثل سابقه الجنرال (جورج براون) حيث يقول:

«إن إسرائيل هي طفل أمريكا المدلّل، وقد أصبحت عبئاً عسكرياً على أمريكا بعد أن أصبح اليهود يملكون الولايات المتحدة، يملكون بنوكها، يملكون صحفها». ويقول أيضاً في عام ١٩٧٥م:

«لقد كنت كأمريكي أحس بالمهانة عندما كنا نقول للوفود الإسرائيلية أثناء مباحثاتها مع وزارة الدفاع الأمريكية: لن يوافق الكونغرس على مطالبكم هذه...

فيرد علينا المفاوضون اليهود على الفور: دعوا أمر الكونغرس إلينا، فنحن نعرف كيف نعالجه، ثم تبين لنا أنهم بالفعل يعرفون كيف (يعالجونه)». =

هي في طريقها إلى جنوب شرق آسيا لتلتف من هناك إلى عواصم دول العالم الإسلامي ومنها العربي.

لقد نجحت اليهودية العالمية نجاحاً باهراً في تمييع المقاييس التي يقاس بها مصالح الشعوب والأمم، ونجح في جعل ميزان المصلحة هو ميزان التحكيم، والمصلحة عبارة مطاطة، فكثيراً ما تنقلب المفاسد إلى مصالح بعد ترويض الشعوب على مفاهيم معينة.

إن مصلحة أمتنا مستمدة من قيم كتاب ربنا المنزل على سيدنا محمد ﷺ، فهو الميزان الذي لا تغيره تقلبات الظروف ولا تميله الأهواء، من حكم به عدل ومن تمسك به أفلح ونجا.

إن المصالح الدنيوية الفانية من جاه ومال وشهوة أحقر من أن نضحي في سبيلها بحقيقة واحدة من حقائق القرآن الذي يجعل من اليهود أعدى أعداء المسلمين ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ﴾ [المائدة: ٨٢].

إن اليهود وعلى الرغم من هذه القوة الرهيبة لديها من مال وقادة مجندين لخدمتها وجيش من العملاء يعملون وفق مخططتها، بل وأسلحة فتاكة تستطيع تدمير العالم الإسلامي كله[1]، لا تعتمد على قوتها الذاتية بل اتكأت على تحالفها مع بريطانيا العظمى إلى نهاية الحرب العالمية الثانية، ثم اتكأت وتتكئ على تحالفها مع الولايات المتحدة الأميركية إلى يومنا هذا، ومن يدري قد تتكئ في المستقبل على اتحاد دول أوربا أو على بعض القوى من العالم العربي وكل ذلك تحقيق لسنة الله تعالى فيهم ﴿ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيۡنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبۡلٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبۡلٖ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٢].

= فاشتدت حملة اليهود على الجنرال براون وفقد مركزه بالإضافة إلى توجيه التوبيخ العنيف إليه من قبل رئيس الجمهورية (جيرالد فورد).

(١) تفيد التقارير الأمنية في العالم أن إسرائيل تمتلك أكثر من (٢٠٠) مائتي رأس نووي، ولديها الصواريخ التي تتمكن من حملها إلى عواصم العالم الإسلامي جميعاً.

المَعْلَم السابع

عداوة اليهود للإنسانية عامة وللمؤمنين خاصة

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ [المائدة: ٨٢].

قد يتساءل المرء لماذا يعادي اليهود المؤمنين هذه العداوة التي يصفها القرآن الكريم بالشديدة بل تأتي بصيغة أفعل الدالة على الإيغال في هذه العداوة.

ـ فهل هو الحسد الذي أشار إليه القرآن الكريم.

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾﴾ [البقرة: ١٠٩].

إذ كان اليهود يتطلعون أن يكون النبي الخاتم منهم، فلما ظهر النبي من العرب أضمروا له عداوة الدهر[١]، على الرغم من تحققهم من صدقه بما كان لديهم من العلامات الخَلقية والخُلقية والأوصاف التي ذكرها كتابهم عن أمته ورسالته.

وهم بذلك يسيئون الأدب مع الله سبحانه وتعالى الذي بيده الملك يؤتيه من يشاء من عباده، والله أعلم حيث يجعل رسالته.

﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ

---

(١) انظر ما تقدم ص٨١ من الكتاب.

عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ ﴾ [النساء: ٥٣ ـ ٥٥].

ـ أو هو استعصاء هذه الأمة على التطويع لمخططات الأعداء واحتفاظها بمقوماتها الخاصة المستمدة من كتاب ربها المنزل، وتكريم الله سبحانه وتعالى لها بهذه الرسالة الخالدة والكتاب المعجز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، وكلما فترت النفوس عن التمسك بشرائع الله وانصرفت عنه بعث الله لها مجددين من أبنائها على رأس كل قرن، فكان التجديد وكان الانبعاث وكان الالتزام بشرائع الله[1].

لذا فإن نجاح اليهود في العالم الإسلامي محدود سواء كان على المستوى الثقافي أو المستوى السياسي أو الاقتصادي أو الإعلامي. ففي غفلة من الأمة تتمكن في جانب من الجوانب ولكن سرعان ما يكون الانبعاث ويكون التجديد. ولم تستعص أمة من الأمم على اليهود كأمة الإسلام حيث حرّف اليهود كل الشرائع والأديان الوضعية والسماوية ما عدا الإسلام. فكانت محاولاتهم المستمرة التي لا تنقطع.

لقد استمرت محاولات اليهود لتطويع القيادات الإسلامية لمخططاتها بشتى الوسائل بدءاً من رسول الله ﷺ:

ـ فقد جاء بعض زعمائهم إلى رسول الله ﷺ وقالوا يا محمد نحن سادة يهود وزعماؤها وإن اتبعناك اتبعنا سائر اليهود، وإن بيننا وبين قومنا خصومة فإن قضيت لنا آمنا بك، فجاء الرد الإلهي الصارم ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾[2] [المائدة: ٤٩، ٥٠].

---

(١) انظر حديث المجددين لهذه الأمة وتخريجه ص٧.

(٢) انظر تفسير ابن كثير ج٢/ ٦٧.

ـ وبعد فتح خيبر وإبقاء الرسول ﷺ اليهود فيها لزراعتها مناصفة بينهم وبين المسلمين على أن يكون للمسلمين إجلاؤهم منها متى شاؤوا، كان رسول الله ﷺ يرسل بعض الصحابة لتخريص التمر عند بدو صلاحه، فأرسل في إحدى السنوات عبد الله بن رواحة رضي الله عنه للقيام بالمهمة فجاءت اليهود تحاول رشوته فقال لهم مقولته المشهورة يا معشر اليهود: والله إنكم أبغض خلق الله إليّ وإن رسول الله وأصحابه أحب خلق الله إليّ ولا يحملني ذلك على ظلمكم... فقالوا على مثل هذا ـ أي العدل ـ قامت السماوات والأرض[١].

ـ وفي خلافة علي بن أبي طالب دس عبد الله بن سبأ اليهودي بعض أتباعه ليقولوا عن عليّ أن الله سبحانه وتعالى حلّ فيه وأنه الإله، ودس فرقة أخرى منهم ليقولوا إن أمين الوحي (جبريل) خان الأمانة وبدل أن يوحي إلى عليّ أوحى إلى محمد.

وفرقة ثالثة تقول: إن منزلة علي من محمد منزلة هارون من موسى فهو خليفته على أمته إذا غاب عنهم[٢].

ولكن إيمان المؤمنين عامة وإيمان علي بن أبي طالب خاصة ما كان ليلتبس عليهم مثل هذه الفتنة لأن مقاييس الشريعة المحكمة كانت توزن بها المبادئ والأفكار وكانت غايتهم الحصول على رضوان الله تعالى، وما كانت الدنيا وما فيها لتزحزحهم عن التمسك بحقائق الإسلام قيد شعرة، فقاوموا هذه الدسائس والفتن أشد مقاومة، وكان لعلي رضي الله عنه مواقف شديدة مع هؤلاء حتى نبهه بعض الصحابة على ذلك وأن يقيم عليهم حكم الردة وأن

---

(١) انظر السيرة الحلبية ٣/ ٣٧٨.

(٢) انظر هذه الأقوال في الملل والنحل للشهرستاني: جـ١.
والقول الأول قالت به: السبائية ـ المرجع السابق ص٢٠٤.
والقول الثاني قالت به: العلبائية وتسمى الذميمة ـ المرجع السابق ص٢٠٦.
والقول الثالث: قالت به الجعفرية ـ المرجع السابق.

يترك حرقهم بالنار كما أراد وعزم، فقضي على الفتنة في مهدها لأنها لم تجد آذاناً صاغية ولا قلوباً تتشربها. وخسيء دهاقين الفتنة في عاصمة الخلافة فخرجوا إلى الأقطار البعيدة ليروجوا لبعض هذه المبادئ.

ـ وكانت محاولات اليهود مع سلاطين آل عثمان المسلمين للسماح لهم بالهجرة إلى أرض فلسطين والاستيطان فيها كان ذلك مع السلطان عبد المجيد خان، فأصدر السلطان أمراً بمنع اليهود القادمين لزيارة بيت المقدس من الإقامة في القدس أكثر من ثلاثة أشهر[1].

وتكررت المحاولة مع السلطان عبد الحميد الثاني[2] وجاءت الوعود اليهودية بسداد جميع الديون المستحقة على الدولة العثمانية وبناء أسطول لحماية الامبراطورية، وتقديم قرض بخمسة وثلاثين مليون ليرة ذهبية دون فائدة لإنعاش مالية الدولة وإنماء مزارعها، وإنشاء جامعة استانبول حتى لا يحتاج الطلبة الأتراك إلى السفر إلى أوربا فيتعرضوا لتأثير الأفكار الديمقراطية الضارة.. مقابل السماح بدخول اليهود إلى فلسطين، بقصد زيارة الأماكن المقدسة وإنشاء مستعمرة قرب القدس. فكان أن جابههم السلطان عبد الحميد الثاني بالرفض التام والتحقير والتوبيخ لمن حمل هذه العروض إليه. لم يجد اليهود أمامهم سوى وسائلهم المعهودة بالتآمر في الخفاء لتقويض أركان الدولة العثمانية عن طريق صنائعها، وعملائها.

إن الثوابت في دين الإسلام، والطائفة المتمسكة بشرع الله من أمة محمد ﷺ والتي يقول عنها رسول الله ﷺ **«لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى تقوم الساعة»**[3] قد أفسدت على اليهود مخططاتهم في إفساد أمر المسلمين بتحريف شرائع الله عن حقائقها وصرف أمة الإسلام بطمس معالم مسيرتها، استعصى عليهم ذلك فأضمروا لهم العداوة الشديدة والمكايد المستمرة.

---

(١) انظر كتاب الأفعى اليهودية ص٣٢ وما بعدها.
(٢) انظر كتاب اليهود تاريخ وعقيدة ص٧٥ وما بعدها.
(٣) رواه البخاري في كتاب التوحيد ٨/ ١٨٩.

وهذا الذي بينه القرآن الكريم لأمة الإسلام ليكونوا على حذر من مكائدهم يقول جل جلاله: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾ [البقرة: ١٢٠].

إن من يوهم أن يهود اليوم غير يهود الأمس وأن المفاهيم قد تطورت لديهم ويمكن المعايشة معهم، إنما يسعون خلف السراب.

ولا يمكن أن يتصور ذلك من اليهود إلا إذا تخلوا عن يهوديتهم واعتقدوا ديانة أخرى كأن يصبحوا مسلمين وهذا مستحيل عندهم، أو يتخلى المسلمون عن إسلامهم ويدخلوا اليهودية وهذا مستحيل أيضاً لأن الطائفة المنصورة من أمة محمد ﷺ لا تنقطع ولا يخلو منها جيل من الأجيال.

أو أن يسود مبدأ جديد بعيد عن اليهودية والإسلام ويعتنقه أهل المنطقة وهذا أيضاً مستحيل لأن أتباع كلتا الديانتين متمسكان بديانتهم.

يدل على ما قدمنا أقوال زعماء اليهود قديماً وحديثاً.

«فقد قال حيي بن أخطب قديماً[1] عندما قال له أخوه أبو ياسر: أهو؟ قال: نعم والله، قال تعرفه بنعته وصفته؟ قال: نعم والله قال: فماذا في نفسك منه؟ قال: عداوته والله ما بقيت».

وقال بن غوريون[2]: عام ١٩٥٣ عندما سئل عن عودة اللاجئين الفلسطينيين إلى أراضيهم: (إن عقارب الساعة لا يمكن أن ترجع إلى الوراء والحل العادل هو إسكان الفلسطينيين في الدول المجاورة. . .).

ويقول أيضاً: (نحن لا نخشى الاشتراكيات ولا الثوريات، ولا الديمقراطيات في المنطقة، نحن فقط نخشى الإسلام، هذا المارد الذي نام طويلاً وبدأ يتململ).

---

(١) انظر ما تقدم ص٨٦.

(٢) انظر معركة الوجود بين القرآن والتلمود: ص١٤، وانظر قادة الغرب يقولون: ص٦١.

قال شامير في حفل استقبال اليهود السوفييت المهاجرين إلى إسرائيل[1]: (إن إسرائيل الكبرى من البحر إلى النهر هي عقيدتي وحلمي شخصياً... وبدون هذا الكيان لن تكتمل الهجرة ولا الصعود إلى أرض الميعاد ولن يتحقق أمر الإسرائليين ولا سلامتهم).

وقال مناحيم بيجن[2]: (أنتم أيها الإسرائيليون لا يجب أن تشعروا بالشفقة حتى تقضوا على عدوكم ولا عطف ولا رثاء حتى تنتهوا من إبادة ما يسمى بالحضارة الإسلامية التي سنبني على أنقاضها حضارتنا).

كل ذلك يدل بوضوح على أن العداوة ستستمر، وأن الصراع ماض إلى أن تقع الملحمة الكبرى بين المسلمين واليهود ويكون فسطاط دولة الإسلام في بلاد الشام ويكون ملك بني إسرائيل في فلسطين، كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ الصادق المصدوق ولنا وقفة طويلة مع النصوص الكريمة التي تحدد معالم الصراع في المستقبل ـ إن شاء الله تعالى ـ.

---

(١) انظر معركة الوجود بين القرآن والتلمود: ص١٤.

(٢) انظر كتاب صراعنا مع اليهود: ص٥٩ لمحمد إبراهيم ماضي.

المَعْلَم الثامن

تسليط شعوب وأمم عليهم كلما اشتد فسادهم في الأرض

يقول عز من قائل ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾﴾ [الأعراف: ١٦٧].

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾﴾ [الإسراء: ٨].

سبق أن ذكرنا أن سنن الله سبحانه وتعالى مطردة، وأنها تستند إلى أسباب موضوعية غير مقيدة بزمان محدد أو حالات شاذة أو قيود طارئة، وسنة تسليط الله لبعض عباده على اليهود سنة مطردة تؤكدها الوقائع التاريخية، وقبل أن نسوق جملة من الأحداث التاريخية التي تؤكد هذه السنة القدرية في اليهود، نبحث عن الأسباب الموضوعية لهذه السنة.

يمكن القول إن هنالك أسباباً عامة تتعلق باليهود أنفسهم (عقائدهم والأسلوب التربوي الذي يتبعونه في تنشئة أجيالهم، وأسلوب تعاملهم مع الشعوب التي يعايشونهم وسلوكياتهم في ذلك).

ـ فالعقائد اليهودية تجعل من اليهود الشعب المدلّل المكرم على إلههم (يهوه) وهو إله اليهود دون سائر العالمين في كتب اليهود (أنا الرب إلهكم الذي ميزكم من الشعوب) سفر التكوين، الإصحاح ٢٧ ص٤٣.

يقول إبرابانيل: الشعب المختار وحده يستحق الحياة الأبدية، أما الشعوب الباقية فمماثلة للحمير حتى إنهم يعتبرون بيوت غير اليهود زرائب

للحيوانات، وأن الأرض والسماوات وما فيها خلقت من أجل اليهود ولخدمتهم، والأموال لليهود دون غيرهم ومن أخذ شيئاً من المال فقد سرق اليهودي حقه ولليهودي إعادة هذا المال إلى حوزته بالطريقة المتاحة.

إن عقيدة الاستكبار والاستعلاء على شعوب العالم لا لشيء لا لخاصية خُلقية، ولا لصفات إنسانية ولا لمزايا أدبية، بل لذات الشعب أنه الشعب المختار، أوجد لدى اليهود عقدة التمايز والعنجهية، تقول توراتهم المحرفة (لأنك أنت شعب مقدس للرب إلهك إياك قد اختار الرب إلهك لتكون له شعباً أخص من جميع الشعوب الذين على وجه الأرض) سفر التثنية الإصحاح ٧ ص٢٩.

والناس لا يسلّمون لليهود بذلك بل لكل قوم كرامته ولكل شعب من شعوب العالم انتماؤه التاريخي واعتزازه بأمجاده، وإن كان لشعب أن يتفاخر على غيره فبما قدمه للإنسانية من قيم ومُثل رفيعة وحضارة وسعادة تتلاءم مع إنسانية الإنسان، والخلق عيال الله وخيرهم خيرهم لعياله[1]. كما قال رسول الإنسانية محمد ﷺ، والميزان الرباني الذي ينبغي اللجوء إليه هو ذلك الميزان الذي لا يحابي أحداً لعنصره المادي وإنما يفاضل بين الناس بالجوهر المعنوي ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات: ١٣].

أما عقيدة الاستعلاء بالعنصر وتحقير الآخرين فهي ضلالة وجاهلية واتباع لسنة إبليس ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

كل ذلك يؤدي إلى مشاعر معينة تجاه اليهود وتوجد ترسبات في نفوس الناس حيالهم.

- والمنهج التربوي لليهود وأسلوب معيشتهم في أحيائهم في العالم يضفي عليهم نظرة خاصة.

---

(١) رواه الطبراني في الكبير، وأبو نعيم في الحلية، انظر كتاب المقاصد الحسنة ص ٢٠٠.

يعيش اليهود في كل أنحاء العالم في أحياء خاصة بهم تسمى (الجيتو)[1].

وهم يعيشون معزولين عن المجتمعات لدوافع ذاتية من أهمها:

١ ـ الحفاظ على المعتقدات والعادات والتقاليد اليهودية الخاصة لكيلا يغزوا من قبل المجتمعات، وربما كان التأثير على الشباب الناشئ فتغير نفوسهم من هذه الموروثات إلى غيرها، وخاصة إذا كان المجتمع ذا تيار فكري ومعتقدات قوية لا يصمد لها الفكر اليهودي.

٢ ـ الشعور بنوع من الأمن والطمأنينة، لأن الشخصية اليهودية مفطورة على معتقد الاضطهاد والتشرد، فمن موروثاته التي يتغنى بها وتكوّن شخصية اليهودي الثقافية ذكريات (تيه سيناء)، وقصائد أسر بابل، وأحداث شوارع روما القيصرية. فاليهودي يعيش في قلق دائم، وفي خوف من المجهول، والاستعداد للرحيل الذي يمكن أن يفرض عليه في أي وقت.

٣ ـ إبراز نوع من الاستعلاء والترفع على المجتمعات التي يعيش فيها اليهود حيث يشبهون (الأميين) ـ غير اليهود ـ بالدواب المسخرة لمصلحة الشعب المختار، فمن غير المناسب أن يعيش الإنسان مع دوابه وبهائمه في حظيرة واحدة.

٤ ـ إخفاء ما يجري بين اليهود وفي أحيائهم عن أنظار الناس من الدسائس والمؤامرات والجرائم الخلقية والخيانات التي قد تصل إلى قتل الأفراد من غيرهم، فيكونون في هذه الأحياء في مأمن من المراقبة وفي منأى عن أن

---

(١) اختلف الباحثون في سبب تسمية هذه الأحياء بالجيتو: فقيل إن الكلمة مشتقة من الكلمة الإيطالية (جيتو) أي مسكب المدافع إشارة إلى الحي المجاور لهذا المسكب الذي سكنه اليهود.

وقيل إنها مشتقة من الكلمة العبرية (جت) بمعنى الانفصال ولعلها الأقرب في الاشتقاق لأنها واردة في التلمود واليهود عندما يسكنون الجيتو يرغبون في الانفصال عن الجويم (غير اليهود). انظر في ذلك الملل المعاصرة في الدين اليهودي: إسماعيل راجي الفاروقي ص٢٣.

تطال إليهم يد العدالة غالباً لأنهم يخفون آثار الجريمة بسهولة في مثل هذا المجتمع المغلق[1].

وغالباً ما كانت هذه المجتمعات اليهودية أو بالأصح الأحياء الخاصة باليهود تتشكل في المدن التي تزدهر فيها تجارة الرقيق قديماً وتجارة النساء في العصر الحاضر وحيث تنشط المؤسسات الربوية.

يقول آدم متز: كان أغلب تجار الرقيق في أوروبا من اليهود، وكان الرقيق يجلب كله تقريباً من أوروبا الشرقية، كما هو الحال اليوم في تجارة النساء، ومن الجلي أن استقرار جاليات يهودية في مدن مقاطعة سكسونيا الشرقية، مثل مدينة مجديبورج ومرزيبورج كان راجعاً إلى تجارة الرقيق)[2].

من أجل ذلك كانت المجتمعات تضيق ذرعاً باليهود، وبخاصة إبان الاضطرابات العامة والحروب والتحولات الاقتصادية والسياسية. فاليهود لا يتركون أي أزمة في المجتمعات إلا ويستغلونها مادياً لمصالحهم الخاصة، وهناك هوة كبيرة بينهم وبين غيرهم فلا رابط يربطهم بالمجتمعات والأرض التي يعيشون فيها وعليها.

وعلى مر الأيام أصبحت هذه الأحياء (الجيتو) بمثابة سجن اختياري لليهود ومباءة فساد وقذارة حسية ومعنوية، حتى ضج منها الناس بل وبعض اليهود أنفسهم ممن لم تمسخ فطرتهم. يقول كلاتزكين: إنهم شعب قلق بلا جذور، يعيش حياة زائفة وفاسدة، ويقول إسرائيل سنجر الكاتب الصهيوني: إنهم شعب منحط، قانط، يحيا في القذارة.

ويقول فريشمان: حياة اليهود حياة كلاب تثير الاشمئزاز.

ويقول شوادرون: أحط أنواع القذارة وطفيليات بلا جذور[3].

---

(١) كما حدث في حادثة القسيس (توما) وخادمه إبراهيم عمار. انظر مقدمة كتاب الكنز المرصود ص٢١ وص٣٧ وص١١٥ من الكتاب المذكور.

(٢) انظر اليهود تاريخ وعقيدة لكامل سعفان ص٤٧.

(٣) المرجع السابق ص٤٩.

وهذا الشعور تجاه اليهود يجعلهم محط نقمة الشعوب مدار التاريخ.

- فإبان الحرب الصليبية التي أججها اليهود من خلف ستار لحمل الدول النصرانية على حرب المسلمين، كان الصليبيون يقومون بذبح اليهود في كل مدينة يمرون بها في مسيرتهم عبر أوروبا، وأحرقوا بيوتهم، فلما سقطت القدس بأيدي الصليبيين ساقوا اليهود إلى كنيسهم حيث أحرقوا.

- وفي سنة ١٢٩٠م قضى الإنجليز على اليهود جميعاً بالنفي، وتبعهم في ذلك الفرنسيون.

- وفي القرن الخامس عشر بلغ الاضطهاد باليهود أشده في أسبانيا والبرتغال ولم ينج من هذا الاضطهاد الجماعي والملاحقة الشرسة سوى الجماعات الصغيرة في إيطاليا.

- وفي عامي ١٣٤٨، ١٣٤٩ انتشر الموت الأسود في أوروبا واتهم اليهود بأنهم سمموا الآبار ومجاري المياه، فاشتدت حملة القتل والتنكيل والتشريد بالرغم من محاولة البابا (كليمنس السادس) الدفاع عن اليهود، بحجة أن الوباء من الله وأنه أصاب اليهود كما أصاب غيرهم، ولكن دون جدوى.

- وفي إيطاليا عام ١٤٤٥م وجد طفل قتيل لم يتجاوز الثانية عشرة من عمره واتهم اليهود بقتله، فانقض النصارى عليهم تقتيلاً وتنكيلاً.

- وفي ٣١ مارس ١٤٩٣ أصدر فرديناند وإيزابيلا بأسبانيا مرسومهما الرهيب بالفتك باليهود والمسلمين، فهام اليهود على وجوههم ولم يجدوا ملاذاً آمناً إلا في بلاد المسلمين.

- ظهرت في ألمانيا عام ١٨١٩ جمعية (هب هب) تهاجم اليهود الذين اعتصروا ثروات الشعوب وامتصوا دماء الأبرياء - كان هذا شعارهم.

- وفي سنة ١٨٨١م كانت أعمدة الدخان تتصاعد حول بحر البلطيق إلى البحر الأسود حيث كانت عمليات الحرق لليهود وبيوتهم وكتبهم مستمرة، وحددت لهم روسيا مناطق لا يخرجون منها، وألزمتهم الخدمة العسكرية خمسة عشر عاماً.

وكان قيصر روسيا يسخر اليهود المقيمين في بولندا ويغريهم بالعمل ضد دولتهم إدراكاً منه في نجاح اليهود في فساد المجتمع الذي يقيمون بين ظهراني أبنائه. حيث كان قيصر يطمع في اغتصاب أرض بولندا.

وكانت نظرة الشعوب النصرانية تجاه اليهود تتسم ببردة الفعل تجاه معتقدات اليهود ونظرتهم إلى غيرهم من الشعوب.

يقول باكس: لقد كان معتقداً أن اليهودي يطلب دم المسيحي لأغراض الطقوس الدينية، وأنه يسرق أطفال المسيحين، ويسمم الآبار، وينشر الأمراض، وكان في ذاكرة عامة أوروبا أن اليهود يمتصون جهود البلاد الاقتصادية، ويمثلون الطرف الخبيث الخطر الذي يسعى أبد الدهر لتحطيم المسيحية[١].

ويقول تونبي: لقد أصدر مجمع طليطلة الكنسي المنعقد من المملكة إيفيكا سنة ٦٩٤م (أن جميع اليهود يعتبرون عبيداً لأسيادهم المسيحين، وعلى هؤلاء الأسياد أن يمنعوا اليهود من ممارسة أي طقس من الطقوس الدينية، وتصادر جميع أموال اليهود لصالح خزانة الدولة، وينتزع منهم أولادهم بعد بلوغهم السابعة من عمرهم ويربون تربية مسيحية.

ولا شك أن هذا الاضطهاد لليهود وهذا العنف ضدهم لا يأتي من دون أسباب ومبررات ومقدمات.

ولا يعقل أن تجمع شعوب الأرض قاطبة على نبذهم وتحقيرهم والتضييق عليهم.

- أصدرت الحكومة النمساوية براءة التسامح ١٧٨٠م، فحرمت على اليهود أن يحصلوا على امتيازات جمع الضرائب أو تأجير شيء، كما حرمت عليهم بيع الخمور، والسكن في المناطق الزراعية ما لم يعملوا بها، ومنعوا من ارتداء أزياء مماثلة، كما منعوا من حق الاشتغال بأي مهنة أو حرفة يختارونها، وسمح لهم بالاشتغال بالوظائف المدنية والعسكرية، وبالعمل في الحرف

---

(١) انظر اليهود تاريخ وعقيدة لكامل سعفان ص٥١.

اليدوية، وبمزاولة تجارة التجزئة، ومنعوا من تدريس التلمود، وفتحت أمامهم المدارس والمعاهد العليا، كل هذا من أجل إدماجهم في المجتمع الأوروبي، وإخراجهم من قوقعة الجيتو، ومن التقاليد التي اكتسبوها عبر مئات السنين.

ـ يقول الرئيس الأميركي بينامين فرنكلين:

(في أي أرض يحل اليهود يصبح المستوى الخلقي والمعنوي منحطاً والمعاملات التجارية تجري بصورة غير شريفة... وإذا لم يطرد اليهود من الولايات المتحدة الأمريكية ـ بموجب الدستور ـ فإنهم سيفدون على بلادنا خلال مائة العام القادمة بأعداد كبيرة تؤدي إلى أن يحكموا البلاد ويغيروا شكل حكومتنا وهي ما بذلنا ـ نحن الأميركيين ـ في سبيلها دماءنا وأرواحنا وممتلكاتنا وحرياتنا الشخصية، وإذا لم يطرد اليهود من بلادنا خلال مائتي عام، فإن أبناءنا سوف يعملون في الحقول لإطعام اليهود بينما يقيم اليهود في قصورهم يفركون أيديهم فرحاً وسروراً)[1].

في سنة ١٨٢٠ كان عدد اليهود في أمريكا عشرة آلاف يهودي، وفي سنة ١٨٨٠ كان عدد اليهود ربع مليون والآن في أمريكا ما يزيد عن ستة ملايين يهودي، أكثر من نصفهم في نيويورك وحدها، ومدينة شيكاغو المدينة الرئيسية الثانية للنشاط اليهودي. ولليهود دور مؤثر في السياسة الأميركية الخارجية، ولها وزن في انتخابات الرئاسة، وكبريات الصحف والمجلات ودور الأزياء والمحطات التلفزيونية بأيديهم. فهل ستتحقق تكهنات بنيامين فرنكلين في أن يعمل الأمريكيون أجراء عند اليهود؟!!.

بعد أن أغرى اليهود نابليون بونابرت باستعمار مصر وبلاد الشام وقدموا له الأموال لحملته الشهيرة إلى مصر، تكسرت أحلامه على أسوار عكا، فرجع خائباً إلى فرنسا. وقد أحس بتوريط اليهود له فقال: «لقد عزمت على تحسين أحوال اليهود، غير أني لا أريد زيادة منهم في مملكتي، لقد عملت بالفعل كل

(١) انظر هذه الأقوال وغيرها في اليهود تاريخ وعقيدة لكامل سعفان الصفحات ٥١، ٥٨، ١١٩.

ما يثبت ازدرائي لأحقر شعب على وجه الأرض...».

وقال: «... إن الدنيا تساس من قبل جمعيات سرية فلا يجوز أن نكتم هذه الحقيقة ونغش أنفسنا».

- قال هنري فورد:

«إنني واثق من أن الحروب تتم ليستفيد طرف ما منها، وإن الطرف الذي استفاد دائماً هم اليهود العالميون، يبدأون الحرب بالدعاية التي يوجهونها من بلد ضد آخر، وقبل الحرب يتاجرون بالسلاح والذخيرة ويثرون من وراء تلك التجارة، وأثناء الحرب نفسها يثرون من القروض التي يقدمونها للطرفين المتحاربين، وبعد الحرب يضعون أيديهم على جميع مصادر الثروة في البلاد...»(١).

هذه الأقوال من زعماء لشعوب مختلفة، ولمفكرين من أمم متباينة وهذه الانتفاضات والحملات ضد اليهود من أقوام تباينت عقائدهم وتباعدت ديارهم وفي عصور مديدة على رقعة من الأوطان فسيحة تدلنا على شيء واحد أن اليهود ممقوتون من شعوب الأرض جميعاً لأسباب ذاتية في اليهود أنفسهم وليست لأحداث طارئة وظروف يمرون بها.

وفي هذا كشف لجانب من السبب الذي جعله الله سبحانه وتعالى سنة مطردة في القوم ألا وهي: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾﴾ [الأعراف: ١٦٧].

وسيتكرر ذلك إلى أن يتحقق فيهم قدر الله تعالى: «لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا اليهود فيقول الحجر والشجر يا مسلم يا عبد الله إن خلفي يهودياً فتعال فاقتله»(٢) لتكون النهاية لمن تسبب في جلب الشقاء على البشرية وليعود السلام على ربوع الأرض بعد أن يطهرها الله من أدران اليهود وشرورهم.

---

(١) انظر الأفعى اليهودية لعبد الله التل ص٢٦، ٣١.

(٢) تقدم تخريج الحديث ص٧.

المَعْلَم التاسع
الإفساد في الأرض

أ ـ الفتن وإيقاد نار الحرب:

﴿كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُۚ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادٗاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [المائدة: ٦٤].

ليس شيء كالحروب يهلك الحرث والنسل، فهي كالمحرقة التي تحرق مكاسب الشعوب والأمم، وتترك الأوطان والديار قاعاً صفصفاً، تدمّر الحضارات وتقضي على جهود الأجيال في البناء والتقدم.

ولقد أدرك اليهود هذه الآثار بجبلتهم فصرفوا جهودهم لإثارة الحروب بكل ما أوتوا من مكر ودهاء على أن لا يكونوا أحد الأطراف فيها بل يكونوا المستغلين المستفيدين منها. وكان الدافع لهم على إيقاد نار الحرب:

أولاً: الحقد الدفين على الأميين (الجويم) الذين خلقوا لخدمة الشعب المختار فتمردوا على الشعب، وسلبوه ماله وملكه بل كثيراً ما تسلطوا على اليهود فاضطهدوهم وأذاقوهم الويلات فلا بد من الانتقام منهم بإراقة دمائهم بأيديهم، وتدمير حضاراتهم.

ثانياً: استغلال الأطراف المتحاربة بتجارة الأسلحة ووسائل الدمار وإقراضهم المال اللازم بحيث يكون المنتصر في الحرب الخاسر المدين للبنوك الربوية العالمية.

ولو تتبعنا تاريخ الحروب في العالم ودرسنا الأسباب الخفية لإثارتها لما وجدنا فترة زمنية خلت من دسائس يهودية وأصابع لرجالاتهم وعملائهم في

إشعال شرارتها، إما بفتن دينية أو مذهبية أو قبلية أو اغتيالات سياسية.

وكم من فتنة أثاروها خلال العصور ولم تكتشف أسبابها إلا بعد مرور فترة من الزمن كانت الشعوب تكتوي بنارها، مما أوجد نقمة عارمة لديهم على اليهود فأشفوا غيظ قلوبهم بتدمير أحيائهم وتشريدهم والقضاء على ممتلكاتهم، ولكن بعد فوات الأوان.

فعلى المستوى العالمي استطاع اليهود أن يجندوا طاقات ملوك ورؤساء أوروبا وشعوبهم لحرب المسلمين قرابة قرنين من الزمن من ١٠٩٥ ـ ١٢٧١م. تحت شعار تخليص الديار المقدسة من يد المسلمين وقد وجد اليهود في هذه الحروب الفرصة الذهبية التي تتيح لهم تقديم القروض إلى زعماء الحملات وأمراء المقاطعات والبارونات وسلطات الكنيسة بالربا الفاحش والمتاجرة بالعتاد والأسلاب، إلى جانب الأهداف السياسية وهي إضعاف قوة الإسلام والمسيحية معاً.

وقد كبدت هذه الحروب الإنسانية أرواحاً وأموالاً لا تقع تحت الحصر[١].

وفي العصر الحديث أوقد اليهود نار حربين عالميتين امتد آثارها إلى كل أقطار العالم بل لم تسلم مدينة ولا قرية من آثارها المباشرة وأزهقت أرواح عشرات الملايين من البشر، ومحت مدناً بكاملها من الوجود وتركت عشرات الملايين الأخرى من مشوهي الحرب، وكانت نتيجة الحرب الأولى تسخير طاقات الدول العظمى لإزالة العقبة الأساسية أمام هجرة اليهود إلى فلسطين، وتم لهم ذلك بالقضاء على دولة الخلافة الإسلامية التي كانت تقف في وجه هجرة اليهود إلى فلسطين، فبانتهائها وتوزيع تركتها على الدول الاستعمارية، ووضع بلاد الشام تحت الانتداب الانجليزي الفرنسي تم لهم ما أرادوا بالهجرة وإقامة المستوطنات والتسليح لتشكيل نواة الدولة اليهودية.

وما إقامتهم المجازر لليهود في كل أنحاء أوروبا عامة وفي ألمانيا خاصة

---

(١) اليهود وراء كل جريمة: وليم كار ص٦١.

وبعد الحرب العالمية الأولى إلا ضمن خطة اليهود لترحيل اليهود جبراً عليهم إلى فلسطين، وكانوا قد أعلنوا عن إقامة اللبنة الأولى لهذه الدولة في مؤتمر بال بسويسرا عندما أعلن زعيمهم (هرتزل) عن وضع اللبنة الأولى في ذاك العام ١٨٩٧م، وقال: «إن الإعلان الرسمي لها سيتم ما بعد خمسين سنة من ذاك التاريخ. فكان التخطيط للهجرة الطوعية أو الجبرية، التي توجت باستدراجهم لهتلر على اضطهاد اليهود ـ وقد بالغوا في ذلك كثيراً بغية[1] استغلال عطف الدول على اليهود وللتوجه إلى تدمير أوروبا عامة وألمانيا خاصة. فكانت الحرب العالمية الثانية التي ما كادت تضع أوزارها، حتى تشكلت هيئة الأمم المتحدة ـ وهي الخطوة الأولى نحو الدولة العالمية التي يسعى إلى إقامتها اليهود تحت سلطة ملكهم المتوج، والخطوة الثانية أعلن عنها بوش في النظام العالمي الجديد الذي تم انفراد الولايات المتحدة الأميركية بالسيطرة على العالم.

وكل الناس يدركون مدى النفوذ اليهودي في الإدارة الأميركية السياسية وتأثيرهم في المجالس التشريعية (الكونغرس). ولا زالت هناك خطوات، ليتسلم اليهود السلطة مباشرة بأنفسهم.

وتم الإعلان عن قيام دولة إسرائيل عام ١٩٤٨م، فبادرت الدول العظمى للاعتراف بها، وهي الدول الدائمة العضوية في مجلس الأمن.

وتصريحات زعماء اليهود بعد الحرب العالمية الثانية، تدل على تخطيطهم للحرب العالمية الثالثة التي ستقضي على ثلثي سكان العالم، وبعدها يكون تتويج ملكهم على العالم وهو المسيح المنتظر عندهم، وبطبيعة الحال هو المسيح الدجال الذي يكون قيادات سلطته العسكرية والسياسية من اليهود، كما سنلقي أضواء على ذلك لاحقاً.

---

(١) يقول (ديكهام سيد) إنني ألح بصورة خاصة في القول بأن الذين يسيطرون على القضايا العالمية هم سادة المال العالميون، وبأن محركي الأحداث بصورة خاصة كانوا أثناء مؤتمر السلام ـ بعد الحرب العالمية الأولى ـ يعقوب شيف ومجموعة واربورغ، وبعض الماليين الآخرين الذين لا يهدفون إلا إلى شيء واحد، وهو تأمين هيمنة اليهود على أوروبا وعلى ألمانيا خاصة، انظر كتاب اليهود وراء كل جريمة ص١٩٦.

هذا على مستوى الحروب العالمية، أما على مستوى الفتن والاغتيالات والحروب المحلية والإقليمية فالأمر أكثر من أن يحصى: فمنذ بزوغ الإسلام، وعلى الرغم من معاهدة رسول الله ﷺ لليهود المقيمين في عاصمة الدولة الإسلامية، لم يخمد نار الحقد في قلوبهم، ولم تطفأ نار الفتنة التي كانوا يشعلونها بين المسلمين.

- فإثارة الفتن بين قبيلتي الأوس والخزرج بعد أن آخى الإسلام بينهم واستل من نفوسهم سخامة الجاهلية(1).

- التآمر على اغتيال رسول الله ﷺ، مما كان السبب المباشر لإجلاء بني النضير.

- تأليب القبائل العربية الوثنية، وتقديم الدعم المادي والمعنوي لهم للقيام بغزوة الأحزاب ونقض العهود مع المسلمين(2).

- محاولة سحر الرسول الله ﷺ بواسطة أحد شياطينهم لبيد بن الأعصم(3).

- محاولة تسميم رسول الله ﷺ في غزوة خيبر(4).

- دور اليهود في مقتل الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

- دور اليهودي عبد الله بن سبأ في إثارة الرعاع على الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه.

- الفتنة المزدوجة في عهد علي بن أبي طالب رضي الله عنه فمن مشايعين له مبايعين في ذلك إلى حد العبادة، ومن مبغضين مناوئين إلى حد

---

(1) انظر سبب نزول قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين﴾ سورة آل عمران: الآية ١٠٠، في تفسير ابن كثير.

(2) انظر ما تقدم من الكتاب ص١١٤.

(3) انظر الحادثة في صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق ٤/ ٩١.

(4) انظر في ذلك صحيح البخاري، كتاب الهبة ٣/ ١٤١.

الرمي بالكفر والردة، مما أدى إلى قتال علي رضي الله عنه للفئتين.

ـ فتن الباطنية في العصر العباسي: ميمون القداح، القرامطة، الفاطميون، الإسماعيليون، والطوائف الباطنية الأخرى في بلاد الشام وغيرها، وكلها من بذور اليهودية وتخطيطها لتدمير العالم الإسلامي بالفتن والحروب[1].

ـ الجمعيات والأحزاب السرية والعلنية في العصر العثماني: الماسونية، حزب الاتحاد والترقي، تركيا الفتاة.

أما على الصعيد الآخر ـ خارج العالم الإسلامي ـ فحدّث ولا حرج، وإن كانت آثارهم تكشف في العالم الإسلامي بسرعة وتبقى في دائرة الخسائر المادية وذلك بفضل الله سبحانه وتعالى على هذه الأمة وحفظه لدينها وإسلامها وشرائعها بحفظ الكتاب المنزل من التبديل والتحريف ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩].

فلم تصل مكائدهم وفتنهم إلى تحريف شرع الله فسرعان ما كانت تكتشف دسائسهم في القضايا العقدية وأحكام التشريع.

أما الأمم الأخرى فلم تكن لها هذه الحصانة الفكرية والأدبية فأفسدوها وحرفوها عن أصولها وأزاغوا مناهج مللها ومذاهبها، فلم يسلم دين من إفسادهم ولم تبق شرعة على منهجها.

وبين الفترة والأخرى أوحوا إلى بعض شياطينهم وعملائهم بتقلبات فكرية ومذاهب إلحادية للقضاء على مقومات تلك الأمم.

ـ فما ثورة كرومويل على العرش البريطاني إلا من تدبيرهم، وقضاؤه على ملك بريطانيا شارلس الأول عام ١٦٤٩م إلا من تخطيطهم.

ـ والثورة الفرنسية التي اندلعت عام ١٧٨٩م والتي قدمت فيها الألوف إلى المقصلة كانت بتخطيط اليهود وتمويلهم، وكان لروتشيلد الأول الدور البارز فيها.

---

(١) انظر في ذلك: مكايد يهودية عبر التاريخ لعبد الرحمٰن حبنكة ص١٥٨ وما بعدها.

ـ تمويل حملة نابليون بونابرت في أوروبا إلى مصر وبلاد الشام.

ـ التمهيد للثورة الاشتراكية في أوروبا والشيوعية في روسيا القيصرية في الأعوام ١٨٦٠، ١٩٠٥، إلى نجاحها في روسيا ١٩١٧م وتم كل ذلك بواسطة المفكرين والمخططين اليهود، أمثال كارل ماركس وانجلز....[١]

لقد استخدم اليهود في فتنهم تلك كل الوسائل المتاحة لديهم من الرشوة والمال والتهديد بالفضائح الجنسية لأصحاب النفوذ والسلطة ولعائلاتهم، منها ما كان واقعاً ومنها ما لفّق عليهم تلفيقاً بالإضافة إلى الاغتيالات على يد المأجورين من عملائهم وقد شملت الاغتيالات التي خطط لها اليهود:

ـ اغتيال امبراطورة النمسا ١٨٩٩م.

ـ واغتيال ملك إيطاليا ١٩٠٠م.

واغتيال الرئيس الأمريكي ماكينلي عام ١٩٠١م.

ـ واغتيال الأمير الروسي الغراندوق سرجيوس (عم قيصر روسيا) عام ١٩٠٥م.

ـ اغتيال ملك البرتغال وولي عهده عام ١٩٠٨م.

ـ اغتيال الأرشيدوق فرانسوا فرديناند وولي عهد الامبراطورية النمساوية وزوجته في مدينة سراجيفو في يوغوسلافيا يوم ٣٨ حزيران ١٩١٤، وكانت الشرارة التي فجّرت بارود الحرب العالمية الأولى.

كانت هذه الاغتيالات المتلاحقة من تدبير أساطين البيوتات الربوية من اليهود لتمهيد الطريق لبعض عملائهم في الوصول إلى السلطة في بعض الأقطار ولإلقاء المسؤولية عن هذه المظاهر الفوضوية على المسؤولين السياسيين لعجزهم عن كفالة الاستقرار، ولتهيئة الأجواء لحرب عالمية لتكون سوقاً هائلة لصرف الإنتاج الذي تكدست به مستودعات المصانع الحربية في أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين[٢].

---

(١) انظر في ذلك مكايد يهودية عبر التاريخ ص١٩٣ وما بعدها.

(٢) انظر في ذلك كتاب اليهود وراء كل جريمة ص١٧٢، ص ٢٢٦.

ب ـ تدمير الأخلاق:

إن السياج الذي يحمي الأمم من الانحلال والدمار هو سياج العقيدة والسياج الخلقي المنبثق منها.

ولا تخلو أمة من عقائد تحيط أفرادها بنوع من التنظيم، تتوجه فيها مشاعرها إلى مقدسات تقدسها، وتنبثق منها أخلاق يلتزم بها الأفراد لتنظيم صلاتهم وحجر بعضهم عن بعض في الأعراض والدماء والأموال، والعقائد المنزلة على أنبياء الله ورسله على رأس هذه العقائد. وكلهم قد جاء بعقيدة التوحيد. ومن هذه العقيدة انبثقت الأخلاق الربانية من الصدق والكرم والشجاعة والإيثار والوفاء بالعهد والتواضع.

وعلى الرغم من انحراف كثير من الديانات السماوية القديمة عن عقيدة التوحيد فإن جملة الأخلاق لا زالت تترك آثاراً على مستوى الأفراد والمجموعات البشرية بل حتى كثير من العادات المتوارثة التي لا تتصل مباشرة بديانات سماوية تعارف أصحابها على أخلاق اجتماعية معينة.

وقد أثنى الرسول ﷺ على بعض الأخلاق في العرب الوثنيين في الجاهلية فعندما كان يعرض نفسه على قبائل العرب في موسم الحج ومعه أبو بكر مر على بني شيبان بن ثعلبة فتقدم أبو بكر وعرفهم برسول الله ﷺ فقال مفروق ـ وهو من سادتهم ـ إلى ما تدعو يا أخا قريش؟ فتقدم رسول الله ﷺ فقال: ادعو إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأني رسول الله، وإلى أن تؤوني وتنصروني..

وتلا رسول الله ﷺ: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾ [الأنعام: ١٥١]. فقال مفروق: وإلى ما تدعو أيضاً يا أخا قريش؟ فتلا رسول الله ﷺ: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ

يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [النحل: ٩٠]. فقال مفروق: دعوت والله يا أخا قريش إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، والله لقد أفك قوم كذبوك وظاهروا عليك. . . وقال هانئ بن قبيصة ـ وهو صاحب دينهم ـ: قد سمعت مقالتك يا أخا قريش، وإني أرى إن تركنا ديننا واتباعنا إياك على دينك لمجلس جلسته إلينا ليس له أول ولا آخر زلة في الرأي، وقلة نظر في العاقبة وإنما تكون الزلة من العجلة، ومن ورائنا قوم نكره أن نعقد عليهم عقداً، ولكن ترجع ونرجع وتنظر وننظر. . وقال المثنى بن حارثة ـ وهو صاحب حربهم ـ. . . وإنما نزلنا على عهد أخذه علينا كسرى أن لا نحدث حدثاً ولا نؤوي محدثاً، وإني أرى هذا الأمر الذي تدعونا إليه هو مما تكرهه الملوك، فإن أحببت أن نؤويك وننصرك مما يلي مياه العرب، فعلنا، فقال رسول الله ﷺ: ما أسأتم في الرد، إذ أفصحتم بالصدق، وإن دين الله لن ينصره إلا من حاطه من جميع جوانبه أرأيتم إن لم تلبثوا إلا قليلاً حتى يورثكم الله أرضهم وأموالهم ويفرشكم نساءهم، أتسبحون الله وتقدسونه فقال النعمان بن شريك: اللهم لك ذا، فتلا رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ [الأحزاب: ٤٥، ٤٦]. ثم نهض النبي ﷺ فأخذ بيد أبي بكر وقال: «**يا أبا بكر أية أخلاق في الجاهلية، ما أشرفها!! بها يدفع الله بأس بعضهم عن بعض، وبها يتحاجزون فيما بينهم**»[1].

ومنذ أدرك اليهود هذه الحقيقة في الأمم وجهوا جهودهم ومكرهم إلى تدمير هذا السياج بشتى الوسائل والأساليب، ليس للسيطرة على القطعان البشرية وتوجيهها وقيادتها عن طريق شهوتي الفرج والبطن، بل استغلال ذلك في سبيل استنزاف طاقات هذه الشعوب ومد خزائن دهاقنة المال بالذهب، وقد اتبعوا في ذلك الوسائل التالية:

١ ـ السيطرة على وسائل الإعلام وتوجيهها توجيهاً إباحياً إلحادياً، لإثارة

(١) انظر الرواية مفصلة وبأطول من هذا في الروض الأنف للسهيلي حاشية سيرة ابن هشام٢/ ١٨٢.

الغرائز البهيمية من خلال الصحافة اليومية والأسبوعية والسينما والتلفاز والإعلانات التجارية[1].

فالخبر والقصة والمسابقة... كلها توجه لإثارة الغرائز وتزيين الفاحشة لدى الناس وخاصة طبقة الشباب.

٢ ـ السيطرة على أنشطة المؤسسات الشبابية، من النوادي والاتحادات الشبابية ووزارات الشباب والرياضة، وتوجيهها توجيهاً عبثياً لاهياً بعيداً عن توجهات الأمة وأهدافها وتفريغها من محتوياتها الجهادية والتربوية[2].

٣ ـ السيطرة في كثير من بلدان العالم على المؤسسات التعليمية بواسطة عملائهم وإبعاد التعليم عن العقائد الدينية، ناهيك عن السيطرة على المؤسسات الثقافية العالمية كاليونسكو[3].

٤ ـ تبني مدارس اجتماعية ونفسية، وتوجيهها حسب مخططاتها ونشر دراساتها تحت شعار البحث العلمي الموضوعي، كالمدارس التي برزت في أوروبا في القرن الثامن عشر والتاسع عشر، كمدرسة فرويد، والمدرسة الوجودية بزعامة سارتر... إلخ.

مما جعلتها تسود مناطق شاسعة في العالم وتوجه أجيالاً من الناس لا تربطهم بأمتهم أية روابط عقدية أو قومية، بل وكان لها التأثير السيء على روابط الأسرة ودورها في الترابط الاجتماعي.

٥ ـ تبني تجارة الرقيق الأبيض وفتح دور الدعارة، وحمل كثير من دول العالم على سنّ قوانين بحمايتها وتنظيمها والدفاع عنها، ووصل الأمر برواد هذه الدور ومنسوبيها أن تشكل نقابات وجمعيات للدفاع عن مكانتهم

---

(١) انظر الإحصائيات في سيطرة اليهود على وسائل الإعلام في العالم كتاب النفوذ اليهودي في الأجهزة الإعلامية والمؤسسات الدولية، فؤاد بن سيد عبد الرحمٰن الرفاعي ص١١ وما بعدها و٣٦ وما بعدها، وكذلك جذور البلاء ص ١٨٤.

(٢) انظر في ذلك كتاب حصوننا مهددة من داخلها للدكتور محمد محمد حسين ٨٣ وما بعدها.

(٣) انظر في ذلك المرجع السابق ص ٢٧٨ وما بعدها.

الاجتماعية، بل أصدرت كثير من الدول أنظمة وقوانين بالسماح للشواذ بممارسة شذوذهم وإعادة الاعتبار الاجتماعي إليهم.

وبعد أن نجح اليهود في ذلك كله وحطموا الحواجز التي كانت تحمي الأخلاق والأسرة من الضياع والذوبان، وصار كثير من الأمور التي كان ينظر إليها المجتمع بازدراء صارت أموراً مألوفة فالزنا والعري وخروج المرأة مع من تشاء ومتى تشاء من غير أن يكون للأب والأخ والزوج الحق في الاعتراض عليها بنص القانون.

كانت بقية من الأخلاق تمنع من ممارسة الزنا من المحارم، والسعي الحثيث الآن لإزالة هذه البقية الباقية، فالحملة قائمة الآن في أوروبا وأمريكا وغيرها من دول العالم لتبني الإباحية المطلقة، ومنطلقاتهم في ذلك منطلقات تلمودية التي تنسب الزنا إلى أنبياء الله بالمحارم.

والمتتبع لمجريات الأمور ينظر أن بروتوكولات حكماء صهيون المستمدة من التلمود قد بدأت بالتدمير خطوة خطوة، فتدمير الروابط الدينية لدى الأجيال أدى إلى إضعاف المقومات الأخلاقية وبالتالي إلى انهيار السياج الواقي للروابط الاجتماعية، ليصبح الناس قطعاناً من البهائم تساق إلى حيث يريد الجلادون استغلالهم أو تسخيرهم أو حتى تدميرهم والقضاء عليهم[(١)].

في كثير من دول الغرب تتبنى مدارس البنات في المرحلة الإعدادية والثانوية تقديم حبوب منع الحمل للطالبات مجاناً وذلك بغية مساعدتهن في التغلب على المشاكل الناتجة عن الممارسات الجنسية وتدل بعض الإحصائيات أن ٦٠٪ من طالبات المدارس هذه تتناولها بانتظام.

وهكذا هزمت اليهودية العالمية الفضيلة في دول أوروبا وأمريكا، وانتصرت دعوى الانحلال والرذيلة والفسق والفجور، وبانتصار اليهود في ذلك يقتربون من أهدافهم التلمودية ومقررات حكمائهم التي تنص صراحة على ضرورة تدمير أخلاق الشعوب ليسهل على اليهود حكمها وتسييرها كالعبيد

---

(١) انظر في ذلك كتاب جذور البلاء، عبد الله التل ص١٧٢ وما بعدها.

لخدمة اليهود في كل مكان، ويهدف اليهود كذلك إلى تخريب سنة الحياة في التناسل بين الذكر والأنثى، . . . والغريب أن حكام الغرب وفلاسفته وقادة الفكر قد أعمتهم الدعاية اليهودية، فلم يعودوا يرون الهوة السحيقة التي تقودهم إليها فلسفة اليهود المدمرة في الحياة[١].

(١) جذور البلاء ص١٨١.

المَعْلَم العاشر

التفرق والخلاف والشتات ماض في اليهود إلى وقت مجيء الوعد الحق

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أُمَمًا﴾ [الأعراف: ١٦٨].

﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ﴾ [المائدة: ٦٤].

﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر: ١٤].

من سنن الله القدرية في اليهود التفرق والخلاف والعداوة والبغضاء بين بعضهم، وعدم اجتماع كلمتهم، وشتاتهم في العالم.

إن من يقرأ سيرة اليهود قبل بعثة موسى عليه السلام فيهم وبعدها، وقبل الخروج من مصر وبعده وقبل التيه وبعده، وقبل أن يكون كيان دولة وبعده في عهد داود وسليمان عليهما السلام، وقبل بعثة محمد ﷺ وبعدها وإلى يومنا هذا يجد أن التمزق والتفتت في صفوف اليهود أمر حتمي لا يستطيع أحد أن ينكره على الإطلاق.

وليس هذا الخلاف والتفرق في أسباطهم وبين طوائفهم وفئاتهم بل بينهم وبين قياداتهم الفكرية والعسكرية والسياسية، ولئن اجتمعت كلمتهم في بعض الظروف الطارئة كأن يجمعهم تسلط جبار عليهم يسومهم سوء العذاب كما فعل فرعون وبختنصر بهم.

أو تمكن من رقابهم أحد ملوكهم الحازمين مثل طالوت وداود وسليمان فألزمهم بأنظمة الدولة وسياسات الحكم.

لئن كان ذلك في فترات متقطعة من تاريخهم فسرعان ما تبرز الخلافات ويكون الشقاق لتتحقق فيهم سنة الله ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر: ١٤].

ـ ففي خروجهم من مصر والرعب يملأ قلوبهم وجنود فرعون في أثرهم، وهم يقولون لموسى أين المفر ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾، وبعد أن أوحي إلى موسى ﴿أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾ لم يتفقوا على الدخول في الطريق اليابس بل طلب كل سبط أن يكون لهم طريقهم الخاص بهم، ولا يمكن أن يسير سبطان في طريق واحدة(١).

ـ وفي الصحراء بعد أن نجوا من حال الذل والاستكانة واستقر بهم المقام في الصحراء احتاجوا إلى الطعام وإلى الماء، وأمر الله جل جلاله موسى عليه السلام أن يضرب بعصاه الحجر، كان من بني إسرائيل نفس الموقف السابق ولم يشأ أبناء سبط من الشرب من ينبوع السبط الآخر، فكان أن دعا ربه ليفجر لهم من الينابيع بعدد الأسباط الاثني عشر ﴿۞ وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [البقرة: ٦٠].

ـ وبعد أن كان لهم دولة وكيان كانت مملكتا يهوذا والسامرة وكان بينهما من القتال والخصومات ما لم يكن بينهم وبين الوثنيين المحيطين بهم مما أدى إلى انتهاء الكيانين(٢).

ـ وفي الجزيرة العربية وبعد أن استوطنوا المستعمرات حول يثرب دخل بنو قينقاع في حلف مع الخزرج ودخلت بنو النضير وبنو قريظة مع الأوس وكانت القبائل العربية وثنية تعبد الأصنام، وعندما يحدث القتال كان اليهود يناصرون حلفاءهم وربما وقع بينهم قتلى وأسرى، فلما كانوا يجدون في كتبهم

---

(١) انظر الدر المنثور ٦/ ٢٩٤.

(٢) انظر في ذلك قصة الحضارة لديورانت ٢/ ٣٢١ وما بعدها في تاريخ اليهود.

أنه لا يجوز أن يأسر اليهودي أخاه اليهودي، جمعوا المال من بعضهم ليفكوا الأسرى اليهود الذين وقعوا في أيدي حلفائهم.

وهذا ما سجل عليهم القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [البقرة: ٨٤ ـ ٨٦].

ـ وفي تاريخ اليهود في أوروبا وشتاتهم في دول العالم عبرة للمعتبرين.

ـ وفي عصرنا الحاضر وفي دولة إسرائيل اليوم من التفرقة العنصرية بين اليهود الغربيين الذين يسمون (الاشكنازيم) وبين اليهود الشرقيين الذي يسمون (السفارديم) من العداوة والبغضاء والكره ما ليس بين اليهود وبين غيرهم والتصريحات التي يطلقها قادة هذه الأحزاب والفئات ضد غيرهم تدل على عمق الهوة بينهم[1] وما تخفيه صدورهم أعظم من ذلك بكثير.

---

(١) تقول يهودية روسية ذات ثقافة أكاديمية: (صحيح أننا نكرههم وصحيح أنهم يكرهوننا إننا إسرائيليون وهم إسرائيليون، يبدو أن سوراً كبيراً يفصل بيننا، إننا نعيش في مستويات مختلفة ومفاهيم مختلفة، إننا نتحدث بشكل آخر ونفكر بشكل آخر وينظر الواحد منا إلى الثاني بشكل آخر، إن هذا لأكثر من طائفتين مختلفتين، هذا بمثابة شعبين مختلفين، صدقني هذه ليست عنصرية، إن ذلك ليس مسألة لون جلد، ولا مسألة البلد الأصلي، إن الذي يحدث ناجم عن الكراهة الثقافية إنني أكرههم لأنني أتخوف من الانتقال ليلاً في تلك الشوارع التي يتجولون فيها إنني أكرههم بسبب نظرتهم... بسبب كلماتهم البذيئة التي يطلقونها خلفنا، وبسبب جميع الأعمال الخسيسة التي يحاولون القيام بها ضدنا، إنني أكرههم لأنهم يلوثون المباني، ويقومون بتدمير الممتلكات العامة ويمقتون الجمال، ويستحسنون الوساخة، إنني أكرههم لأنهم يكرهوننا لأننا أنظف وأجمل، فبدلاً من أن يحاولوا أن يكونوا مثلنا يحاولون أن نكون نحن مثلهم). =

لقد أصبح التمزق والفرقة والخلاف، والعيش ضمن فئات متنافرة في العالم، وفي أحياء خاصة بهم في المدن (الجيتو) أصبح فلسفة يهودية ينادي بها قادة الفكر ودهاقنة المال، لأن طلائعهم التي تجوب العالم الجديد، الأقطار المتخلفة التي تحتاج إلى خبرات زراعية وصناعية ورؤوس أموال توفر لهم ميادين جديدة للاستغلال والسيطرة ونشر الفساد الخلقي، وفرص توظيف رؤوس الأموال من غير تكلفة تذكر وحيث المنافسة التجارية والصناعية معدومة كل ذلك يجعلهم يتشبثون بفكرة الشتات ولا زال كثير من أرباب العلم والفكر ينادون في اليهود: إن سر قوتكم في شتاتكم وتفرقكم، ويحذرونهم من التجمع في فلسطين.

- فقد أكد مؤتمر لنسبرج في نوفمبر ١٨٨٥ إعلان زعماء اليهود المجتمعين: «نحن لا نعتبر أنفسنا من الآن أمة، وإنما نحن مجتمع ديني، ولهذا لا نقبل العودة إلى فلسطين، ولا التعبد بالقرابين وراء أبناء هارون، ولا استعادة أي من القوانين الخاصة بالدولة اليهودية».

- وظهر احتجاج في ١٦ يولية ١٨٩٧ في جريدة يهودية ألمانية موقعاً من مجلس الحاخامات جاء فيه (إن محاولة الصهاينة لإرساء أساس دولة يهودية في فلسطين تتعارض مع الدعوة اليهودية كما وردت في الكتاب المقدس وفي الوثائق الدينية بعد ذلك).

- وانتقد لوري ماجنس الدعوة الصهيونية في لندن سنة ١٩٠٥ بقوله: «إن الدكتور هرتزل ومن يقفون إلى جانبه خونة للتاريخ اليهودي الذي قرأوه وفهموه بطريقة خاطئة، وهم أنفسهم جزء من صانعي سياسة العداء للسامية التي

= هذا ما قالته الفتاة الروسية معبرة عن حقدها وكرهها للطوائف الشرقية من اليهود مع اعترافها أنها طوائف إسرائيلية مثلهم...

وهذا مصداق لقوله تعالى: ﴿... **بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون**﴾ سورة الحشر، الآية ١٤.

انظر كتاب: فلسفة وأهداف تربية الطفل اليهودي في فلسطين ص٤٥. من وضع الباحثين محمد مختار ضرار المفتي وأحمد محمد زبادي.

يعترفون بأنهم يذبحونها، إذ كيف تستطيع البلاد الأوربية التي يعتزم اليهود تركها أن تبرر استبقاء اليهود؟ ولماذا بذل اليهود جهوداً شاقة لكسب المساواة الدينية، إذا كانوا هم أنفسهم أول من سيتخلون عن مكانهم، ويكتفون بكرم الضيافة»[1].

لقد ناضل اليهود طويلاً في دول أوروبا حتى حصلوا على الاعتراف بهم كمواطنين يتمتعون بما يتمتع به المواطن في تلك الدولة من الحقوق المدنية، وليعترف لهم بممارسة شعائرهم وطقوسهم الدينية حسب شرائع التلمود، وكان الخوف من أن تسحب منهم تلك الحقوق إذا وجدت لهم دولة وكيان وأن يجبروا إلى الرحيل إليها، وبذلك تفوتهم المصالح التجارية والصناعية وهذا ما صرح به بيجر في برلين عام ١٩٠٥ قائلاً: «قد يترتب على هذا الموقف ـ الدعوة إلى إقامة وطن قومي لليهود ـ سحب الحقوق المدنية الذي يلزم أن يتخذه التشريع الألماني ضد الصهيونية، ويكون الرد الوحيد الذي يمكن أن يصدر عن الضمير القومي الألماني».

ـ وكتب الوزير اليهودي في الحكومة البريطانية ـ عندما علم عزم الحكومة البريطانية إصدار وعد بلفور ـ محتجاً:

«لقد بدت الصهيونية لي دائماً عقيدة سياسية لا يمكن أن يؤمن بها أي مواطن مخلص للمملكة المتحدة، ذلك أن اليهودي الإنجليزي الذي يتطلع إلى جبل الزيتون ويتوق إلى اليوم الذي يستطيع فيه أن ينفض عن حذائه التراب البريطاني، ويعود إلى نشاطه الزراعي في فلسطين، إنما يعترف بذلك أنه لا يصح للاشتراك في الحياة العامة في بريطانيا العظمى». وبرر احتجاجه بمبادئ أربعة هي:

ـ عدم وجود أمة يهودية تجمع بينها مقومات الأمة الواحدة.

ـ إن الدول ستتخلص من اليهود المقيمين فيها بمجرد القول إن فلسطين وطنهم.

---

(١) اليهود تاريخ وعقيدة ص٦٧.

ـ إن فلسطين ليست مشتملة على مقدسات اليهود وحدهم بل هناك المقدسات المسيحية والمقدسات الإسلامية.

ـ تعداد اليهود في العالم يبلغ ثلاثة أضعاف ما تستوعبه فلسطين[1].

ولم تنته الاحتجاجات على تجميع اليهود في فلسطين بل استمرت حتى بعد قيام الدولة الإسرائيلية في فلسطين:

فقد أقر مؤتمر فيلادلفيا في نوفمبر ١٩٦٩ إن الهدف الإلهي لإسرائيل ليس هو استعادة الدولة اليهودية القديمة، تحت حكم أحد خلفاء داود، وهو ما يستلزم أن ينفصل اليهود للمرة الثانية عن أمم الأرض. وإنما الهدف هو اتحاد جميع أبناء الله في الاعتراف بوحدة الله، بما يحقق وحدة جميع المخلوقات العاقلة ودعوتهم إلى القداسة الروحية».

ولقد استطاعت الحركة الصهيونية بإمكاناتها المادية وأبواقها الإعلامية ونفوذها السياسي أن تتغلب على الأصوات المناوئة، بل وسخرت السياسة العالمية والقوى العظمى في خدمة اليهود وتسهيل هجرتهم إلى فلسطين، وأزالت جميع العقبات التي وقفت في وجه الهجرة اليهودية إلى فلسطين. وكما قدمنا سابقاً أن إشعال الحرب العالمية الأولى كان من أهم دوافعها إزالة الخلافة العثمانية من الوجود لأنها كانت العقبة الكؤود في طريق الاستيطان اليهودي في فلسطين.

وفي الثلاثينات من هذا القرن دفعوا هتلر دفعاً للفتك باليهود لتحقيق غرضين:

أولهما: لاستدرار العطف العالمي على اليهود المشتتين الذين لا وطن لهم فلا بد من إعطائهم وطناً قومياً يؤويهم، وضخموا من الاضطهاد النازي لهم، مما جعل ألمانيا تشعر بعقدة الذنب بعد عشرات السنوات وتدفع التعويضات الهائلة إلى إسرائيل.

---

(١) اليهود تاريخ وعقيدة ص٦٩.

ثانيهما: إجبار اليهود المترددين في الهجرة للتوجه إلى فلسطين كمأمن لهم من اجتياح دول المحور لأوروبا وروسيا وما أن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها حتى أعلن عن قيام دولة إسرائيل وتسارعت الدول الكبرى وتسابقت للاعتراف بها، وسخرت إمكاناتها، بل وإمكانات هيئة الأمم المتحدة ـ الصهيونية الفكرة والولادة والمنشأ ـ لتجميع اليهود في فلسطين، ورعاية شؤونهم.

ولكن لنا فهم آخر في سر تجمعهم في فلسطين، إنها السنة الإلهية القدرية لقرب وعد الآخرة ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ [الإسراء: ١٠٤].

إن سنن الله القدرية لا بد من تحققها، وليس بالضرورة أن تكون عن طريق أمور قاهرة معطلة لإرادة من تجري عليهم السنة، بل قد تسخر إرادتهم لهذه السنة الإلهية، فلو أن أمم الأرض اجتمعت على إجبار اليهود في سكنى رقعة من الأرض لما استطاعت أن تسخر إمكانات اليهود المادية وطاقاتهم الإعلامية ودهاءهم السياسي وعبقريتهم في التآمر والخداع لتنفيذ خطة التجميع.

إلا أن الله جل جلاله عندما أراد تحقيق وعده بتجميعهم، أوجد في نفوس اليهود الرغبة العارمة للتجمع في أرض المعاد لإقامة دولتهم وانتظار ملكهم المرتقب لينقذ الشعب المختار وينتقم من أعدائهم ويقيم مملكتهم العالمية.

نعم إنها الحكمة الإلهية وإنه الوعد الحق الذي لا مرية فيه، إنهم يمهدون لظهور منقذهم المسيح الدجال الذي سيفسد في الأرض ويستدرجه الله جل جلاله بإعطائه الإمكانات التي يدجّل بها على الناس ويموّه عليهم الحقائق فيدعو إلى عبادته من دون الله ويتبعه اليهود من كل أنحاء العالم فيكونون أركان دولته وسدنة حكمه وطغيانه، لتقوم بعد ذلك الفئة المؤمنة من جند الله وعباده الصالحين من أمة محمد ﷺ وليتولى المهدي ومن ثم المسيح عيسى ابن مريم قيادتهم في حرب هذا الشر العالمي المستطير فيقتل عيسىٰ ابن مريم عليه السلام، ملك الكفر والدجل والطغيان بحربته في باب اللد، لتوضع النهاية لإفساد اليهود في الأرض ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله[1].

---

(١) سيأتي المزيد من التفصيلات في القسم اللاحق عند الحديث عن الصراع مع اليهود في المستقبل بإذن الله.

المَعْلَم الحادي عشر

العلو والاستكبار في الأرض مرتين

وتسليط عباد الله عليهم لتدميرهم للمرة الآخرة

- ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾﴾ [الإسراء: ٤ ـ ٧].

- ﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء: ١٠٤ ـ ١٠٩].

ألا ليت قومي يعلمون

إن من سنن الله القدرية وقوع الصراع بين المؤمنين والكافرين سنة التدافع بين الكائنات بين الصالح والطالح، وبين الطيب والخبيث وبين القوي والضعيف وبين القلة المتميزة والكثرة الغثائية، بين أهل الحق وأهل الباطل إنها من سنن الله في كونه التي لا تخلو منها حقبة أو جيل أو زمان أو مكان، والآيات القرآنية تشير إلى هذه السنة في أكثر من موضع من القرآن العظيم ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١].

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج: ٤٠].

﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨].

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾﴾ [سبأ: ٤٨].

ومن هذه السنن التي لم تتخلف ولن تتخلف الصراع بين أهل الإيمان وبين أهل الكفر وأهل الإيمان أمة واحدة وملة واحدة ذات منهج واحد تجمعهم كلمة التوحيد يعملون تحت راية إعلاء كلمة الله ويهدفون إلى إقامة حكم الله في الأرض وتحقيق العبودية في أنفسهم لله رب العالمين.

أما أهل الباطل والكفر فملل شتى ومذاهب مختلفة ومشارب متنوعة ولكن تجمعهم عداوة أهل الإيمان الموحدين.

وكان يمثل أهل التوحيد في سالف العصور أتباع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أتباع نوح وإبراهيم ولوط وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف وموسى وهارون وداود وسليمان وزكريا ويحيى وعيسى والياس واليسع وأيوب وذا الكفل وشعيب وهود وصالح ويونس. وكان واسطة العقد أمة خاتم النبيين وسيد المرسلين محمد ﷺ.

وبانقطاع سلسلة النبوة أكرم الله هذه الأمة بمجددين[1] يجددون لها أمر دينها كلما وجد الانحراف ووقع التساهل في الالتزام بأحكام شرع الله وكان في العصور السابقة يعادي أهل الحق قبائل وأقوام قريبون أو بعيدون من النبي، ولكن قوماً واحداً لم يكتب أنهم استمروا على وتيرة واحدة في معاداة الحق ومحاولة طمسه وإزهاق أرواح الدعاة إليه خلال أحقاب مديدة من التاريخ البشري كما كان حال اليهود.

بل دلت الكتب المنزلة عليهم، وكذلك الكتب السماوية الأخرى على أن معاداتهم للحق وأهله سيستمر إلى قيام الساعة، وفي كل ذلك هم رأس الحربة في مقاومة أهل الحق. وهم رواد الفساد والإفساد في الأرض في كل عصر.

ولسنا بصدد التكوين الفكري والنفسي والعاطفي لهذا الشعب مما أدى به أن يكون له هذا الدور في تاريخ البشرية، وإنما نحن بصدد إلقاء أضواء على ما ينتظر هذه الأمة في مستقبل أيامها من المجابهة مع اليهود وذلك لا رجماً بالغيب وإنما على ضوء النصوص الكريمة من آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة، وما ورد في نصوص الكتاب المقدس مما نظن أنه لم تطله أيدي اليهود بالتحريف والتزوير، وإن كانوا قد فهموه فهماً خاطئاً أو أوّلوه عن قصد عن دلالاته الصحيحة، وكذلك على ضوء معطيات الأحداث الراهنة التي نعايش وقائعها الآن.

إننا نتوقع أن المرحلة الجديدة في علو بني إسرائيل الكبير الثاني للإفساد في الأرض التي أشارت إليها الآية الكريمة في قوله تعالى ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ[2] لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ[3] وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤].

---

(١) انظر مختصر سنن أبي داود كتاب الملاحم ٦/ ١٦٣.

(٢) المراد بالكتاب قيل اللوح المحفوظ الذي دونت فيه ما يجري من الأحداث في الكون إلى قيام الساعة. انظر زاد المسير لابن الجوزي ٥/ ٧. وتفسير الطبري ١٥/ ٦٦.
وقيل المراد بالكتاب التوراة. وهو قول جمهور المفسرين، انظر تفسير أبي السعود المسمى (إرشاد العقل السليم ٣/ ٤٢٤). والبحر المحيط ٦/ ٨. والبيضاوي بحاشية زاده ٣/ ٢١٠.

(٣) ذهب جمهرة من المفسرين إلى أن المرة الأولى كانت بعد مملكة سليمان وكان دمارهم على يد بختنصر البابلي، والثانية لم تقع بعد.. انظر في ذلك المراجع السابقة.

بدأت بذورها من بداية مؤتمر اليهود في بال بسويسرا عام ١٨٩٧م، والتي وضعوا فيها المخطط المدروس لإفساد العالم، وأعلن فيها هرتزل بوضع اللبنة الأولى في دولة إسرائيل وتوقع الإعلان عن قيامها بعد نصف قرن من ذاك الوقت وقد تحقق حلمه عام ١٩٤٨م بإعلان قيام إسرائيل، ومنذ ذاك الوقت إلى الآن وعلو بني إسرائيل في تزايد مستمر فكان اليهود المستفيدين الوحيدين من حربين عالميتين أزهقت أرواح الملايين من البشر، وأتلفت الموارد المالية من المصانع والمزارع وأتت على الأخضر واليابس وقضت على دول وأبادت شعوباً وأقامت دولاً مصطنعة وأوجدت حدوداً وسدوداً في وجه ذوي القربى والأرحام وقطعت أوصال الأمم كل ذلك صب في النهاية لمصلحة أرباب البيوتات المالية من يهود العالم[1] ليحكموا قبضتهم على خناق دهاقنة السياسة العالمية وقادة الأحزاب المتحكمة في مصاير الشعوب والأمم[2] لتستنفر القوى العالمية وتسخر نفوذ الأمم المتحدة بلجانها وهيئاتها ومؤسساتها في تجميع اليهود في فلسطين تحت شعارات مختلفة من المطالبة بحقوق الإنسان، إلى مراعاة الحرية الشخصية، إلى كسر طوق الستار الحديدي، إلى تطبيق الديمقراطية، إلى النظام العالمي الجديد..

ووراء تلك الأسباب الظاهرية ـ في اعتقادنا ـ يد القدرة الإلهية لتحقيق سنة الله القدرية الأخرى في شأن اليهود والتي أشارت إليها الآية الكريمة الأخرى في نفس السورة ـ سورة الإسراء ـ وتسمى سورة بني إسرائيل أيضاً ـ في قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ[3] جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا

---

(١) انظر في ذلك كتاب اليهود وراء كل جريمة ص٢٣٣ وما بعدها.

(٢) انظر الأفعى اليهودية في معاقل الإسلام لعبد الله التل ص٢٩ وما بعدها.

(٣) ذهب بعض المفسرين إلى تفسير الآخرة بيوم القيامة والبعث بعد الموت، ونحن نرى أن هذا القول مرجوح لأن حشر الناس جماعات جماعات ليس خاصاً ببني إسرائيل يوم القيامة بل هو حشر عام للبشرية جميعاً فلا خاصية لبني إسرائيل في ذلك قال الكلبي ﴿فإذا جاء وعد الآخرة﴾ يعني مجيء عيسى عليه السلام من السماء انظر تفسير القرطبي ٣٣٨/١٠.

﴿فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾﴾ [الإسراء: ١٠٥ ـ ١٠٨].

هذا هو إنذار رسول الله ﷺ لبني إسرائيل وهي بشارة للمؤمنين في نفس الوقت، حيث يتم تجميع أهل الإفساد في الأرض في رقعة واحدة ويبلغ الإفساد أوجه بتتويج زعيمهم الأكبر ملكاً لأشرار العالم وهو (المسيح الدجال) الذي يكون أركان دولته وقادة جيوشه من يهود العالم[(١)].

إن الذين أوتوا العلم من أهل الكتاب يعلمون علم اليقين أن الملحمة الكبرى ستقع بينهم وبين أعدائهم، وهم يسمونها معركة (همرجدون) وتنص التوراة على وقوع هذه المعركة بين أهل الإيمان وأهل الفساد. وقد أخبرنا رسولنا عليه الصلاة والسلام بوقوع الملحمة الكبرى في بلاد الشام وما حولها.

ولكن من هم أهل الإيمان؟.

ومن هم أهل الكفر والضلال؟

ولمن تكون العاقبة.

لقد سخر اليهود في العالم قوى النصرانية لفهمها الخاص من نبوءات التوراة والكتاب المقدس، لأن في الكتاب المقدس عند النصارى أن المنقذ لأهل الإيمان سيأتي بعد الملحمة الكبرى. فكل تعجيل بوقوع الملحمة تعجيل لظهور المنقذ (المسيح).

فهم يسعون لتجميع اليهود في فلسطين وإقامة دولتهم لتتويج ملكهم على العالم لكي يأتي المنقذ فينقذ البشرية من شر اليهود (هذا في اعتقاد النصارى) أما اليهود فيرون أن ملكهم هو المنقذ ويأتي لتدمير العالم ولخلاص اليهود من أعدائهم وتمكينهم من السيطرة العالمية.

---

(١) في الحديث «يتبع الدجال من يهود أصفهان سبعون ألفاً عليهم الطيلسانات» انظر صحيح مسلم كتاب الفتن ٨/ ٢٠٧.

ولكن القوم لم يلتفتوا أنهم بدّلوا شرائع الأنبياء والمرسلين، وحرفوها فلم يعد ينطبق عليهم أوصاف أهل الإيمان الموحدين الذين يحكمون بشرائع الله: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [المائدة: ٤٥].

هذا في شأن التوراة واليهود أما النصارى فقد جاء في شأنهم ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [المائدة: ٤٦، ٤٧]، فهل أبقى اليهود من التوراة شيئاً لم يحرفوه وهل تركوا علامة بارزة على التوحيد إلا وطمسوها، وهل تركوا شرعة من شرائعه إلا وتحايلوا عليها، وهل تركوا سيرة نبي معصوم من أنبيائهم إلا وشوهوها. وهل تركوا معلماً من معالم الحق والنبوات إلا ودمروه. فأين الحق والإيمان عند اليهود حتى يأتي المنقذ لإنقاذهم.

وقل مثل ذلك في النصارى ماذ أبقوا من النصرانية لقد أفسد عليهم اليهود دينهم وأشبعوه تحريفاً وتبديلاً وأدخلوا فيه الوثنيات والخرافات والأساطير التي لا يقبلها عقل، والمسيح براء منها، وهم على الضلالات والخرافات التي لفقها اليهود لهم يسيرون تائهين، فأي إيمان لهم وأي حق يزعمون أنهم يتبعونه وأي توحيد أو عقيدة يتميزون بها.

فلا غرابة أن نفهم من سياق آيات سورة الإسراء أن الذين أوتوا العلم من قبله ـ أي القرآن ـ وهم أهل الكتاب الذين لم يحرّفوا ولم يقبلوا التحريف والتزييف: ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾﴾ [الإسراء: ١٠٧، ١٠٨].

إنهم يدركون أن هذا قدر الله الكوني سيقع لا محالة وهو إفساد بني إسرائيل في الأرض للمرة الثانية ليأتي بعد ذلك جند الله الموحدون وعلى رأسهم المنقذ المسيح عيسى ابن مريم صلوات الله وسلامه عليه ليقضي على مملكة الباطل وأهل الفساد والشر فيقتل بحربته ملكهم المتوج من قبل المفسدين في الأرض المسيح الأعور الدجال.

هذه نهاية الفساد وأهله والشر العالمي وأساطينه وأركان حربه ليقوم بعد ذلك حكم الله في الأرض ويعيش الناس بسلام في ظل الإسلام فتنزل بركات السماء وتخرج الأرض ثمراتها[1].

وقد يلتبس الأمر على بعض الناس. إذا كانت هذه سنة الله القدرية في اليهود وأن تجمعهم في فلسطين بداية النهاية لهم وهم يسعون إلى حتفهم بظلفهم فلماذا لا نمهد لهم ونتركهم يتجمعون كما تفعل الدول النصرانية الآن؟!

ونقول لرفع هذا الالتباس يجب التفريق بين الإرادتين القدرية الكونية والإرادة الشرعية.

فإننا متعبدون بسنن الله الشرعية (الإرادة الشرعية) وذلك بالتزام أحكام دينه وشرائعه المنزلة. فقد أمرنا أن لا نهادن الكفار، وأن نعدلهم ما استطعنا من قوة، وأن لا نجعل للكافرين علينا سبيلاً.

هذا رسول الله ﷺ ـ على الرغم من تأكيده لصحابته (ليتمن الله هذا الأمر حتى تسير الظعينة من حضر موت إلى صنعاء لا تخشى إلا الله والذئب على غنمها)[2].

وعلى الرغم من تيقنه بانتشار الإسلام حسب وعد ربه له ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

على الرغم من كل ذلك فقد كانت تصرفاته الشرعية تدور حول الأسباب الظاهرة فقد هاجر من مكة إلى المدينة وأرسى دعائم دولة النبوة، ووقع معاهدات الدفاع بين سكان المدينة ونظم الجيوش وبعث السرايا والطلائع وبث العيون وصالح في الحديبية وهادن بعض القبائل. وكل ذلك من الأسباب البشرية الظاهرة الملائمة للحالات.

---

(١) انظر الحديث في صحيح مسلم، كتاب الفتن ١٩٨/٨.

(٢) انظر صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار ٢٣٨/٤.

فعلينا أن نطبق شرع الله باتباع أوامره واجتناب نواهيه، وقد يكون ما نطبقه من شريعة ربنا تمهيداً للإرادة الكونية، وقد لا تتحقق إرادة الله الكونية في اليهود في زماننا هذا ونكون مقدمات لتحقيقها.

ولكن قبل الوصول إلى هذه النهاية، ما هي الأحداث العظام التي تنتظر شعوب المنطقة وهل تقفز إسرائيل بين عشية وضحاها لتكون أعظم قوة من المنطقة، أم تبدأ قوتها خطوة فخطوة.

وماذا عن الطرف الثاني للمعادلة أين بذرة وجود جند الله الموحدين والعباد المخلصين الذين تكون منهم كتائب أهل التوحيد في المستقبل؟!

هذا ما نحاول تجليته في الصفحات القادمة:

ليس من سنن الله الطفرة في الأشياء، فإذا أراد الله شيئاً هيأ أسبابه إن الذي يستعرض أوضاع المنطقة التي يطلقون عليها اسم (الشرق الأوسط) ولا يسمونها باسمها الحقيقي بلاد المسلمين أو العالم الإسلامي إمعاناً في استغفال المسلمين وبعداً عن أي كلمة تشعرهم بحقيقتهم ليبقوا في طي النسيان عن جوهرهم فإذا نسوا الله ودينه أنساهم الله أنفسهم، وهذه حقيقة قرآنية أشارت إليها الآية الكريمة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الحشر: ١٨، ١٩]، الذين تمردوا على شرائع الله نسوا قدرة الله وجبروته وبطشه، فأنساهم الله أنفسهم فيرتكبون كل حماقة وكل قبيحة تعود عليهم بالدمار ولا يدركون أين تكون مصالحهم التي فيها معايشهم وسعادتهم وعزتهم هذا هو الواقع الذي يتخبط فيه المسلمون الآن، إنهم يعيشون حياة التيه والضياع لأنهم ابتعدوا عن منبع عزتهم وعن الأنوار الكاشفة التي تضيء لهم طريق المجد والسيادة ألا إنها أضواء القرآن، وليس من باب الصدفة أن يأتي التمجيد للقرآن الكريم وبيان مكانته بعد ذكر آيات التيه والنسيان فلنقرأ: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الحشر: ٢٠، ٢١].

وهل من غرابة أن تأتي هذه الآيات في سورة الحشر التي يدور محورها حول واقعة بني النضير وهم من بني إسرائيل عندما تاهوا عن منهج الله ونسوا حقيقة أنفسهم وأعلنوا محادة الله ورسوله ومشاقته ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾﴾ [الحشر: ٢].

ألا يدل على أنهم نسوا الله فأنساهم أنفسهم، وأن طريق الهداية والرجوع عن هذا التيه والنسيان هو هذا القرآن العظيم.

إن المخطط لهذه الأمة الإسلامية أن تبقى في تيهها، وأن لا تفكر في حقيقة وجودها ولا تفكر في مصالحها ولا في مستقبلها.

إن التخطيط للشعوب الإسلامية يتم في غير بلادهم، ولا تراعى مصالحهم في الخطط المرحلية التي يكلفون بتنفيذها. لقد أصبحت بلاد المسلمين سوقاً استهلاكية لإنتاج مصانع الغرب والشرق.

والثروات التي أودعها الله سبحانه وتعالى في بلاد المسلمين تعمّر بها ديار غيرهم، ويلقى بالفتات منها إلى الطبقة الحاكمة في العالم الإسلامي لتحولها إلى سياط يلهبون بها بشرة أبناء المسلمين وليجعلوها أغلالاً وقيوداً ترسف بها كواهلهم إن هم حاولوا رفع رؤوسهم لقول كلمة الحق أو الدلالة على النهج القويم أو الاعتراض على السلوك المعوج السقيم الذي يسير عليه حكامهم الذين رباهم أعداء الإسلام على أعينهم.

نعود إلى ذكر طرف المعادلة الأخرى، نواة جند الله، وقلنا إنه ليس من سنة الله الطفرة في الأشياء وإنما سنته التدرج، إننا نعيش واقع الصحوة الإسلامية ونعيش الرعب الذي انتاب الغرب والشرق، الدول العظمى والدول الصغرى في العالم النصراني وفي العالم الوثني وفي العالم الإلحادي لمجرد أن ظهرت فئات من المسلمين تنادي بتطبيق الإسلام في بلادهم، وتعمل على التعرف على شخصيتهم الإسلامية المستقلة عن تبعية الآخرين، وتسعى إلى استغلال ثروات العالم الإسلامي في مصالح المسلمين.

فلماذا هذا الضجيج الإعلامي والعسكري العالمي من التحذير من هؤلاء الناس ألا يعيش في العالم غيرهم ولهم دول وكيانات وجيوش وعتاد...

إننا نعتقد أن بوادر تشكيل جند الله سيكون من بين صفوف هؤلاء ولكن سنة الله في الابتلاء والتمحيص ستكون ضخمة عليهم، كما كان على عهد رسول الله ﷺ ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة: ٢١٤].

فبعد الابتلاء والتمحيص يتنزل نصر الله تعالى على فئة من هؤلاء بعد أن يكونوا بذلوا أقصى ما يمكن بذله، وبعد أن يستنفذوا وسعهم في اتخاذ الأسباب الظاهرة، وبعد أن تنقطع آمالهم عن الناس ونصرتهم.

عندئذ يمكّن الله تعالى لهم في رقعة من الأرض ليقيموا عليها حكم الله، ثم تكون منطلقاً ليشع نور الإسلام أرجاء العالم الإسلامي، وتنطلق منها كتائب جند الله لتحرير العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد.

ومن بين صفوف هؤلاء تنطلق كتائب جند الله إلى اليهود لتقع الملحمة الكبرى وينزل نبي الله عيسى بن مريم عليه السلام ليكون في طليعة هذه الكتائب وقائدها في المعركة الفاصلة في باب اللد.

إن سنن الله في التغيير الاجتماعي بطيئة ولا يدركها إلا أهل البصيرة ولا يمكن تحديد مثل هذا التغيير والتحولات الضخمة في حياة الأمم والشعوب بعدد السنين أو العقود والقرون منها، وإنما يقررها نسبة التحول وحرارة التفاعل وسعة دائرته.

إن اليهود يدركون أن التحول الاجتماعي الهائل بدأ في العالم الإسلامي فيريدون إيقافه والحيلولة دون استمراره وتوسعه.

ولكن سنة الله القدرية غالبة: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ [الإسراء: ١٠٨].

إن الخوف ليس من أعداء الله البارزين، وإنما الخوف من المنافقين الذين

يندسون في صفوف المسلمين. الخوف منهم أن يعرقلوا المسيرة أو يوجهوها إلى غير وجهتها وهي من العقبات الكبيرة في المرحلة القادمة.

لذا كان لزاماً على قادة الصحوة الإسلامية أن يكونوا على بصيرة من أمرهم فلربما أخلى لهم العدو ساحة ليستجروهم إليها ويشغلوهم بالآثار التي تركوها في الساحة لعرقلة المسيرة. وربما ضخموا من قضايا خاصة بهم لينفخوا فيهم روح الغرور ليشغلوهم عن الانتباه لبناء الشخصية الربانية المخلصة وربما... وربما...

إن الأيام القادمة حبلى بالأحداث، وإن الغد لناظره لقريب، وليتمن الله أمره وليحققن وعده، والله على كل شيء قدير.

الخاتمة

تلك معالم قرآنية أنزلها الذي يعلم السر في السماوات والأرض، علاّم الغيوب وهي حقائق يقينية من الذي خلق وهو اللطيف الخبير عن دخائل نفوس اليهود التي تربت وفق تعاليم التلمود الحقود.

ولقد أدرك اليهود هذه الحقائق القرآنية، وعرفوا أن سبب عداوة العرب المحيطين بدولتهم هو الإسلام، فيحاولون إخراج الإسلام من الساحة وتحجيم دوره في كل المجالات بشتى الأساليب، ومن أبرز هذه الأساليب:

١ ـ إجراء دراسات حول الإسلام وخطره على الدول النصرانية ومصالحهم في العالم ونشر هذه الدراسات على أوسع نطاق، وهي دراسات من معاهد أبحاث وجامعات ومؤسسات متخصصة[١]. كما تركز على تخويف الحكام في بلاد المسلمين من عودة الإسلام إلى الحكم.

٢ ـ التآمر على المؤسسات العلمية الإسلامية والتقليل من شأنها وحصر دورها على مجالات ضيقة في الحياة الاجتماعية كالأزهر وجامع الزيتونة وجامعة عليكرة.. فبعد أن كانت مراكز لتخريج الدعاة والقادة والزعماء المصلحين، حصر دورها في تخريج مدرسي مادة الدين في المدارس والأئمة

(١) مثل كتاب (أثر الفكر الإسلامي في الصراع ضد الصهيونية) بحث لنيل درجة الدكتوراه من معهد ترومان في تل أبيب. وكتاب (أثر الإسلام في السياسات الإفريقية في الماضي والحاضر) عن مركز أبحاث السلام، كتاب (دور الإسلام كعنصر من عناصر الصراع العربي الإسرائيلي) من مركز أبحاث السلام.
وتنشر هذه الكتب بلغات مختلفة في أنحاء العالم، وما يترجم إلى العربية منها قليل جداً.

والخطباء في المساجد، وكانت السلطات العميلة هي المنفذة لمخطط الصهيونية كما نصت على ذلك البروتوكولات.

٣ ـ استئجار أقلام أدباء ومفكرين في العالم الإسلامي للترويج للإلحاد والبعد عن التمسك بالدين، والدعوة للصلح مع إسرائيل تحت شعارات: السلام والوفاق الدولي، والتعايش السلمي، والمصالح المشتركة، وازدهار المنطقة الاقتصادي[١].

٤ ـ إقامة ندوات للحوار بين الأديان (الإسلام والنصرانية واليهودية) لكسر الحاجز النفسي في الجلوس مع اليهود، وتطبيع العلاقات معهم، ويقصدون بالتطبيع:

أ ـ التسليم بوجود إسرائيل كدولة من المنطقة والتبادل الدبلوماسي، والثقافي والسياحي والاقتصادي والأمني..

ب ـ مراجعة العقل المسلم الذي ينصب العداء لليهود وتصحيح تصوراتهم عن اليهود بحذف النصوص من الكتاب والسنة والأحكام الواردة في شأنهم من المناهج الدراسية والكتب الثقافية.

جـ ـ القضاء على كل مظهر من المظاهر المخالفة للتطبيع وكبت الأصوات المستنكرة، وتصفية القائمين على المعارضة بتهمة التطرف والأصولية والإرهاب... إلخ.

---

(١) ما أن أعلن عن الاتفاق على المبادئ بين إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية عام ١٩٩٣م حتى انهالت الهبات على الطرفين، وتكفلت دول العالم الغنية بتقديم مساعدات تبلغ ملياري دولار خلال خمس سنوات، وذلك ليزرعوا في روع العالم العربي ومن ورائه العالم الإسلامي أن الصلح مع إسرائيل يحقق أحلامهم في رغد العيش والسعادة... ولم يدركوا أن إسرائيل تفعل كل شيء وتقدم التنازلات الكثيرة لتحقيق أمرين:

ـ فتح الأسواق العربية والإسلامية أمام دهاقنة الربا وأرباب الشركات اليهودية العالمية لاستغلال ثروات العالم الإسلامي الهائلة، ولا يتم ذلك إلا بتطبيع العلاقات مع إسرائيل.

ـ الأمر الثاني: أمن اليهودي في بيته، لأن صيحات التكبير التي يطلقها الشيب والشبان من أبناء فلسطين، وفي بلاد المسلمين تفزع اليهود ﴿يحسبون كل صيحة عليهم﴾.

نظرة للمستقبل من خلال النصوص والوثائق:

المستقرئ للأحداث في الوقت الراهن، والمتمعّن لسير التاريخ منذ مطلع القرن العشرين الميلادي، المتتبع لتصريحات زعماء اليهود، والمطلع على التقارير السرية التي يتداولها ساسة اليهود وما يفلت بين الحين والآخر عن الرقابة فينشر على الملأ - عن قصد وبغير قصد -.

كل ذلك يضع أمامنا معالم بارزة لرؤية مستقبلية يسعى اليهود إلى تحويلها إلى واقع:

١ - السياسة المرحلية في التوسع من خلال حشد الطاقات البشرية، وتجميع الأموال اللازمة لإنشاء المستعمرات وإعمار القرى، وإحياء الأرض الموات للزراعة - فإسرائيل على الرغم من إعلانها الرغبة في الصلح مع العرب بشروط تفرضها عليهم لا ترغب أن تلزم نفسها بحدود دولية مع الدول المجاورة، بل تريد إبقاء الحدود حسب الحاجة، فكلما ضاقت أرض إسرائيل بسكانها انتقلت حدودها إلى الوراء، وهي سياسة متبعة منذ السعي لإنشاء دولة إسرائيل وهو ما صرّح به وايزمن لتشرشل أثناء الحرب العالمية الأولى عندما ساومه على دعم اليهود المالي للمجهود الحربي البريطاني لقاء سعي بريطانيا لإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين، فسأله تشرشل عن حدود هذه الدولة، قال وايزمن إن حدودها يتسع حسب الحاجة وعلى ضوء هجرة اليهود إليها.

٢ - والمرحلة الحالية تقتضي جر المياه إلى صحراء النقب، وإقامة المستوطنات فيها وهجرة اليهود إليها، وذلك يتطلب السيطرة على مياه الليطاني والحاصباني واليرموك والفرات.

فإن تمكنت إسرائيل من ذلك عن طريق المفاوضات والصلح كان ذلك وإلا فالقوة كفيلة من تمكين إسرائيل من السيطرة على منابع هذه الأنهار ومن ثم تبدأ المفاوضات لإضفاء الصبغة القانونية على هذا الاستيلاء[١].

---

(١) انظر في السياسية المرحلية للتوسع كتاب خنجر إسرائيل، لتجد أن حروب العرب مع إسرائيل أعوام ١٩٥٤، ١٩٦٧، ١٩٧٣، ١٩٨١، تطبيق لسياسة التوسع المرحلية.

٣ ـ ولكن حلم الإسرائيليين الأكبر لا يتحقق بدون إقامة إسرائيل الكبرى، وإقامة الهيكل، وتتويج ملكهم على العالم فما حقيقة هذه القضايا الثلاث:

أ ـ أما إسرائيل الكبرى فكل مدينة أو بقعة من الأرض أو اسم جبل أو نهر ورد في كتب بني إسرائيل المقدسة، ينبغي ـ في معتقدهم ـ إعادتها إلى ملك بني إسرائيل لذلك فجنوب لبنان إلى حدود صيدا وعلى امتدادها إلى الشرق والجنوب إلى بوابة دمشق وحماه مروراً من الجنوب الشرقي إلى ضفاف نهر الفرات ـ النهر الكبير إلى الخليج ثم تمتد غرباً لتشمل خيبر وتيماء وفدك إلى ساحل البحر الأحمر ويتجاوز البحر الأحمر إلى منابع النيل ويماشي ضفاف النيل الشرقية إلى البحر الأبيض المتوسط[1]. كل ذلك داخل حدود إسرائيل الكبرى والسياسة المرحلية تسعى لضم هذه الأرض إلى الكيان الإسرائيلي.

ب ـ يسعى اليهود إلى إقامة هيكل سليمان[2]، ويقول بعض زعمائهم لا معنى لقيام إسرائيل بدون الهيكل، ولا معنى للهيكل بدون تتويج ملكهم على العالم.

---

(١) تسعى إسرائيل إلى إقامة وعد التوراة حيث جاء في سفر التكوين إصحاح١٥ الفقرة ١٨ ص٢٣: «في ذلك اليوم قطع الرب مع إبرام ميثاقاً قائلاً: لنسلك أعطي هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات».
وتكرر هذا الوعد في خطاب الرب مع يشوع بن نون، حيث جاء في سفر يشوع، الإصحاح١ الفقرة ١ـ ٥ ص٣٣٧:
«وكان بعد موت موسى عبد الرب أن الرب كلم يشوع بن نون خادم موسى قائلاً، موسى عبدي قد مات، فالآن قم اعبر هذا الأردن أنت وكل هذا الشعب إلى الأرض التي أنا معطيها لهم أي لبني إسرائيل، كل موضع تدوسه بطون أقدامكم لكم أعطيته كما كلمت موسى. من البرية ولبنان هذا إلى النهر الكبير نهر الفرات، جميع أرض الحثيين وإلى البحر الكبير نحو مغرب الشمس يكون تخمكم».

(٢) هناك جماعة يهودية تدعى جماعة الهيكل، وقد وضعت التصاميم النهائية له، وجمعت التبرعات، وحددت الموقع وهم ينتظرون الفرصة المواتية والظروف الدولية المناسبة لهدم المسجد الأقصى وإقامة الهيكل مكانه، وقد دفعوا أحد متعصبيهم إلى إضرام النار يوم ١٩٦٩/٨/٢١م، في المسجد، ولكن ردة الفعل عند المسلمين كانت قوية فتراجعوا، والآن ترتفع أصوات يهودية ـ بعد هدم الهندوس المسجد البابري في الهند عام ١٩٩٣ وتخاذل الحكومات في العالم الإسلامي واقتصارها على الاحتجاجات والبيانات في الإذاعات ـ تطالب بالخطوة التالية لتدمير الأقصى وبناء الهيكل.

وقبل الوصول إلى بناء الهيكل، لا بد لليهود من اتخاذ خطوات تدمّر القوى المحيطة بها وخاصة مكامن المسلمين، وفي المرحلة الأولى لذلك يؤلب اليهود القوى المعادية للإسلام من جميع الجهات. ويحاصرون المسلمين في مكة المكرمة والمدينة المنورة. وقد أخبر رسول الله ﷺ عن ذلك:

- عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الإيمان ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها**»(١).

- وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ: «**يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة**»(٢)، وهي الجبهة الغربية التي يحركها اليهود ضد المسلمين.

أما الجبهة الجنوبية فتتحرك بقيادة الملاحدة الحمر الذين ينشرون الدمار ويحرقون كل ما تصل إليه أيديهم ويكون منطلقهم من عدن، وقد أخبر رسول الله ﷺ عن النار التي تحشر الناس إلى أرض الشام ومبدؤها من قعر عدن(٣).

والجبهة الشمالية تنطلق من أرض الروم (الدول الغربية النصرانية) ويكون أرض الموقعة بلاد الشام وفيها الملحمة الكبرى.

فقد صح عن رسول الله ﷺ قال: «**لا تقوم الساعة حتى ينزل الروم بالأعماق أو بدابق فيخرج إليهم جيش من المدينة من خيار أهل الأرض يومئذ. .**» الحديث(٤).

والمعارك بين المسلمين والروم تكون في أربع جولات، تكون الغلبة للمسلمين في الرابعة، بعد أن تلحق خسائر بشرية هائلة بالطرفين(٥) وبعد تمكن

---

(١) انظر الحديث في صحيح البخاري، كتاب فضائل المدينة ٢/ ٢٢٢.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة ٨/ ١٨٣.

(٣) صحيح مسلم، الفتن ٨/ ١٧٩.

(٤) صحيح مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة ٨/ ١٧٦. قال شراح الحديث المراد بالمدينة مدينة حلب والأعماق ودابق موضعان (سهول) قرب حلب.

(٥) انظر صحيح مسلم كتاب الفتن٨/ ١٧٧.

أعداء الله من هدم الكعبة المشرفة وتدمير الأقصى وإقامة الهيكل مكانه توقد جذوة الإيمان في نفوس المؤمنين الصادقين، لتنطلق كتائب الإيمان ويحين وقت التوجه لاجتثاث بؤرة الفساد في الأرض لينادي الحجر والشجر يا مسلم يا عبد الله إن ورائي يهودياً فتعال فاقتله[1].

وتكون غضبة مسيخهم الدجال ليجند طاقات الشر في العالم ويخرج من شقة بين الشام والعراق ويكون أركان حربه وقواد جنده من اليهود.

جـ - سوف يسيطر اليهود على العالم بقيادة ملكهم المتوّج (المسيح الدجال) الذي يكون مبدأ طلوعه من الشمال الشرقي (إنه خارج خلّة بين الشام والعراق)، ولكن ملك الدجال قصير فهو لا يتجاوز أربعين يوماً، يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كأسبوع وسائر أيامه كالأيام المعتادة قلنا يا رسول الله وما لبثه في الأرض؟ قال: **«أربعون يوماً يوم كسنة ويوم كشهر ويوم كجمعة وسائر أيامه كأيامكم** قلنا: يا رسول الله فذلك اليوم الذي كسنة أيكفينا فيه صلاة يوم؟ قال: **«لا اقدروا له»** قلنا: يا رسول الله وما إسراعه في الأرض، قال: **«كالغيث استدبرته الريح فيأتي على القوم فيدعوهم فيؤمنون به ويستجيبون له، فيأمر السماء فتمطر والأرض فتنبت، فتروح عليهم سارحتهم أطول ما كانت ذراً وأسبغه ضروعاً وأمدّه خواصر، ثم يأتي القوم فيدعوهم فيردون عليه قوله فينصرف عنهم فيصبحون ممحلين ليس بأيديهم شيء من أموالهم ويمر بالخربة فيقول لها أخرجي كنوزك فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل. . .»**.

وتخرج كتائب الجهاد من بلاد الشام حيث فسطاطهم في الغوطة، وينزل المسيح عيسى بن مريم عليه السلام إلى أن يقتل الدجال في باب اللد بين بيت المقدس وتل أبيب، وبذلك تستأصل شأفة الفساد في الأرض[2].

---

(١) في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر والشجر يا مسلم، يا عبد الله هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود» انظر صحيح مسلم، كتاب الفتن ٨/١٨٨.

(٢) صحيح مسلم كتاب الفتن ٨/١٩٧. جاء في الصحيح بعد أن يقتل عيسى بن مريم عليه =

وصايا واقتراحات

إن التكليف الشرعي يقتضي منا أن نطبق أحكام ديننا الحنيف وأن نقف في وجه أي إلحاد فيه أو تحريف لنصوصه أو تعطيل لأحكامه، بغض النظر عن الموقع الذي نكون فيه أو الحالة التي نكون عليها.

وإلى جانب ذلك فإننا نوصي المسلمين بأن يكونوا على يقين وثقة تامة بوعد ربهم في أن الدائرة ستدور على أعدائهم في نهاية المطاف، فلا ينبغي أن يعرف اليأس والقنوط سبيلهما إلى قلوبهم.

١ ـ إن هيمنة الكفار على الحياة السياسية العالمية وتسليط عملائهم على دعاة الإسلام في دياره سيكون له نهاية، فإن سنة التدافع تأبى أن تنفرد دولة أو مذهب باطل بالعالم وإدارة شؤونه. ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٤٠﴾ [الحج: ٤٠].

٢ ـ إن سنة الله سبحانه وتعالى الخاصة ببني إسرائيل ستتحقق ﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبۡعَثَنَّ عَلَيۡهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٦٧﴾ [الأعراف: ١٦٧] إلى أن تأتي المرة

= السلام الدجال، يأتيه الخبر بخروج يأجوج ومأجوج فيوحي الله إليه أني قد أخرجت عباداً لي لا يدان لأحد بقتالهم فحرز عبادي إلى الطور ويبعث الله يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون... ثم قال للأرض انبتي ثمرتك وردّي بركتك فيومئذٍ تأكل العصابة من الرمانة ويستظلون بقحفها.. انظر الحديث بطوله في صحيح مسلم. كتاب الفتن ١٩٨/٨.

الآخرة ـ أي الأخيرة ـ ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ وقد تقدمت الإشارة إلى ما يلحق بهم في وعد الآخرة: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾﴾ [الإسراء: ٧].

إننا واثقون من هذه السنة الإلهية فيهم وهي قادمة لا محالة لأنها وعد للمؤمنين ولن يخلف الله وعده، ووعيد لليهود ولن يعجز الله شيء في تنفيذ وعيده.

٣ ـ إن الحكم الشرعي الذي نتعبد الله به هو أن اليهود يُقبلون في دولة الإسلام وعلى الأرض الإسلامية كأهل ذمة. وأقلية تعيش بين المسلمين لهم حقوقهم التي نص عليها الفقهاء، والنصوص الواردة في الكتاب والسنة في حسن التعامل معهم على هذا المبدأ أما كدولة تحتل جزءاً من ديار المسلمين، فلا يجوز إقرارهم على ذلك شرعاً.

٤ ـ الحقائق التي ذكرها القرآن الكريم عن اليهود وأوضحت السنة النبوية تفصيلاتها من خلال التعامل مع اليهود حقائق ندين الله عز وجل بها ـ وقد أشرنا إلى جملة من ذلك في هذا الكتاب وطمس هذه المعالم أو تحريفها أو تأويلها عن دلالاتها الصحيحة تلاعب بدين الله وشرعه يستوجب على علماء الأمة ـ الذين أخذ عليهم العهد والميثاق ـ بيان أحكام دينه وشرعه ولا يجوز لهم السكوت عليها.

فيا حكام المسلمين اتقوا الله في رعيتكم التي استرعاكم الله إياها وأنتم مسؤولون عنها يوم القيامة «**كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته فالإمام راع ومسؤول عن رعيته**» واعلموا أن الله جعلكم أوصياء على هذه الأمة لترعوا مصالحها الدينية والدنيوية، فتكونوا بمثابة وصي اليتيم، أو راعي الإبل يهنأ جرباها ويرتاد لها المرعى الخصيب ويجنبها الأرض المجدبة والمسبعة.

ولئن أحاطت بكم ظروف لم تستطيعوا معها الدفاع عن الذمار وتحرير الأوطان فلا أقل أن تحافظوا على الوضع ولا تفرطوا فيه ليتسلم الأمانة منكم من آتاه الله القوة والمكنة ليعمل على رفع شأن المسلمين ويحقق الآمال.

ويا علماء المسلمين: لقد أخذ الله منكم العهد والميثاق على مقالة الحق وعدم كتمان العلم فلا تجعلوا من أنفسكم جسراً يمر عليه الحكام للوصول إلى أغراضهم الدنيوية وشهواتهم الوضيعة.

ولا تكونوا سلماً يرتقي عليه الطامعون إلى الأمجاد الشخصية ثم يدفعونه بأرجلهم إلى الأرض، فلا تبيعوا دينكم بدنيا غيركم.

إنكم القادة الحقيقيون للأمة إن اتقيتم الله في وراثتكم للنبوة وبينتم للأمة طريق الفلاح والسعادة على ضوء كتاب الله وسنة رسوله فلا خير فيكم إن لم تقولوا للمنحرف عن شرع الله قف واستقم على منهج الله.

ويا أيها المسلمون اتقوا الله في أنفسكم فلا تكونوا كقطعان الماشية تساق إلى حتفها بظلفها، فما قادتكم إلا أجراء عندكم، أنتم الذين تولونهم ومن كدكم وجهدكم وعرق جبينكم توفرون لهم وسائل رفاههم وبسواعدكم تدافعون عن عروشهم، وتبنون الأوطان وتعمرون الديار فاتقوا الله في أنفسكم وفي ديار المسلمين ومقدساتهم وطاقاتهم وثرواتهم ومستقبل الأجيال عن الضياع وتسليط الأعداء.

اللهم هل بلّغت، اللهم اشهد.

الفهارس

فهرس الآيات

سورة آل عمران

فهرس الأحاديث

الحديث	الصفحة

فهرس الأعلام

فهرس المراجع

١ - الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، المكتبة العصرية.
٢ - أخلاق اليهود، وفاء صادق، دار الفرقان.
٣ - أسباب النزول، الواحدي دار القبلة.
٤ - الأسفار المقدسة، علي عبد الواحد وافي، نهضة مصر.
٥ - الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، الحلبي.
٦ - الأفعى اليهودية في معاقل الإسلام، عبد الله التل، المكتب الإسلامي.
٧ - البحر المحيط، أبو حيان، مكتبة النصر الحديثة.
٨ - التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية.
٩ - تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم)، أبو السعود، مكتبة الرياض الحديثة.
١٠ - تفسير البغوي (معالم التنزيل)، البغوي، دار المعرفة.
١١ - تفسير الطبري (جامع البيان)، ابن جرير الطبري، دار المعرفة.
١٢ - تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، الحلبي.
١٣ - تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن)، القرطبي، دار الكتب.
١٤ - تفسير المنار، محمد رشيد رضا، دار المعرفة.
١٥ - جذور البلاء، عبد الله التل، المكتب الإسلامي.
١٦ - حصوننا مهددة من داخلها، محمد محمد حسين، المنار.
١٧ - خنجر إسرائيل، كرانجيا ترجمة مروان الجابري، المكتب التجاري.
١٨ - الدر المنثور، السيوطي، دار الفكر.
١٩ - زاد المسير، ابن الجوزي، المكتب الإسلامي.
٢٠ - زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن القيم، دار الفكر.
٢١ - السيرة الحلبية (إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون)، علي برهان الدين الحلبي، الحلبي.
٢٢ - سيرة الرسول، محمد عزة دروزة، الدوحة.

٢٣ ـ السيرة النبوية، ابن كثير، الحلبي.
٢٤ ـ السيرة النبوية، ابن هشام، دار المعرفة.
٢٥ ـ سنن الترمذي (الجامع الصحيح)، الترمذي، المكتبة السلفية.
٢٦ ـ الشخصية اليهودية من خلال القرآن، صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار القلم.
٢٧ ـ صحيح البخاري (الجامع الصحيح)، محمد إسماعيل البخاري، المكتبة الإسلامية.
٢٨ ـ صحيح مسلم (الجامع الصحيح)، مسلم بن حجاج، دار الفكر.
٢٩ ـ صراعنا مع اليهود، محمد إبراهيم ماضي، دار اليقين.
٣٠ ـ صراعنا مع اليهود في ضوء السياسة الشرعية، محمد عثمان شبير، مكتبة الفلاح.
٣١ ـ الطبقات الكبرى، ابن سعد، دار صادر.
٣٢ ـ الطريق إلى بيت المقدس، جمال عبد الهادي مسعود، دار الوفاء.
٣٣ ـ عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، السمين الحلبي، دار السيد.
٣٤ ـ الفكر الديني اليهودي، حسن ظاظا، دار القلم.
٣٥ ـ فلسفة وأهداف تربية الطفل اليهودي، المفتي، وزبادي، دار الإبداع.
٣٦ ـ في ظلال السيرة النبوية، محمد عبد القادر أبو فارس، دار الفرقان.
٣٧ ـ في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق.
٣٨ ـ قادة الغرب يقولون، جلال العالم، دار الأرقم.
٣٩ ـ الكامل في التاريخ، ابن الأثير، دار صادر.
٤٠ ـ الكتاب المقدس، دار الكتاب المقدس في العالم العربي.
٤١ ـ الكنز المرصود في قواعد التلمود، روهلنج ترجمة يوسف نصر الله، دار القلم.
٤٢ ـ كنوز التلمود، ليفي، ترجمة محمد خليفة التونسي، دار البيان.
٤٣ ـ مباحث في التفسير الموضوعي، مصطفىٰ مسلم، دار القلم.
٤٤ ـ مختصر سنن أبي داود، المنذري، دار المعرفة.
٤٥ ـ المسند، أحمد بن حنبل، دار صادر.
٤٦ ـ المعجم في النحو والصرف، زين العابدين التونسي، مكتبة الشرق.
٤٧ ـ معركة الوجود بين القرآن والتلمود، عبد الستار فتح الله سعيد، مكتبة المنار.
٤٨ ـ المقاصد الحسنة، السخاوي، دار الكتب العلمية.
٤٩ ـ مكايد يهودية عبر التاريخ، عبد الرحمٰن حبنكة، دار القلم.

٥٠ ـ الملل المعاصرة في الدين اليهودي، إسماعيل راجي الفاروقي، مكتبة وهبة.
٥١ ـ الملل والنحل، الشهرستاني، دار المعرفة.
٥٢ ـ النفوذ اليهودي في الأجهزة الإعلامية، فؤاد سيد عبد الرحمٰن الرفاعي، بيت الحكمة.
٥٣ ـ النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، دار إحياء التراث العربي.
٥٤ ـ همجية التعاليم الصهيونية، بولس حنا مسعد، المكتب الإسلامي.
٥٥ ـ وفاء الوفا، السمهودي، دار إحياء التراث العربي.
٥٦ ـ اليهود تاريخ وعقيدة، كامل سعفان، دار الاعتصام.
٥٧ ـ اليهود في القرآن، محمد عزة دروزة، المكتب الإسلامي.
٥٨ ـ اليهود وراء كل جريمة، وليم كار، دار الكتاب العربي.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الباب الثاني: المعالم القرآنية لسنن الله القدرية في اليهود

في هذا الكتاب

قصة بروتوكولات حكماء صهيون.
رسول الله واليهود.
مناقشة القرآن لليهود.
لماذا عاهدهم الرسول ﷺ.
مخطط اليهود للسيطرة على النفوس.
توجيه ما ورد في تفضيل بني إسرائيل.
حكم الاغتيال السياسي.
المعاصرون وأحكام الأسر في الإسلام.
سنن الله في اليهود.
داود عليه السلام عند اليهود.
المعارك مع اليهود ١٩٤٨ م - ١٩٥٦م - ١٩٧٣ م.
اليهود والحروب العالمية.
مستقبلنا مع اليهود.



تُطلب جميع كتُبنا مِن:

دَار القَلم ـ دمَشق: ص ب: ٤٥٢٣ ـ ت: ٢٢٢٩١٧٧
الدَار الشاميَّة ـ بَيروت ـ ت: ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
ص ب: ١١٣/٦٥٠١

توزَع جميع كتبنا في السعُوديَّة عَن طريق
دَار البَشير ـ جدَّة: ٢١٤٦١ ـ ص ب: ٢٨٩٥
ت: ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١